در چشم ... رفتی و گفتی به تو یارم
من چون نکنم گریه که بی چشم ندارم

که سیه کرد چشم یار مرا
که سیه کرد روزگار مرا

مولانا جامی

نجات وصلک او قدت چراغ شوقک فی الحشا
زغمت بسینه کم آتشی که نزد زبانه کما تشا

لامیر صالح

ستاره‌ایست در گوشش او هلال ابرو
ز روی حسن بخورشید می‌زند پهلو

سو

زچشمت چشم آن دارم که از چشمم نیندازد
بچشمانت که چشم را بجز چشمت نمی‌باید

اشعار مبارك حضرت مخدومی سلمه الله وابقاه

كتاب ادب الدين والدنيا

تاليف قاضي القضاة ابي الحسن

علي بن محمد بن حبيب الماوردي

البصري الشافعي

من منّ من نعم الله سبحانه وتعالى
على فقيره وعبده الراجي منه عفوه ولطفه
وغفرانه الاغا عثمان اغا المشرف فيه
اوقفه وقفا صحيحا ... في عام ١١٠٩

٣٤٧

هذه النسخة الجليلة والمجلة الجميلة من وقف حضرت مولانا صاحب الخيرات الحسان ساحب ذيل الجود والاحسان
منور مصابيح المقاصد بانوار العناية مفتح معاقد المراصد بمفتاح الكفاية جامع محاسن العلم والعمل
حائز مجامع البر الاكمل الا وهو اغاء دار السعادة الحاج بشير وفقه للخير المزيد والبر الكثير من هو على كل
شيء قدير حرره الفقير اليه سبحانه وتعالى محمد امين المفتش باوقاف الحرمين المحترمين
عفي له

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الطول والالا وصلي الله علي محمد خاتم الرسل والانبيا
وعلى اله وصحابته الاتقيا اما بعد فان شرف المطلوب بشرف
نتايجه وعظم خطره بكثرة منافعه تجب العناية به وعلى قدر العناية به تكون
اجتناء ثمره واعظم الامور خطرا وقدرا واعمها نفعا ورفدا ما استقام
به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الاخرة والاولي لان باستقامة الدين
تصح العباده ولصلاح الدنيا تتم السياده وقد توخيت بهذا الكتاب
الاشارة الي ادابهما وتفصيل ما اجمل من احوالهما على اعدل الامرين
من ايجاز وبسط اجمع فيه بين تحقيق الفقها وترقيق الادبا فلا ينبو عن
فهم ولا يدق في وهم مستشهدا من كتاب الله جل اسمه ما يقتضيه ومن
سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يضاهيه ثم متبعا ذلك بامثال
الحكما واداب البلغا واقوال الشعرا لان القلوب ترتاح الي الفنون
المختلفة وتسام الفن الواحد وقد قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه
ان القلوب تمل كما تمل الابدان فاهدوا اليها طرايف الحكمة وكان
المامون يتنقل كثيرا في داره من مكان الي مكان وينشد
لا يصلح النفس اذ كانت مدبرة الا التنقل من حال الي حال
وجعلت ما تضمنه ذلك خمسة ابواب فالباب الاول في فضل
العقل وذم الهوي والباب الثاني في ادب العلم والباب الثالث
في اداب الدين والباب الرابع في ادب الدنيا والباب الخامس

في ادب النفس واستودعه حفاظ موهبته
لطوله ومشيته وهو حسبي ونعم المعين

باب فضل العقل وذم الهوي

اعلم ان لكل فضيلة اسا ولكل ادب ينبوعا واس الفضايل وينبوع الادب
هو العقل الذي جعله الله سبحانه للدين اصلا وللدنيا عمادا فاوجب الدين
بكماله وجعل الدنيا مدبرة باحكامه والف به بين خلقه في اختلاف هممهم ومآربهم
وتباين اغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبدهم به قسمين قسما وجب بالعقل فوكده
بالشرع وقسما جاز في العقل فاوجبه الشرع وكان العقل عليهما جبارا
وروي عن النبي صلى الله عليه وعلى اله انه قال ما اكتسب المرء مثل عقل
يهدي صاحبه الي هدي او يرده عن ردي وروي عن النبي صلي الله
عليه وعلى اله انه قال ان لكل شي دعامه ودعامة عمل المرء عقله فبقدر
عقله تكون عبادته لربه اما سمعتم قول الفاجر لو كنا نسمع او نعقل
ما كنا في اصحاب السعير وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اصل الرجل
عقله وحسبه دينه ومروته خلقه وقال الحسن البصري ما استودع
الله عبدا عقلا الا استنقذه به يوما ما وقال بعض الحكما العقل افضل
مرجو والجهل انكى عدو وقال بعض الادبا صديق كل امرء عقله
وعدوه جهله وقال بعض البلغا خير المواهب العقل وشر المصايب الجهل
وقال بعض الشعرا وهو ابراهيم بن حسان
يزين الفتى في الناس صحة عقله وان كان محظورا عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله وان كرمت اعراقه ومناسبه

يعيش الفتى في الناس بالعقل انه ... علي العقل يجري علمه وتجاربه
وافضل قسم الله للمرء عقله ... فليس من الاشيا شي يقاربه
اذا اكمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت اعراقه ومآربه

اعلم ان بالعقل تعلم حقايق الامور وتفصل بين الحسنات والسيات
وقد ينقسم قسمين غريزي ومكتسب فالغريزي هو العقل الحقيقي
وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوزه الي زياده ولا يقصر عنه الي نقصان
وبه يمتاز الانسان عن ساير الحيوانات فاذا تم في الانسان سمي عاقلا
وخرج به الي حد الكمال كما قال صالح بن عبد القدوس

اذا تم عقل المرء تمت اموره ... وتمت اياديه وتم بناه

وروي عن الضحاك في قوله تعالى لينذر من كان حيا اي من كان عاقلا
واختلف الناس فيه وفي صفته علي مذاهب شتى فقال قوم هو جوهر
شريف لطيف يفصل به بين حقايق الامور المعلومات ومن قال
بهذا القول اختلفوا في محله فقالت طايفه منهم محله الدماغ لان
الدماغ محل الحس وقالت طايفه اخرى منهم محله القلب
لان القلب معدن الحياه ومادة الحواس وهذا القول
في العقل بانه جوهر لطيف فاسد من وجهين احدهما ان
الجواهر متماثله فلا يصح ان يوجب لبعضها

قل بعضها ما لا يوجب سايرها ولو اوجب سايرها ما يوجب بعضها لاستغنى العاقل
بوجود نفسه عن وجود عقله والثاني ان الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان
العقل جوهرا لجاز ان يكون عقل بغير عاقل كما جاز ان يكون جسم
بغير عقل فامتنع بهذين ان يكون العقل جوهرا وقال اخرون العقل هو
المدرك للاشياء علي ما هي عليه من حقايق المعنى وهذا القول وان
كان اقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو ان الادراك
من صفات الحي والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل منه ان
يكون ملتذا والما ومشتهيا وقال اخرون من المتكلمين العقل هو
جملة علوم ضروريه وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الاجمال
وتناوله من الاحتمال والحد انما هو بيان المحدود بما ينفي عنه الاجمال
بلغ والاحتمال وقال اخرون القول الصحيح ان العقل هو العلم بالمدركات
الضروريه وذلك نوعان احدهما ما وقع عن درك الحواس والثاني
ما كان مبتدا في النفوس فاما ما كان واقعا عن درك الحواس
فمثل المرئيات المدركه بالنظر والاصوات بالسمع والطعوم المدركه
بالذوق والروايح المدركه بالشم والاجسام المدركه باللمس
فاذا كان الانسان ممن لو ادرك بحواسه هذه الاشيا ثبت له
[illegible] من العلم لا خروجه في حا[illegible]
[illegible] لا اعوج من ان يكون تام العلم [illegible]
[illegible] ادرك [illegible] واما ما كان مبتدا في النفوس فالعلم بان
الشي لا يخلو من وجود او عدم وان الموجود لا يخلو من حدوث [illegible]

أو قدم وأن من المحال اجتماع الضدين وأن الواحد أقل من الاثنين وهذا
النوع من العلم لا يجوز أن ينتفي عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله
وإذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل
العقل وسمي بذلك تشبيها بعقل الناقة لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام
على الشهوات إذا قبحت كما يمنع العقال الناقة من الشرود إذا نفرت
ولذلك قال عامر بن عبد قيس إذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل
وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول في العقل وهو ما روي أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل ودل
من نفى أن يكون العقل جوهرا أثبت محله في القلب لأن القلب محل العلوم
كلها قال الله تعالى أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها
فدلت هذه الآية على أمرين أحدهما أن العقل علم والثاني أن محله القلب
وفي قوله يعقلون بها تأويلان أحدهما يعلمون بها والثاني يعتبرون بها فهذا
جملة القول في العقل الغريزي وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل
الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة وإصابة الفكر وليس لهذا
حد لأنه ينمي إن استعمل وينقص إن أهمل ونماؤه يكون بأحد وجهين إما
بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صاد عن شهوة كالذي
يحصل للإنسان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب وممارسة الروية
الأمور ولذلك حمدت العرب آراء الشيوخ حتى قالوا المشايخ أشجار
الوقار ومنابع الأخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم إن رأوك
في قبيح صدوك وإن أبصروك على جميل أمدوك وقالوا عليكم بآراء

الشيوخ

وقف[illegible] على أن رأي [illegible]
أفضل أم رأي الشيخ

فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر
وتصدت لأسماعهم آثار الغير وقيل في منثور الحكم من طال عمره
نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله وقيل فيه لا تدع الأيام جاهلا
إلا أدبته وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأدبا وبتقلب الأيام عظة
وقال بعض البلغاء التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل وقال بعض
الحكماء كفى مخبرا عما بقي ما مضى وكفى عبرا لأولي الألباب ما جرى وقال بعض
المتقدمين العقل زين لأهله ولكن تمام العقل طول التجارب ه وقال آخر
إذا طال عمر المرء في غير آفة أفادت له الأيام في كرها عقلا — الشعر
وأما الوجه الثاني فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة
وذلك جودة الحدس في زمان غير مهمل للحدس فإذا امتزج بالعقل الغريزي
صارت نتيجتهما نمو العقل المكتسب كالذي يكون في الأحداث من
وفور العقل وجودة الرأي حتى قال عمر بن قطبة حين نافر إليه عامر
بن الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحديث السن الحديد الذهن
ولعل عمرا أراد أن يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما ذكر لم يكن
قوله ادعاء للحق فصار إلى جهل حداثة سنه وحدة ذهنه
فأبى أن يحكم بينهما فرجعا إلى عمر فحكم وفيه يقول لبيد
يا عمر بن الأكرمين منصبا ه قد أوتيت حكما معجبا ه — انك
وقد قالت العرب عليكم بمشاورة الأحداث الشباب فإنهم ينتجون رأيا لم ينقله
طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم وقد قال الشاعر
رأيت العقل لم يكن انتهابا ولم يقسم على عدد السنينا ه



ولو أنّ السّنين تتابعت حولي الا بانصبه بمثاه

حكى الاصمعي قال قلت لغلام حدث من اولاد العرب كان يحادثني فامتعني بفصاحته وملاحته ايسرك ان يكون لك مائة الف درهم وانك احمق قال لا والله قلت ولم قال اخاف ان يجني علي حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى علي حمقي فانظر الى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنباط جودة قريحته ما لا يهتدي اليه من هو اكبر منه سنا واكثر تجربة

واحسن من هذا الذكاء والفطنة ما حكي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه الا عبد الله بن الزبير فقال له عمر ما لك لا تهرب مع اصحابك فقال لم اجرم فاخافك ولم تكن الطريق ضيقة فاوسع لك فانظر الى ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة كيف نفى اللوم واثبت الحجة وليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية

وحكي ان سليمان بن عبد الملك امر الفرزدق بضرب اعناق اسارى من الروم فاستعفاه الفرزدق فلم يعفه فاعطاه سيفا لا يقطع فقال الفرزدق بل اضربهم بسيف ابي رغوان مجاشع يعني سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومي منهم فنبا السيف فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق

ايعجب الناس ان اضحكت سيدهم ... خليفة الله يستسقى به المطر
لم ينب سيفي من رعب ولا دهش ... عن الاسير ولكن اخر القدر
ولن يقدم نفسا قبل ميتتها ... جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

ثم غمد سيفه وهو يقول

ما ان يعاب سيد اذا صبا ... ولا يعاب صارم اذا نبا ... ولا يعاب شاعر اذا كبا

ثم جلس وهو يقول كأني بابن المراغة وقد هجاني فقال بسيف ابي رغوان

بسيف ابي رغوان سيف مجاشع ... ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

فقام وانصرف وحضر جرير فخبر الخبر ولم ينشد الشعر فانشأ يقول بسيف ابي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم ثم قال يا امير المؤمنين كأني بابن المراغة قد هجاني فقال

ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم ... اذا اثقل الاعناق حمل المغارم

فاستحسن سليمان ما حدس الفرزدق على جرير ثم اخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يخبر بحدسه فقال الفرزدق

كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها ... وتقطع احيانا مناط التمائم
ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم ... اذا اثقل الاعناق حمل المغارم
وهل ضربة الرومي جاعلة لكم ... ابا عن كليب او اخا مثل دارم

مثل حديث الفرزدق حين جيء ان المهدي اتي باسرى من الروم فامر بقتلهم وكان عنده شبيب بن شيبة فما لم يضربه فقتل العلج فقال يا امير المؤمنين قد عرفت ما ابتلي به الفرزدق فعيّر به قومه الى اليوم فقال انما اردت تشريفك وقد اعفيتك وكان ابو المول الشاعر حاضرا فقال

حز عنق الرومي وهو مقيد ... فكيف ولو لاقيته وهو مطلق
دعا امير المؤمنين لقتله ... فكاد شبيب عند ذلك يفرق
فنح شبيبا عن قراع كتيبة ... وادن شبيبا من كلام يلفق

وليس العجب من خبر الفرزدق فانه انما يكون من حدوث الحدثين ولكن من اتفاق الخاطرين ولمثل ذلك قالت الحكماء العقل سريعة الفهم

وغاية اصابة الفهم وليس لمن منح جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب
وان اعضل وقيل لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه كيف يحاسب الله العباد على
كثرة عددهم قال كما يرزقهم على كثرة عددهم وقيل لعبد الله بن عباس
رضي الله عنه اين تذهب الارواح اذا فارقت الاجساد فقال اين تذهب نار
المصابيح عند فناء الادهان وهذان الجوابان جوابا اثباتين تضمنا دليلي ادعا
وحجتي قهر ومن غير هذا الفن وان كان مستنكرا ما حكي عن ابليس لعنه الله
انه حين ظهر لعيسى عليه السلام قال الست تقول انه لن يصيبك الا ما كتب الله عليك قال
نعم قال فارم نفسك من هذا الجبل فانه ان يقدر لك السلامة تسلم فقال
له يا ملعون ان الله يختبر عباده وليس للعبد ان يختبر ربه ومثل هذا الجواب
لا يستغرب من انبيا الله الذين امدهم بوحيه وايدهم بنصره وانما يستغرب ممن
يلجا الى خاطره ويعول على بديهته ٥ وروي عن قثم بن العباس قال قيل لعلي
بن ابي طالب رضي الله عنه كم بين السما والارض قال دعوة مستجابة
قيل فكم بين المشرق والمغرب قال مسيرة يوم للشمس فكان هذا السوال
من سايله اما اختبارا واما استبصارا فصدر عنه عليه السلام ما اسكت
فاما اذا اجتمع الى هذا الوجهان في العقل المكتسب وهو ما فيه فرط
الذكا وجودة الحدس وصحة القريحة وحسن البديهة مع ما يمده الاستعما
بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل
على الاطلاق في الرجل الفاضل لاستحقاق ٥ روى انس بن مالك
قال اثني على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال كيف
عقله قالوا يا رسول الله ام عبادته ان من خليقته ان من فضله فقال عقله

6

قالوا يا رسول الله نثني عليه بالعبادة واصناف الخير وتسالنا عن عقله
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاحمق العابد يصيب بجهله
اعظم من فجور الفاجر وانما يقرب الناس من ربهم الزلف على قدر عقولهم
واختلف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى هل زيادة تكون
فضيلة ام لا فقال قوم لا تكون فضيلة لان الفضايل هيئات متوسطة
بين فضيلتين ناقصتين كما ان الخير توسط بين رذيلتين فما جاوز
التوسط خرج عن حد الفضيلة وقد قالت الحكما للاسكندر ايها الملك
عليك بالاعتدال في كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز
هذا مع ما وردت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال
خير الامور اوساطها وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه خير الامور
النمط الاوسط اليه يرجع الغالي ومنه يلحق التالي وقال الشاعر
لا تذهبن في الامور فرطا لا تسالن ان سالت شططا وكن من الناس جميعا
قالوا ولان زيادة العقل تفضي بصاحبها الى الدها والمكر وذلك مذموم
وصاحبه ملوم وقد امر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابا موسى الاشعري
ان يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد يا امير المومنين اعن موجدة او خيانة فقال
لا عن واحدة منهما ولكن خفت ان احمل على الناس فرط عقلك ومن اجل
هذا المعنى عزم ما قيل قديما افراط العقل مضر بالجد وقال بعض الحكما
كفاك من عقلك ما دلك على سبيل رشدك وقال بعض البلغا قليل يكفي
خير من كثير يطغي وقال اخرون وهو اصح القولين زيادة العقل
فضيلة لان المكتسب غير محدود وانما تكون زيادة الفضايل

فصل في اختلاف الناس في العقل الكسبي عند تناهيه

العقل الصحيح ان زيادة حسنه

المحدودة نقصا مذموما لان ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة الا ترى ان الشجاع
اذا زاد على حد الشجاعة نسب الى التهور والسخي اذا زاد على حد السخا
نسب الى التبذير وليس كذلك حال العقل المكتسب لان الزيادة فيه
فضيلة علم بالامور وحسن اصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن بما كان
وذلك فضيلة لا نقص وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال افضل
الناس اعقل الناس وروي عنه عليه السلم انه قال العقل حيث كان الف
مالوف وقد قيل في قوله تعالى قل كل يعمل على شاكلته اي على حسب
عقله وقال القاسم بن محمد كانت العرب تقول من لم يكن عقله اغلب
خصال الخير عليه كان حتفه في اغلب خصال الخير عليه وقال بعض
الحكماء كل شي اذا كثر رخص الا العقل فانه اذا كثر غلا وقال بعض
البلغا ان العاقل من عقله في ارشاد ومن رايه في امداد فقوله سديد
وفعله حميد والجاهل من جهله في اغواء ومن هواه في اغراء فقوله
سقيم وفعله ذميم وانشدني لبعض الادبا

من لم يكن اكثره عقله اهلكه اكثر ما فيه

فاما الدها والمكر فهو مذموم لان صاحبه صرف فضل عقله الى
الشر ولو صرفه الى الخير لكان محمودا وقد ذكر ابن الخطاب
فقال كان والله افضل من ان يخدع واعقل من ان يخدع وقال عمر
لست بالخب فلا يخدعني الخب واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله
الى الشر كزياد واشباههم من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلا
ام لا فقال بعضهم اسميه عاقلا لوجود العقل منه وقال اخرون لا اسميه

حتى يكون خيرا دينا لان الخير والدين من موجبات العقل فاما الشرير
فلا اسميه عاقلا وانما اسميه صاحب روية وفكر وقد قيل العاقل
من عقل عن الله امره ونهيه حتى قال اصحاب الشافعي رضي الله عنه
لو اوصى بثلث ماله لاعقل الناس انه يكون مصروفا في الزهاد لانهم انقادوا
للعقل ولم يغتروا بالامل وروى لقمان بن ابي عامر عن ابي الدردا
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا عويمر ازدد عقلا تزدد
من ربك قربا قلت بابي وامي ومن لي بالعقل قال اجتنب محارم الله
وادّ فرايض الله تكن عاقلا ثم تنفل بصالحات الاعمال تزدد في الدنيا
عقلا وتزدد من ربك قربا وبه عزا وانشدني بعض اهل الادب
وذكر انها لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه

ان المكارم اخلاق مطهرة فالعقل اولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والعرف سادسها
والبر سابعها والصبر ثامنها والشكر تاسعها واللين عاشرها
والنفس تعلم اني لا اصدقها ولست ارشد الا حين اعصيها
والعين تعلم في عيني محدثها من كان من حزبها او من اعاديها

واعلم بان العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي لانه نتيجة منه وقد ينفك
العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل بل
موفور الرذايل كالانوك الذي لا تجد له فضيلة والاحمق الذي قل ما تخلوا
منه رذيلة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق لا نجا
لا ينفع ولا يشبع وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق ابغض

خلق الله اليه اذ حرمه اعز الاشيا عليه ه وقال بعض الحكما الحاجة
الى العقل اقبح من الحاجة الى المال ه وقال بعض البلغا دولة الجاهل
عبرة العاقل وقال انوشروان لبزرجمهر اي الاشيا خير للمرء
قال عقل يعيش به قال فان لم يكن قال فاخوان يسترون عيبه
قال فان لم يكن قال فمال يتحبب به الى الناس قال فان لم يكن قال فعي صامت
قال فان لم يكن قال فموت جارف وقال سابور بن اردشير العقل
نوعان احدهما مطبوع والاخر مسموع ولا يصلح واحد منهما الا بصاحبه
فاخذ ذلك بعض الشعرا فقال

رايت العقل نوعين فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مطبوع اذا لم يك مسموع
كما لا ينفع العين وضو الشمس ممنوع

وقد وصف بعض الادبا العاقل بما فيه من الفضايل والاحمق بما فيه من الرذايل
فقال العاقل اذا والى بذل في المودة نصره واذا عادى رفع عن الظلم
قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله ان احسن اليه احد ترك
المطالبة بالشكر وان اسا اليه مسي سبب له اسباب العذر او منحه
الصفح والعفو والاحمق ضال مضل ان اونس تكبر وان اوحش
تكدر وان استنطق تخلف وان ترك تكلف مجالسته مهنة
ومعاتبته محنة ومحاورته تعر وموالاته تضر ومقاربته شقا
وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل
والاحمق يسي الى غيره ويظن انه قد احسن اليه فيطالبه بالشكر

ويحسن اليه فيظن انه قد اسا اليه بالوتر فمساوي الاحمق لا تنقضي
وعيوبه لا تتناهى ولا يقف النظر منها الى غاية الا لوحت ما وراها
مما هو ادنى منها واردى وامر وادهى فما اكثر العبر لمن نظر
وانفعها لمن اعتبر ه وقال الاحنف بن قيس من كل شي يحفظ الاحمق
الا من نفسه وقال بعض البلغا ان الدنيا ربما اقبلت على الجاهل بالاتفاق
وادبرت عن العاقل بالاستحقاق فان اتتك منها سهمة مع جهل او
فاتتك منها بغية مع عقل فلا يحملنك ذلك على الرغبة في الجهل
والزهد في العقل فدولة الجاهل من الممكنات ودولة العاقل من الواجبات
وليس من امكنه شي من ذاته كمن استوجبه بالته وادواته ه
وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذي يحن الى النقلة ودولة العاقل
كالنسيب الذي يحن الى الوصلة فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها
بغير عقل او منزلة رفيعة حلها بغير فضل فان الجهل ينزله منها
ويزيله عنها ويحطه الى رتبته ويرده الى قيمته بعد ان تظهر
عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه هاجيا ووليه معاديا ه
واعلم ان الحسب بما ينشر من فضايل العاقل كذلك يظهر من رذايل
الجاهل حتى يصير مثلا في الغابرين وحديثا في الاخرين مع هتكه
في عصره وقبح ذكره في دهره كالذي رواه عطا عن جابر قال
كان في بني اسرايل رجل له حمار فقال يا رب لو كان لك حمار
لعلفته مع حماري فهم به نبي من انبيا الله فاوحى الله اليه انما اثيب
كل انسان على قدر عقله ه واستعمل معاوية رجلا من كلب فذكر

فذكر المجوس يوما عنده فقال لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم
والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أمي فبلغ ذلك معاوية
فقال قبحه الله أترونه لو زاده فعل وعزله وولى الربيع العامري وكان
من النوكى ساير اليمامة فأقاد كلبا بكلب فقال فيه الشاعر

شهدت بأن الله حقا لقاؤه ... وأن الربيع العامري رقيع
أقاد لنا كلبا بكلب ولم يدع ... دماء كلاب المسلمين تضيع

وليس لمعار الجهل غاية ولا لمضار الحمق نهاية وقال الشاعر

لكل داء دواء يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها

فصل فأما الهوى فهو عن الخير صاد وللعقل مضاد
لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ويظهر من الأفعال فضائحها ويجعل
ستر المروءة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا قال عبد الله بن عباس
رضي الله عنه الهوى إله يعبد من دون الله ثم تلا أفرأيت من اتخذ
إلهه هواه قال عكرمة في قوله ولكنكم فتنتم أنفسكم يعني بالشهوات
وتربصتم بالتوبة وارتبتم يعني في أمر الله وغرتكم الأماني يعني بالتسويف
حتى جاء أمر الله يعني الموت وغركم بالله الغرور يعني الشيطان
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال طاعة الشهوة داء وعصيانها
دواء وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقدعوا هذه النفوس
عن شهواتها فإنها طلاعة تنزع إلى شر غاية إن هذا الحق ثقيل
مريء وإن الباطل خفيف وبيء وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة
ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخاف عليكم اثنين الهوى
وطول الأمل فإن اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الأمل ينسي
الآخرة ٥ وقال الشعبي إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه
وقال أعرابي إن اسم الهوى أهوان ولكن غلط باسمه فأخذه الشاعر فقال

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وفي فصل منثور الحكم من أطاع هواه أعطى عدوه مناه ٥
وقال بعض الحكماء العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع ٥
وقال بعض البلغاء أفضل الناس من عصى هواه وأفضل منه من رفض
دنياه ٥ وقال هشام بن عبد الملك بن مروان

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى كل ما فيه عليك مقال

قال ابن المعتز لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت وقال الشاعر

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى ... فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الأعداء جهلا بنفسه ... وقد وجدت فيه مقالا عواذله
وما يردع النفس اللجوج عن الهوى ... من الناس إلا حازم الرأي كامله

فلما كان الهوى غالبا وإلى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه رقيبا
مجاهدا يلاحظ عثرة غفلته ويدفع سطوة بادرته ويوضح خداع
حيلته لأن سلطان الهوى قوي ومدخل مكره خفي ومن هذين
الوجهين يؤتى العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليه
أعني بأحد الوجهين قوة سلطانه وبالآخر خفاء مكره فأما الوجه
الأول فهو أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى يستولي

عليه مغالبة الشهوات فيكل العقل عن دفعها ويضعف عن منعها مع
وضوح قبحها في العقل المقهور بها وهذا يكون في الاحداث اكثر وعلى الشباب
اغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعي الهوي المتسلط عليهم وانهم ربما
جعلوا الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن بشير

كل يري ان الشباب له في كل مبلغ لذة عذرا

وكذلك قال بعض الحكما الهوي ملك غشوم ومتسلط ظلوم وقال
بعض الادبا الهوي عسوف والعدل مالوف وقال بعض الشعرا

يا عاقلا اردي الهوي عقله ما لك قد سدت عليك الامور
اتجعل العقل اسير الهوي وانما العقل عليه امير

وحسم ذلك أن يستعين بالعقل علي النفس النفور فيشعرها ما في
عواقب الهوي من شدة الضرر وقبح الاثر وكثرة الاجرام وتراكم
الاثام فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره
والنار بالشهوات فاخبر ان الطريق الي الجنة احتمال المكاره
والطريق الي النار اتباع الشهوات وقد قال علي بن ابي طالب رضي
الله عنه اياكم وتحكيم الشهوات علي انفسكم فان عاجلها ذميم
واجلها وخيم فان لم يرها تنقاد بالتحذير والارهاب سوفها
بالتاميل والارغاب فان الرغبة والرهبة اذا اجتمعا في النفس
ذلت لهما وانقادت وقد قال ابن السماك كن لهواك مسوفا ولعقلك
مسعفا وانظر ما تسوء عاقبته فوطن نفسك علي مجانبته فان ترك
النفس وما تهوي داؤها وترك ما تهوي دواها فاصبر علي الدوا

15

كما تخاف من الداء وقال الشاعر

صبرت علي الايام حتي تولت والزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتي فان طمعت تاقت والا تسلت

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد اشعرت من عواقب الهوي لم يلبث الهوا
ان يصير بالعقل مزجورا وبالنفس مقهورا ثم له الحظ الاوفي في ثواب
الخالق وثنا المخلوقين قال الله تعالي واما من خاف مقام ربه ونهى
النفس عن الهوي فان الجنة هي الماوي وقال الحسن افضل الجهاد
جهاد الهوي وقال بعض الحكما اعز العز الامتناع من ملك الهوي
وقال بعض البلغا خير الناس من اخرج الشهوة من قلبه وعصي هواه في
طاعة ربه وقال بعض الادبا من امات شهوته احيي مروته وقال
بعض العلما ركب الله الملايكة من عقل بلا شهوة وركب البهايم
من شهوة بلا عقل وركب ابن ادم من كليهما فمن غلب عقله علي شهوته
فهو خير من الملايكة ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهايم
وقيل لبعض الحكما من اشجع الناس واحراهم بالظفر في مجاهدته
قال من جاهد الهوي طاعة لربه واحترس الناس من ورود خواطر
الهوي علي قلبه وقال بعض الشعرا

فقد يدرك الحازم ذو الراي المنا بطاعة الحزم وعصيان الهوا

واما الوجه الثاني فهو ان يخفي الهوي مكره حتي تتموه افعاله
علي العقل فيتصور القبيح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعوا اليه
احد شيين اما ان يكون للنفس ميل الي ذلك الشي فيخفي عنها

عنها القبيح حسناً ظناً او تتصوره حسناً لشدة ميلها ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم حبك الشيء يعمي ويصم اي يعمي عن الرشد ويصم عن
الموعظة وقال صلى الله عليه وسلم الهوى عمى وقال الشاعر

حسنٌ في كل عين من تود

وقال عبد الله بن معوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب عليه السلام

ولست براء عيب ذي الود كله ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

واما السبب الثاني فهو استثقال الفكر في تمييز ما اشتبه
وطلب الراحة في اتباع ما استسهل حتى يظن ان ذلك اوفق امريه
واحمدها اليه اغترارا بان الاسهل محمود والاعسر مذموم فلن
يعدم ان يتورط بخدع الهوى وزينة المكر في كل مخوف حذر
ومكروه عسر ولذلك قال عامر بن الظرب الهوى يقظان والعقل
راقد فمن ثم غلب وقال سليمان بن وهب الهوى امنع والرأي انفع
وقيل في المثل العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح وقال الشاعر

اذا المرء اعطى نفسه كلما اشتهت ولم ينهها تاقت الى كل باطل

وساقت اليه الاثم والعار بالذي دعته اليه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الاول ان يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه
فان العين رائد الشهوة والشهوة من دواعي الهوى والقلب
رائد الحق والحق من دواعي العقل وقال بعض الحكماء نظر الجاهل
بعينه ونظر العاقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه في صواب ما احبت

ما احبت وتحسين ما اشتهت ليصح له الصواب ويستبين له الحق فان
الحق اثقل محملا واصعب مركبا فان اشكل عليه امران اجتنب احبهما
اليه وترك اسهلهما عليه فان النفس عن الحق انفر وللهوى آثر وقد
قال العباس بن عبد المطلب اذا اشتبه عليك امران فدع احبهما
اليك وخذ اثقلهما عليك وعلة هذا القول هو ان الثقيل
يبطي النفس عن التسرع اليه فيصح مع الابطاء وتطاول الزمان
صواب ما استعجم وظهور ما استبهم وقد قال علي بن ابي طالب
رضي الله عنه من تفكر ابصر والمحبوب اسهل تسرع النفس اليه
وتعجل بالاقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه ويفوت استدراكه
لقصور فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل ولا الاستبانة بعد الفوت
وقد قال بعض الحكماء ما كان عندك معرضا فلا تكن به متعرضا وقال الشاعر

اليس طلاب ما قد فات جهلا وذكر المرء ما لا يستطيعه

ولقد وصف بعض البلغاء الهوى وما يقارنه من محن الدنيا
فقال الهوى مطية الفتنة والدنيا دار المحنة فانزل عن الهوى
تسلم واعرض عن الدنيا تغنم ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي
ولا تفتنك دنياك بحسن العواري فمدة اللهو تنقطع وعارية
الدهر ترجع ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم وتكتسبه من المآثم
وقال علي بن عبد الله الجعفري سمعتني امراة بالطواف وانا انشد
اهوى هوى الدين واللذات تعجبني فكيف لي بهوى اللذات والدين
فقالت هما ضرتان فذر ايهما شئت وخذ الاخرى فاما فرق

ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول هو ان الهوى مختص بالآراء والاعتقادات والشهوة تختص بنيل اللذات فصارت الشهوة من نتايج الهوى وهي اخص والهوى اصل وهو اعم ونحن نسال الله تعالى ان يكفينا دواعي الهوى ويصرف عنا سبل الردى وان يجعل التوفيق لنا قايدا والعقل لنا مرشدا فقد روي ان الله تعالى اوحى الى عيسى عليه السلم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني وقال محمد بن كناسة

ما من روى ادبا فلم يعمل به ... وكيف عن زيغ الهوى بأديب

حتى يكون بما تعلم عاملا ... من صالح فيكون غير معيب

ولقلما تغني اصابة قايل ... افعاله افعال غير مصيب

وقال آخر

ابدا بنفسك فانهها عن غيها ... فاذا انتهت عنه فانت حكيم

فهناك تعذر ان وعظت ويقتدى ... بالقول منك ويقبل التعليم

لا تنه عن خلق وتاتي مثله ... عار عليك اذا فعلت عظيم

حكى ابو قروة ان طارقا صاحب شرطة خالد القسري مر بابن شبرمة وطارق في موكبه فقال ابن شبرمة

اراها وان كانت تحب كانها ... سحابة صيف عن قليل تقشع

اللهم لي ديني ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضا فقال له ابنه اتذكر قولك يوم كذا اذ مر بك طارق في موكبه فقال يا بني انهم يجدون مثل ابيك ولا يجد ابوك مثلهم ان اباك اكل من حلاوتهم فحط في اهوايهم اما ترى هذا الدين الفاضل كيف عوج

كيف عولج بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من خصوصيه ولعله من اخص نفسه فكم منا ونحن اطلق منه عنانا واقلق منه جنانا اذا رمقنا اعين المتتبعين وتناولتنا السن المتعنتين هل نجد غير توفيق الله ملاذا وسوى عصمته معاذا

باب أدب العلم

اعلم ان العلم اشرف ما رغب فيه الراغب وافضل ما طلبه وجد فيه الطالب وانفع ما كسبه واقتناه الكاسب لان شرفه ينم على صاحبه وفضله ينمي على طالبه قال الله تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون فمنع المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم وقال تعالى وما يعقلها الا العالمون فنفى ان يكون غير العالم يعقل عنه امرا او يفهم عنه زجرا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اوحى الى ابراهيم عليه السلم اني عليم احب كل عليم وروى ابو امامة قال سيل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين احدهما عالم والاخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم رجلا وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ابنا ما تحسنون وقال مصعب بن الزبير تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يا بني تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطا سدتم وان كنتم سوقة عشتم وقال بعض الحكما العلم شرف لا قدر له والادب مال لا خوف عليه وقال بعض الادبا العلم افضل خلف والعمل به اكمل شرف وقال بعض البلغا تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيرا ويقدمك ويسودك

كبيرا ويصلح زيغك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم
عوجك وميلك ويصحح همتك وامالك وقال علي رضي الله عنه
قيمة كل امرئ ما يحسن فاخذه الخليل نظمه شعرا فقال

لا يكون العلي مثل الدني لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي
قيمة المرء قدر ما يحسن المرء قضاء من الامام علي

وليس يجهل فضل العلم الا اهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم
وهذا ابلغ في فضله لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذي به
يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا اهله وتوهموا
ان ما تميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناة والطرف المشتهاة اولى ان
يكون اقبالهم عليها واحرى ان يكون اشتغالهم بها وقد قال ابن المعتز
في منثور الحكم العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لا يعرف
العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله انصرف فواغ العلم واهله
انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف العاندين لان من جهل
شيا عاداه وانشدني ابن لنكك لابي بكر بن دريد

جهلت فعاديت العلوم واهلها كذاك يعادي العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى ان يرى متصدرا ويكره لا ادري اصيبت مقاتله

وقيل لبزرجمهر العلم افضل ام المال فقال بل العلم قيل
فما لنا نرى العلماء على ابواب الاغنياء ولا نكاد نرى الاغنياء على ابواب العلماء
فقال ذلك لمعرفة العلماء المال وجهل الاغنيا بفضل العلم وقيل بمنفعة
لبعض الحكماء لم لا يجتمع العلم والمال فقال لعز الكمال وانشدت لبعض اهل

هذا العصر

13

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله فاجسامهم قبل القبور قبور
وان امرأ لم يحي بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا
يسقم نفسا فاخرج له طعاما ونفقة فقال فاقتي الى كلامكم اشد من فاقتي
الى طعامكم اني طالب هدى لا طالب ندى فاذن له العالم وافاده من كل ما
سال عنه فخرج جذلان فرحا علم اوضح لبسا خير من مال اغنا نفسا واعلم
ان كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال
قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم قال كل الناس وروي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من ظن ان للعلم غاية فقد بخسه حظه
ووضعه في غير منزلته التي وصفه الله بها حيث يقول وما اوتيتم من العلم
الا قليلا وقال بعض العلماء لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدانا العلم
بالنقيصة ولكنا نطلبه لننتقص في كل يوم من الجهل ونزداد في كل
يوم من العلم وقال بعض العلماء المتعمق في العلم كالسابح في البحر ليس يرى
ارضا ولا يعرف طولا ولا عرضا وقيل لحماد الراوية اما تشبع من هذه
العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ فيها المحدود فنحن كما قال
الشاعر ٥ اذا قطعنا علما بدا علم ٥ وانشد الرشيد عن المهدي

يا نفس خوضي بحار العلم او غوصي فالناس من بين معموم ومخصوص
لا شي في هذه الدنيا نحيط به الا احاطة منقوص بمنقوص

واذا لم يكن الى معرفة العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى اهمها والعناية جميع
باولاها وافضلها واولى العلوم وافضلها علم الدين لان الناس بمعرفته

يرشدون وبجهله يضلون اذ لا يصح اداء عبادة جهل فاعلها صفات
ادائها ولم يعلم شروط اجزائها ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة وانما كان ذلك كذلك لان العلم
يبعث على فضل العبادة والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون
عبادة فلزم علم الدين كل مكلف ولذلك قال النبي صلى الله عليه
وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وفيه تاويلان احدهما علم
ما لا يسع جهله من العبادات والثاني جملة العلم اذا لم يقم بطلبه
من فيه كفاية واذا كان علم الدين قد اوجب الله تعالى فرض بعضه على
الاعيان وفرض جميعه على الكافة كان اولى مما لا يجب فرضه على الاعيان
ولا على الكافة قال الله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة
ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون
وروى عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد
فاذا هو بمجلسين احدهما يذكرون الله تعالى والاخر يتفقهون فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير واحدهما احب
الي من صاحبه اما هؤلاء فيسالون الله تعالى ويذكرونه فان شاء
اعطاهم وان شاء منعهم واما المجلس الاخر فيتعلمون الفقه ويعلمون
الجاهل وانما بعثت معلما وجلس الى اهل الفقه وروى مروان بن جناح
عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الخير عادة والشر انه قال
لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وروي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال خيار امتي علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها وروي

معاذ بن رفاعة عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه
تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين وروي عن النبي صلى
الله عليه وسلم على خلفائي قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتي
ويعلمونها عباد الله وروى حميد عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال الفقه في الدين حق على كل مسلم الا فتعلموا وعلموا وتفقهوا
ولا تموتوا جهالا وروى سليمان بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال ما عبد الله بشيء افضل من فقه في الدين ولفقيه واحد اشد على الشيطان
من الف عابد ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه وربما مال بعض
المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ورأى انها احق بالفضيلة
واولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف واسترذالا لما جاء به
الشرع من التعبد والتوقيف والكلام مع مثل هذا في اصل لا يتسع
له هذا الفصل وان نرى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته
لان العقل يمنع ان يكون الانسان هملا او سدى يعتمد على ارائهم
المختلفة ويعمل دون اهوائهم المتشعبة لما تؤول اليه امورهم
من الاختلاف والتنازع ويفضي اليه احوالهم من التباين والتقاطع فلم
يستغنوا عن دين يتالفون به ويتفقون عليه ثم العقل موجب له
او متابع ولو تصور هذا المختل التصور ان الدين ضرورة في العقل
وان العقل بالدين اصل لقصر عن التقصير واذعن للحق ولكن اهمل
نفسه فضل واضل وقد يتعلق بالدين علوم قد تمن الشافع فضيلة

الرد على من اعتقد افضلية المعقول

الدين

كل واحد منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره
ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رايه ومن تعلم العربية
رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ولعمري ان صيانة النفس اصل
الفضايل لان من اهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا
على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله فلم
يف ما اعطاه العلم بما سلبه التبذل لان القبيح انم من الجميل والرذيلة
اشهر من الفضيلة لان الناس لما في طباعهم من بغضة الحسد ونزاع
المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوي فلا ينصفون محسنا
ولا يحابون مسيا لاسيما من كان بالعلم موسوما واليه منسوبا فان
زلته لا تقال وهفوته لا تعذر اما لقبح اثرها واغترار كثير من الناس
بها وقد قيل في منثور الحكم ان زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق
معها خلق كثير وقيل لعيسى بن مريم عليه السلم من اشد الناس فتنة
قال زلة العالم اذا زل زل بزلته عالم كثير فهذا وجه فلان
اهل الجهل ذمه اغرى وعلى تنقصه احرى ليسلبوه فضيلة
التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص عنادا لما جهلوه ومقتا لما باينوه
لان الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما كما ان العالم يرى الجهل تخلفا
وذما وانشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

ومنزلة السفيه من الفقيه كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه ازهد منه فيه
اذا غلب الشقا على سفيه تنطع في مخالفة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو
ما جهل وانا اكره ان تكون عدو شي من العلم وانشد

تفنن وخذ من كل علم فانما يفوق امرؤ في كل فن له علم
فانت عدو للذي انت جاهل به ولعلم انت تتقنه سلم

واذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها امن عثار
الموالي وسقط المعادي وجمع الى فضيلة العلم كمال الصيانة
وعز النزاهة فصار بالمنزلة التي يستحقها بفضايله وروى ابو
الدردا ان النبي صلى الله عليه وسلم قال العلما ورثة الانبيا ان الانبيا
لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم وروى ابو هريرة
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للانبيا على العلما فضل درجتين
وللعلما على الشهدا فضل درجة وقال بعض البلغا ان من الشريعة
ان تجل اهل الشريعة ومن الصنيعة ان ترب حسن الصنيعة
فينبغي لمن استدل بفطرته على استحسان الفضايل واستقباح الرذا
ان ينفي عن نفسه رذايل الجهل بفضايل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ
المعاناة ويرغب في العلم رغبة متحقق لفضايله وواثق بمنافعه ولا
يلهيه عن طلبه كثرة مال وجدة ولا نفوذ امر وعلو منزلة
فان من نفذ امره فهو الى العلم احوج ومن علت منزلته فهو بالعلم
احق وروى انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه
مجالس الملوك وقد قال بعض الادبا كل عز لا يوطده علم مذلة

السعدا افضل من العلما

وكل علم لا يويده عقل مضله وقال بعض علما السلف اذا اراد الله بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم والملك في علمايهم وقال بعض البلغا العلم عصمه الملوك لانه يمنعهم من الظلم ويردهم الي الحلم ويصدهم عن الاذيه ويعطفهم علي الرعيه فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويستبطنوا اهله فاما المال فظل زايل وعاريه مسترجعه وليس في كثرته فضيله ولو كانت فيه فضيله لما خص الله به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته وقد كان اكثر انبيا الله تعالي مع ما خصهم به من كرامته وفضلهم علي ساير خلقه فقرا لا يجدون بلغه ولا يقدرون علي شي حتي صاروا في الفقر مثلا وقال البحتري

فقر كفقر الانبيا وغربة ... وصبابة ليس البلا بواحد

ولعدم الفضيلة في المال منحه الله الكافر وحرمه المومن قال الشاعر

كم كافر بالله امواله ... تزداد اضعافا علي كفره
ومومن ليس له درهم ... يزداد ايمانا علي فقره
بالايم الذهر وافعاله ... مشتغلا لا يزري علي دهره
الدهر مامور له امر ... ينصرف الدهر الي امره

وقد بين علي بن ابي طالب رضي الله عنه فضل ما بين العلم والمال فقال العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال العلم حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الاموال وبقي خزان العلم اعيانهم مفقوده واشخاصهم في القلب موجوده وسيل بعض العلما ايما افضل المال ام العلم فقال الجواب عن هذا ايما افضل المال

لم

اكثر

16

ام العقل وقال صالح بن عبد القدوس

لا خير فيمن كان خير ثيابه ... في الناس قولهم غني واجد

وربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبره وعلو سنه واستحيا من تقصيره في صغره ان يتعلم في كبره فرضي بالجهل ان يكون موسوما به واثره علي العلم ان يصير مبتديا به وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل لان العلم اذا كان فضيله فرغبة ذوي الاسنان فيه اولي والابتدا بالفضيله فضيله ولان يكون شيخا كبيرا متعلما اولي من ان يكون شيخا جاهلا حكي ان بعض الحكما راي شيخا كبيرا يحب النظر في العلم ويستحي فقال له يا هذا اتستحي ان تكون في اخر عمرك افضل مما كنت في اوله وذكر ان ابراهيم بن المهدي دخل علي المامون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه فقال يا عم ما عندك فيما يقولها ولا شغلونا في الصغر واشغلنا في الكبر فقال لم لا تتعلمه اليوم قال او يحسن بمثلي طلب العلم قال نعم والله لان تموت طالبا للعلم خير من ان تعيش قانعا بالجهل قال والي متي يحسن بي طلب العلم قال ما حسنت بك الحيوه ولان الصغير اعذر وان لم يكن في الجهل عذر لانه لم تطل به مدة التفريط ولا استمرت عليه ايام الاهمال وقد قيل في منثور الحكم جهل الشباب معذور وعلمه محقور فاما الكبير فالجهل به اقبح ونقصه عليه افضح لان علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكانت ايامه في الجهل ماضيه ومن الفضل خاليه كان الصغير افضل منه لان الرجا له اكثر والامل فيه اظهر وحسبك نقصا في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل افضل منه انشدت لبعض اهل الادب

إذا لم يكن مر السنين مترجما عن الفضل في الإنسان سميته طفلا
وما تنفع الأيام حين يعدها ولم يستفد فيهن علما ولا فضلا
أرى الدهر من سوء التصرف مائلا إلى كل ذي جهل كأن به جهلا

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة وشغله اكتسابها عن التماس العلم
فهذا وإن كان أعذر من غيره مع أنه قل ذلك إلا عند ذي شره وغلبة
وشهوة مستعبدة فينبغي أن يصرف إلى العلم حظا من زمانه فليس كل
الزمان زمان اكتساب ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام
عطلة ومن صرف كل نفسه إلى الكسب حتى لم يترك لها فراغا إلى غيره
فهو من عبيد الدنيا وأسراء الحرص وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
أن لكل شيء فترة فمن كانت فترته إلى العلم فقد نجا وروي عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال كونوا علماء صالحين فإن لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا
العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى أو يردكم عن الردى وقد قال
بعض العلماء من أحب العلم أحاطت به فضائله وقال بعض الحكماء من صاحب العلماء
وقر ومن جالس السفهاء حقر وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته
وبعد غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوي
النقص وخيفة أولي العجز لأن الإخبار قبل الاختبار جهل والخشية قبل
الابتلاء عجز وقد قال الشاعر ه

لا تكونن للأمور هيوبا فإلى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه
فقال كفى بترك العلم إضاعة وليس إن تفاضلت الأذهان وتفاوتت

الفطن

ما ينبغي لمن قل منها حظه أن ييأس من نيل القليل وإدراك اليسير الذي
يخرج به من حد الجهالة إلى أدنى مراتب التخصص فإن الماء لينه يؤثر
في صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الزكي في نفس راغب شهي وطالب خلي
لا سيما وطالب العلم معان قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الملائكة لتضع
أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب وربما منع من هذا السفاهة من طلب
العلم أن يصور في نفسه حرفة أهله وتضايق الأمور مع الاشتغال به حتى
يسمهم بالإدبار ويتوسمهم بالحرمان فإن رأى مجدودا تطير بها وإن رأى كا...
أعرض عنه وإن رأى متحليا بالعلم هرب منه كأنه لم ير عالما مقبلا وجاهلا
مدبرا ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوي منازل وأحوال كنت أخفي
عنهم ما يصحبني من محبرة وكتاب لئلا أكون عندهم مستثقلا وإن
كان البعد منهم مؤنسا ومصلحا والقرب منهم موحشا ومفسدا فقد قال بزرجمهر
الجهل في القلب كالنز في الأرض يفسد ما حوله لكن اتبعت فيهم الحديث
المروي عن أبي الأشعث عن أبي عثمان عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال خالطوا الناس بأخلاقهم وخالفوهم في أعمالهم ولذلك قال بعض
البلغاء رب جهل وقيت به علما وسفه حميت به حلما وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها
صلاح ولا يؤمل لها فلاح لأن من اعتقد أن العلم شين وأن تركه زين
وأن للجهل إقبالا مجديا وللعلم إدبارا مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده
مستبعدا وكان هو الخامس الهالك الذي قال فيه علي بن أبي طالب رضي الله
عنه اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك
وقد رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم

مسندا وليس لمن هذه حالة في العذل نفع ولا في الصلاح مطمع وقد قيل
لبزرجمهر ما لكم لا تعاتبون الجاهل فقال لانا لا نكلف العمي ان يبصروا
ولا الصم ان يسمعوا وهذه الطايفة التي تنفر من العلم هذا النفور وتعاند
اهله هذا العناد يرى العقل بهذه المثابة وينفر من العقلا اهل النفور
ويعتقد ان العاقل محارف وان الاحمق محظوظ وناهيك بضلال من هذا
اعتقاده في العقل والعلم فهل يكون لخير اهلا او لفضيلة موضعا
وقد قال اخبث الناس المساوي بين المحاسن والمساوي وعلة هذا انهم
راوا عاقلا غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا ان العلم والعقل
هما السبب في قلة حظه ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان اكثر
النوكى وادبار اكثر الجهال لان في العقلا والعلما قلة وعليهم من
فضلهم سمة وفضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنوهوا بالتمييز
واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين
بايما الشامتين والجهال والحمقى لما كثروا ولم يختصوا انصرفت
عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت ولا قصد المحدود
منهم باشارة عايب فلذلك ظن الجاهل المرزوق ان الفقر والضيق مختص
بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو تصفحت احوال العلما والعقلا
مع قلتهم لوجدت الاقبال في اكثرهم ولو اعتبرت امور الجهال والحمقى
مع كثرتهم لوجدت الحرمان في اكثرهم وانما يصير ذو الحال الواسعة
منهم ملحوظا مشتهرا لان حظه عجيب واقباله مستغرب كما ان حرمان
العاقل العالم غريب واقلاله عجيب ولم تزل الناس على سالف الدهور
من

من مثل ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجمهر ما اعجب الاشيا
فقال نجح الجاهل واكدا العاقل لكن الرزق بالحظ والجد لا بالعلم
والعقل حكمة منه تدل على قدرته واجرا الامور على مشيته وقد
قالت الحكما لو جرت الاقسام على قدر العقول ما عاشت البهايم
فنظمه ابو تمام فقال

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدي الفتى من دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجري على الحجا هلكن اذا من جهلهن البهايم

وقال كعب بن زهير بن ابي سلمى

لو كنت اعجب من شي لاعجبني سعي الفتى وهو مخبوله القدر
يسعى الفتى لامور ليس يدركها والنفس واحدة والهم منتشر

على ان العلم والعقل سعادة واقبال وان قل معهما المال وضاقت
معهما الحال والجهل والحمق حرمان وادبار وان كثر معهما المال
واتسعت فيهما الاحوال لان السعادة ليست بكثرة المال فكم من
مكثر شقي ومقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغني سعيدا والجهل يضعه
ام كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه وقد قيل في
منثور الحكم كم من ذليل اعزه علمه وكم من عزيز اذله جهله وقال
عبد الله بن المعتز الجاهل كروضة على مزبلة وقال بعض الحكما كلما
حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحا وقال بعض العلما لبنيه يا بني تعلموا العلم
فان لم تنالوا به من الدنيا حظا فلان يذم الزمان لكم احب الي من ان يذم
الزمان بكم وقال بعض الادبا من لم يفد بالعلم مالا اكتسب به جمالا

وانشد بعض اهل الادب لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفي انينه ويضحي كئيب البال عندي حزينه
يلوم على ان رحت للعلم طالبا اجمع من عند الرواة فنونه
فاعرف ابكار الكلام وعونه واحفظ مما استفيد عيونه
ويزعم ان العلم لا يكسب الغنى ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لائمي دعني اغالي بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وانا استعيذ بالله من خدع الجهل المذله وبوادر الحمق المضله واسأله التوفيق بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدي به من ضل فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم

وينبغي لمن زهد في العلم ان يكون فيه راغبا ولمن رغب فيه ان يكون له طالبا ولمن طلبه ان يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه ان يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا وقد قال الشاعر

فلا تعذرني في الاساة انه شرار الرجال من يسيء فيعذر

ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا ولكل زمان عذرا وقال الشاعر

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي

وليقصد طلب العلم واثقا بتيسير الله قاصدا وجه الله بنية خالصة وعزيمة صادقة فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تعلم علما لغير الله او اراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار وروى ابو هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تعلموا العلم قبل ان يرفع ورفعه ذهاب اهله

قال

فان احدكم لا يدري متى يحتاج اليه او متى ما يحتاج الى ما عنده وليحذر ان يطلبه لمراء او رياء فان المماري به مهجور لا ينتفع والمرائي به محقور لا يرتفع وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تعلموا العلم لتماروا به السفهاء ولا تعلموا العلم لتجادلوا به العلماء فمن فعل ذلك منكم فالنار النار وليس المماري هو المناظر فيه طلبا للصواب منه ولكنه القاصد لدفع ما يرد عليه من فاسد او صحيح وفيهم جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يجادل الا منافق او مرتاب وقال الاوزاعي اذا اراد الله بقوم شرا اعطاهم الجدل ومنعهم العمل

وانشد الرياشي لمصعب بن عبد الله

اجادل كل معترض خصيم واجعل دينه غرضا لديني
فاترك ما علمت لراي غيري وليس الراي كالعلم اليقين
وما انا والخصومة وهي شيء يصرف في الشمال وفي اليمين
فاما ما علمت فقد كفاني واما ما جهلت فجنبوني

وقد بين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه لا يمنعك حذار المراء حسن المناظرة فان المماري هو الذي لا يريد ان يتعلم منه احد ولا يرجو ان يتعلم من احد واعلم ان لكل مطلوب باعثا والباعث على المطلوب شيئان رغبة او رهبة فليكن طالب العلم راغبا راهبا اما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته واما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركي اوامره ومهملي زواجره فاذا اجتمعت الرغبة والرهبة اديا الى كنه العلم وحقيقة الزهد لان الرغبة اقوى الباعثين

على العلم والرهبة اقوى السببين في الزهد وقد قالت الحكما اصل
العلم الرغبة وثمرته السعاده واصل الزهد الرهبة وثمرته العباده
فاذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعاده وعمت الفضيلة وان
افترقا فيا ويح مفترقين ما اضر افتراقهما واقبح انفرادهما وقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من ازداد في العلم رشدا فلم يزدد في الدنيا
زهدا لم يزدد من الله الا بعدا وقال مالك بن دينار من لم يوت من العلم
ما يقمعه فما اوتي من العلم ما لا ينفعه وقال بعض الحكما الفقيه بغير
ورع كالسراج يضي البيت ويحرق نفسه واعلم ان للعلوم اوايل تودي
الى اواخرها ومداخل تفضي الى حقايقها فليبتدي طالب العلم باوايلها
لينتهي الى اواخرها وبمداخلها ليفضي الى حقايقها ولا يطلب الاخر
قبل الاول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الاخر ولا يعرف الحقيقة
لان البنا على غير اس لا يبني والثمر من غير غرس لا يجني ولذلك اسباب
فاسدة ودواعي واهية فمنها ان يكون في النفس اغراض تختص بنوع
من العلم فيدعو الغرض الى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته
كرجل يوثر القضا ويتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه ادب القاضي
وما يتعلق عليه في البينات او يحب الارتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات
فيصير موسوما بجهل ما يعاني فاذا ادرك ذلك ظن انه قد حاز من العلم
جمهوره وادرك منه مشهوره ولم ير ما بقي منه الا غامضا طلبه عنا
وعويصا استخراجه فنا لقصور همته على ما ادرك وانصرافها عما
ترك ولو نصح نفسه لعلم ان ما ترك اهم مما ادرك لان بعض العلم مرتبط
ببعض

ولكل باب منه تعلق بما قبل فلا يقوم الاواخر الا باوايلها وقد يصح قيام
الاوايل بانفسها فيصير طلب الاواخر ترك الاوايل تركا للاواخر والاوايل بل
فاذا ليس يعرى من لوم وان كان تاركا لكل اللوم ومنها ان يحب الاشتهار
بالعلم اما للتكسب او للتجمل فيقصد من العلم ما يشتهر به من مسايل الجدل وطريق
ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا
يعلم الوفاق ويجادل الخصوم وهو يجهل مذهبه ولقد رايت من هذه
الطبقة عددا قد تحققوا بالعلم تحقق المتكلفين واشتهروا به اشتهار المتحرين
اذا اخذوا في مناظرة الخصوم ظهر كلامهم واذا سيلوا عن واضح مذهبهم
ضلت افهامهم حتى انهم ليخبطوا في الجواب خبط عشوا فلا يظهر لهم صواب
ولا يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا اذ نفقوا في المجالس كلاما
مرصوفا ولفقوا على المخالف حجاجا مالوفا وقد جهلوا من المذهب ما يعلمه
المبتدي ويتداوله الناشي فهم دايما في لفظ مضل او غلط مزل ورايت
قوما منهم يرون الاشتغال بالمذهب تكلفا والاستكثار منه تخلفا
وحاججني بعضهم عليه فقال لان علم حافظ المذهب مستور وعلم المناظر
عليه مشهور فقلت كيف يكون علم حافظ المذهب مستورا وهو بسرعة الجواب
كثير الصواب فقال انه ان لم يسل سكت فلم يعرف والمناظر ان لم يسال سال
فعرف فقلت اليس اذا سيل الحافظ فاصاب بان فضله قال نعم قلت افليس اذا
سيل المناظر فاخطا بان نقصه وقد قيل عند الامتحان يكرم الرجل او يهان
فامسك عن جوابي لانه ان كان اخر كابر المعقول وان اعترف لزمته الحجة
والامساك اذعان والسكوت رضا ولان ينقاد الى الحق اولى من ان يستفزه

الباطل وهذه طريقة من يقول اعرفوني وهو غير معروف وبعيد ممن لا يعرف العلم ان يعرفه وقد قال زهير

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وان خالها تخفى على الناس تعلم

ومن اسباب التقصير ايضا ان يغفل عن التعليم في الصغر ثم يشتغل به في الكبر فيستحي ان يبتدي بما يبتدي به الصغير ويستنكف ان يساويه الحدث الغرير فيبدا باواخر العلوم واطرافها ويهتم بحواشيها واكنافها ليتقدم على الصغير المبتدي ويساوي الكبير المنتهي وهذا ممن قد رضي بخداع نفسه وقنع بمداهنة حسه لان معقوله ان احس ومعقول كل ذي حس يشهد بفساد هذا التصور ويعلم اختلال هذا التخيل لانه لا يقوم في وهم وجهل ما يبتدي به المتعلم اقبح من جهل ما ينتهي اليه العالم وقال الشاعر

فتعرف بالتفكر في صغير ... كبيرا بعد معرفة الصغير

ولهذا المعنى واشباهه كان التعلم في الصغر احمد وروى مروان بن سالم عن اسماعيل بن ابي الدردا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذي يتعلم في صغره كالوشم على الصخر والذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه قلب الحدث كالارض الخالية ما القي فيها من شي قبلته وانما كان ذلك لان الصغير افرغ قلبا واقل شغلا وايسر تبذلا واكثر تواضعا وقد قيل في منثور الحكم المتواضع من طلاب العلم اكثرهم علما كما ان المكان المنخفض اكثر البقاع ماء واما ان يكون الصغير اضبط من الكبير اذا عري من هذه المواضع واوعى منه اذا خلا من هذه القواطع فلا حكي ان الاحنف بن قيس

حكي الاحنف بن قيس انه سمع رجلا يقول التعلم في الصغر كالنقش في الحجر فقال الاحنف الكبير اكثر عقلا ولكنه اشغل قلبا واكثر شغلا ولعمري لقد نص الاحنف عن المعنى ونبه على العلة لان قواطع الكبير كثيرة منها ما ذكرنا من الاستحياء وقد قيل في منثور الحكم من رق وجهه رق علمه وقال الخليل بن احمد مرتع الجهل بين الحيا والكبر في العلم ومنها وفور شهواته وتقسم افكاره وقد قال الشاعر

صرف الهوى عن ذي الهوى عزيز ... ان الهوى ليس له تمييز

وقال بعض البلغا القلب اذا علق كالرهن اذا غلق ومنها الطوارق المزعجة والهموم المذهله وقد قيل في منثور الحكم الهم قيد الحواس وقال بعض البلغا من بلغ اشده لاقى من العيش اشده ومنها كثرة اشغاله وترادف اخلاله حتى انها لتستوعب زمانه وتستنفد ايامه ولذلك قيل تفقهوا قبل ان تسودوا وقال بزرجمهر الشغل مجهدة والفراغ مفسدة فينبغي لطالب العلم الا يني في طلبه وينتهز الفرصة به فربما شح الزمان بما سمح وضن بما منح ويبتدي من العلم باوله ويأتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من ادراك ما لا يسعه جهله فان لكل علم فصولا مذهله وشذورا مشغله ان صرف اليها نفسه قطعته عما هو اهم منها وقد قال ابن عباس رضي الله عنه العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كل شي احسنه وقال المامون ما لم يكن من العلم بارعا فبطون الصحف اولى به من قلوب الرجال تترك ما لا يعنيك ليتم لك ما يعنيك ولا ينبغي ان يدعوه ذلك الى ترك ما استصعب عليه اشعارا لنفسه ان في ذلك من تصور

عمله واعذارا لها في ترك الاشتغال به فان ذلك مطية النوكى وعذر
المقصرين ومن اخذ من العلم ما تسهل وترك منه ما تعذر كان كالقناص
اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خائبا اذ ليس يرى الا ممتنعا
كذلك العلم كله صعب على من جهله سهل على من علمه لان معانيه التي
تتوصل اليها مستودعة في كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع
لفظا مسموعا ومعنى مفهوما فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ
يفهم بالقلب وقد قال بعض الحكماء العلوم مطالعها من ثلثة اوجه قلب
مفكر ولسان معبر وبيان مصور فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه
بقلبه واذا فهم المعاني سقطت عنه كلفة استخراجها وبقي عليه معاناة حفظها
واستقرارها لان المعاني شوارد تضل بالاغفال والعلوم وحشية
تنفر بالارسال فاذا حفظها بعد الفهم انست واذا ذكرها بعد الانس
رست وقد قال بعض الحكماء من اكثر المذاكرة بالعلم تيقن ما علم واستفاد
ما لم يعلم وقال الشاعر

لعله
من تعلم بعلمه

اذا لم يذاكر ذو العلم بعلمه ولم يستفد علما نسي ما تعلما
فكم جامع للكتب في كل مذهب يزيد مع الايام في جمعه عمى

وان لم يفهم معاني ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة في تعذر
فهمها فان معرفة اسباب الاشيا وعللها تصل الى تلافي ما شذ منها وصلاح
ما فسد وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلثة اقسام اما ان يكون لعلة
في الكلام المترجم واما ان يكون لعلة في المعنى المستودع واما
ان يكون لعلة في السامع المستخرج فان كان السبب المانع من فهمها في الكلام

المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلثة اوجه احدها ان يكون لتقصير اللفظ
عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك
المعنى وهذا قد يكون من احد وجهين اما من المتكلم وعيه واما من بلادة
قائله وفهمه والحال الثانية ان يكون لزيادة اللفظ على المعنى فتصير
الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من احد الوجهين
اما من هذر المتكلم واكثاره واما لسوء ظنه بفهم سامعه والحال الثالثة
ان يكون لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها السامع
لم يفهم معانيها فاما تقصير اللفظ وزيادته فمن الاسباب الخاصة دون العامة
لانك لست تجد ذلك عاما في كل كلام وانما تجده في بعضه فان عدلت عن الكلام
المقصر الى المستوفي وعن الزائد الى الكافي ارحت نفسك من تكلف
ما يكد خاطرك وان الجئت الى استخراجه اما لضرورة دعتك اليه
عند اعواز غيره او لحمية داخلتك عند تعذر فهمه فانظر في سبب
الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر والزيادة لهذر سهل عليك
استخراج المعنى منه لان ما له من الكلام محصول لا يجوز ان يكون المختل منه
اكثر من الصحيح وفي الاكثر على الاقل دليل وان كانت زيادة اللفظ على
المعنى لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراجه اسهل وان كان
تقصير اللفظ على المعنى لسوء فهم المتكلم فهو اصعب الامور حالا
وابعدها استخراجا لان ما لم يفهمه متكلمه فانت من فهمه ابعد
الا ان يكون بفرط ذكائك وجودة خاطرك تنبه باشارته
على استنباط ما عجز عنه واستخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة الاستنباط

لك وحق التقديم لك واما المواضعة فضربان عامة وخاصة فاما
العامة فهي مواضعة العلماء فيما جعلوه القابا لا يستغني المتعلم عنها ولا يقف
على معنى كلامهم الا بها كما جعل المتكلمون الجواهر والاعراض والاجسام
القابا تواضعوها لمعان اتفقوا عليها ولست تجد من العلوم علما يخلو من هذا
وهذه المواضعة العامة سماعرفا واما الخاصة فمواضعة الواحد
يقصد بباطن كلامه غير ظاهره وان كانت في الكلام كان رمزا وان
كانت في الشعر كانت لغزا واما الرمز فليس يخلو في علم معنوي وقد
في كلام لغوي وانما يختص غالبا باحد شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه معتقده
ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال التاويل فيه سببا لدفع [التهمة]
عنه واما لما يدعي اربابه لانه علم معوز وان ادراكه بديع معجز [كالصنعة]
التي وضعها اربابها اسما لعلم الكيميا فرمزوا باوصافه واخفوا معانيه
ليوهموا التشبه والاسف عليه حريصة للعقول الواهية والاراء الفاسدة
فقد قال الشاعر   منعت شيئا فاكثرت الولوع به   وحب شيء الى الانسان ما منعا
ثم ليكونوا برام عهده ما قالوه اذا اخرب ولو كان ما تضمن هذين النوعين
واشباههما من الرموز معنى صحيحا وعلما مستفادا لخرج من الرمز الى العلم
الجلي فان اغراض الناس مع اختلاف اهوائهم لا تتفق على ستر سليم واخفاء
مفيد وقد قال زهير

الستر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر

وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعاني وتعظيمه من الالفاظ
ليكون اجلا في القلوب موقعا واجل في النفوس موضعا فيصير الرمز سائرا

وبه

وفي الصحف مثلا كالذي حكي عن فيثاغورس في وصاياه المرموزة
انه قال احفظ ميزانك من الندا واوزانك من الصدى يريد بحفظ [الميزان من البدن حفظ]
اللسان من الخنا وحفظ الاوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى
فصار بهذا الرمز مستحسنا ومدونا ولو قاله باللفظ الصريح والمعنى
الصحيح لما سار عنه ولا استحسن منه وعلة ذلك ان المحجوب عن الافهام
كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل له في النفوس من التعظيم وفي القلوب
من التفخيم وما ظهر منهما ولم يحتجب هان واسترذل وهذا انما
يصح استحلاؤه فيما قل وهو باللفظ الصحيح مستقل فاما العلوم
المشتهرة التي تتطلع النفوس اليها فقد استغنت بقوة الباعث عليها وشدة
الداعي اليها عن الاستدعاء اليها بمستحلى ولفظ مستغرب لان ذلك
منفر عنها لما في التشاغل باستخراج رموزها من الابطاء عن دركها
وتصور معانيها فهذا حال الرمز واما اللغز فهو تجري اهل الفراغ
وشغل ذوي البطالة ليتنافسوا في تباين قرائحهم ويتفاخروا في سرعة
خواطرهم فيستهدوا خواطر قد منحوا صحتها فيما لا يجدي نفعا ولا يفيد
علما فهم كاهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة اجسادهم
الى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد اجسامهم لا يكسبهم حمدا ولا
يجري عليهم نفعا انظر الى قول الشاعر حيث يقول

رجل مات وخلف رجلا   ابن ام ابن ابي اخت ابيه
معه ام بني اولاده   وابا اخت بني عم اخيه

[امه وخالا]

اخبرني عن هذين البيتين وقد ترى صعوبة ما تضمنهما من السؤال

اذا استكدّك الفكر في استخراجه فعلمت انذا اراد بيتا خلف البا وروحه
وعما ما الذي افادك من العلم ونفي عنك من الجهل الست بعد علمه تجهل
ما كنت جاهلا من قبله ولو ان السايل قلب لك السوال فاخر ما تقدم
وقدم ما اخر لكنت في الجهل به قبل استخراجه كما كنت في الجهل بالاول
وقد كددت فكرك واتعبت خاطرك ثم لا تقدم ان يرد عليك مثل هذا
مما تجهله فتكون فيه كما كنت فيما قبله فاصرف نفسك تولي الله رشدك
عن علوم النوكي وتكلف البطالين فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه ثم احعل ما من الله به عليك
من صحة القريحة وسرعة الخاطر مصروفا الي العلم ما يكون اتفاق خاطرك فيه
مدخورا وكدك فيه مشكورا فقد روى سعيد بن ابي هند عن ابن
عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من
الناس الصحة والفراغ ونحن نستعيذ الله من ان يغبن فضل نعمه علينا ونجهل
نفع احسانه الينا وقد قيل في منثور الحكم من الفراغ تكون الصبوه
وقال بعض البلغا من امضى يومه في غير حق قضاه او فرض اداه او مجد
اثله او حمد حصّله او خير اسّسه او علم اقتبسه فقد عقّ يومه وظلم نفسه وقال الشاعر
لقد هاج الفراغ عليك شغلا واسباب البلا من الفراغ
وهذا تعليل ما في الكلام من الاسباب المانعة من فهم معانيه حتى خرج
بنا الاستيفا الي الاطالة والكشف الي الاغماض واما القسم
الثاني وهو ان يكون السبب المانع من فهم السامع لعلة في المعنى المسموع
فلا يخلو حال المعنى من ثلثة اقسام اما ان يكون مستقلا بنفسه او يكون
مقدمة

مقدمة لغيره او يكون نتيجة من غيره فاما المستقل بنفسه فضربان
جلي وخفي فاما الجلي فهو يسبق الي فهم متصوره من اول وهلة
وليس هو من اقسام ما يشكل على ذي تصور واما الخفي فيحتاج في
ادراكه الي زيادة تامل وفضل معاناة ليتجلى عن ما اخفي وينكشف
عن الغمض وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياح وبالارتياض
يسهل منه ما استصعب ويقرب منه ما بعد فان للرياضة حراة وللدربة
تاثيرا واما ما كان مقدمة لغيره فضربان احدهما ان تقوم المقدمة
بنفسها وان تعدت الي غيرها فيكون كالمستقل بنفسه في تصوره وفهمه
وان كان مستدعيا للنتيجة والثاني ان يكون مفتقرا الي
نتيجة فيتعذر فهم المقدمة الا بما يعقبها من النتيجة لانها تكون بعضا منه
وبعض المعنى اشكل له وبعضه لا يغني عن كله واما ما كان نتيجة لغيره فهو
لا بد ان يكون الانا وله ولا يتصور على حقيقة الا بمقدمته والاستعمال
قبل المقدمة عنا واتعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته اذ افهم ابوضح
تعليلا ما في المعاني من الاسباب المانعة من فهمها واما القسم الثالث
وهو ان يكون السبب المانع لعلة في المستمع فذلك ضربان احدهما من ذاته
والثاني من طارئ طرى عليه فاما ما كان من ذاته فيتنوع نوعين احدهما
ما كان مانعا من تصور المعنى وفهمه والثاني ما كان مانعا من حفظه بعد تصوره
وفهمه فاما المانع من تصور المعنى وفهمه فهو البلادة وقلة الفطنه
وهذا الدا العيا وقد قال بعض العلما اذا افقد العالم الذهن قل على الاضداد
احتجاجه وكثر الي الكتب احتياجه وليس لمن بليه الا الصبر والاقلال

لانه على القليل اقدر وبالصبر احرى ان ينال ويظفر وقد قال
بعض الحكما قدم لحاجتك بعض لجاجتك وليس يقدر على الصبر من هذه
حاله الا ان يكون غالب الشهوة بعد الهمة فيشعر قلبه الصبر لقوة شهوته
وحسن احتمال التعب لبعد همته فاذا انلوح له المعنى بمساعدة الشهوة واعقبه
ذلك الحاج الاملين ونشاط المدركين فقل عنده كل كثير وسهل عليه
كل عسير وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انكم لا تنالون ما تحبون الا
بالصبر على ما تكرهون ولا تبلغون ما تهوون الا بترك ما تشتهون وقيل
في منثور الحكم اتعب قدمك فكم تعب قدمك وقد قيل لبعض البلغا اذا اشتد
الكلف هانت الكلف وانشد بعض اهل الادب ما ذكر انه لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه

لا تحزنن ولا يدخلك منضجرة فالنجح يهلك بين العجز والضجر

واما المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة
التقصير واهمال التواني فينبغي لمن بلي به ان يستدرك تقصيره بكثرة الدرس
ويوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل لن يدرك العلم من لم يطل درسه
ويكد نفسه وكثرة الدرس كد ولا يصبر عليه الا من يرى العلم مغنما
والجهالة مغرما فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفي عنه معرة الجهل
فان نيل العظيم بامر عظيم وعلى قدر الرغبة يكون الطلب وبحسب الراحة
يكون التعب وقد قيل طلب الراحة قلة الاستراحة وقال بعض الحكما
اكمل الراحة ما كانت عن كد التعب واعز العلم ما كان عن ذل الطلب
وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ واتكل بعد فهم المعاني على الرجوع
الى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة اليها فلا يكون الا كمن اطلق

ما صاده

ما صاده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه الثقة الا خجلا
والتفريط الا ندما وهذه حال قد يدعوا اليها احد ثلثة اشيا اما الضجر
من معاناة الحفظ ومراعاته او طول الامل في التوفر عليه عند نشاطه
او فساد الراي في عزيمته وليس يعلم ان الضجر خايب وان الطول الامل
مغرور وان الفاسد الراي مصاب والعرب تقول في امثالها حرف في قلبك
خير من الف في كتبك وقالوا لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ولا يعمر
بك النادي وانشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

علمي معي حيثما يممت ينفعني قلبي وعاء له لا بطن صندوق
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي او كنت في السوق كان العلم في السوق

وربما عنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا لالفاظ
المعاني قيما بتلاوتها وهو لا يتصورها ولا يفهم ما تضمنها يروي بغير روية
ويخبر عن غير خبرة فهو كالكتاب الذي لا يدفع شبهة ولا يويد حجه
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم همة السفها الرواية وهمة العلما الرعاية
وقال ابن مسعود كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة فقد يرعوي
من لا يروي ويروي من لا يرعوي وحدث الحسن البصري بحديث فقال له رجل
يا با سعيد عمن قال ما تصنع بعمن اما انت فقد نالتك موعظته وقامت عليك حجته
وربما اعتمد على حفظه وتصوره واغفل تقييد العلم في كتبه ثقة بما استقر
في نفسه وهذا خطا منه لان الشك معترض والنسيان طاري وقد روى
انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قيدوا العلم بالكتاب وروي ان رجلا
شكا الى النبي صلى الله عليه وسلم النسيان فقال استعن بيدك اي اكتب ترجع

اذا نسيت الى ما كتبت وقال الخليل بن احمد اجعل ما في الكتب راس المال
وما في قلبك النفقة وقال مهبوذ لولا ما عقدته الكتب من تجارب الاولين
لانحل مع النسيان عقود الاخرين وقال بعض البلغا ان هذه الاداب
نوافر تند عن عقول الاذهان فاجعلوا الكتب عنها حماة والاقلام لها
رعاة واما الطوارى فنوعان احدهما شبه يعترض المعنى فيمنع من تصوره
ويدفع عن ادراك حقيقته فينبغي ان يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسوال والنظر
ليصل الى تصور المعنى وادراك حقيقته ولذلك قال بعض العلما لا تخل قلبك من
المذاكرة فتعود عقيما ولا تنقطع عن المناظرة فتصير سقيما وانشد بعض

شفا العمى طول السوال وانما دوام العمى طول السكوت على الجهل

والثاني افكار تعارض الخاطر فيذهلها عن تصور المعنى وهذا سبب قلما
يعرى منه احد لاسيما فيمن انبسطت اماله واتسعت امانيه وقد قيل من لم يكن
له في غير العلم ارب ولا فيما سواه همة فان طرأت على الانسان لم يقدر على دفعها عن
نفسه عالج الفهم وغلبه قلبه على التصور لان القلب مع الاكراه اشد نفورا
وابعد قبولا وقد قيل ان للقلب اذا اكره عمي فينبغي ان يسعى في دفع ما
طرأ عليه من هم مذهل او فكر قاطع ليستجيب له القلب طبيعيا وقد قال الشاعر

وليس بمغن في المودة شافع اذا لم يكن بين الضلوع شفيع

وقال بعض الحكما ان هذه القلوب تنافر كتنافر الوحش فالفوها
بالاقتصاد في التعليم والتوسط في التقديم ليحسن طاعتها ويدوم نشاطها
فهذا تعليل ما في المستمع من الاسباب المانعة من فهم المعاني وها هنا قسم رابع
منع من معرفة الكلام ومعرفة معانيه ولكنه يعرى في بعض الكلام فلذلك

٣

26

في جملة اقسامه وان استغنى الاخلال بذكره وهو الخط لان من الكلام
ما كان مسموعا لا تحتاج في فهمه الى امل الخط والمانع من فهمه
هو على ما ذكرنا من اقسامه ومنه ما كان مستودعا بالخط محفوظا بالكتاب
ماخوذا بالاستخراج فكان الخط حافظا له ومعبرا عنه وقد روي
عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى او اثارة من علم قال يعني الخط
وروي عن مجاهد في قوله تعالى يوتي الحكمة من يشا قال الخط ومن يوت
الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا يعني الخط والعرب تقول الخط احد اللسانين
وحسنه احدى الفصاحتين وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة
به تفصل شذورها وينظم منثورها وقال ابن المقفع اللسان مقصور على القريب
الحاضر والقلم على الشاهد والغائب وهو للغابر الكائن مثله للقائم
الدائم وقال حكيم الروم الخط هندسة روحانية وان ظهرت بالة جسدانية
وقال حكيم العرب الخط اصل في الروح وان ظهر بحواس الجسد وكانت
العرب تعظم قدر الخط وتعده من اجل نافع حتى قال عكرمة بلغ فدا اهل
بدر اربعة الاف درهم حتى ان الرجل ليفادى على ان يعلم الخط لما هو
مستقر في نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور نفعه واثره
وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم اقرا وربك الاكرم الذي علم
بالقلم كما وصف نفسه بالكرم واعتد بذلك في نعمه العظام وفي اياديه
الجسام حتى اقسم به في كتابه فقال عز وجل ن والقلم وما يسطرون
فاقسم بالقلم كما اقسم بما يخط بالقلم واختلف في اول من كتب بالخط فذكر
اصحاب الاخبار ان اول من كتب ادم عليه السلم كتب سائر الكتب قبل موته

بثلثمائة سنة في طين ثم طبخه فلما غرقت الارض في زمن نوح عليه السلم
بقيت الكتابة فاصاب كل قوم كتابهم وبقي الكتاب العربي الى ان
خص الله تعالى به اسماعيل فاصابها وتعلمها وحكى ابن قتيبة ان اول
من كتب ادريس واختلف في اول من كتب بالعربية فذكر كعب الاحبار
ان اول من كتب ادم عليه السلم وحكى ابن عباس رضي الله عنه ان اول
من كتب بها ووضعها اسماعيل على لفظه ومنطقه وحكى عروة بن الزبير
ان اول من كتب بها قوم من الاوائل اسماؤهم ابجد هوز حطي كلمن سعفص
قرشت وكانوا ملوك مدين وحكى ابن قتيبة في المعارف ان اول من كتب
بالعربية مرامر بن مروة من اهل الانبار ومن الانبار انتشرت وحكى المدايني
ان اول من كتب بها مرامر بن مروة واسلم بن سدرة وعامر بن جدرة
فمرامر وضع الصورة واسلم فصل ووصل وعامر وضع الاعجام ولما
كان الخط بهذه الحال وجب على من اراد حفظ العلم ان يعنى بامرين احدهما
تقويم الحروف على اشكالها الموضوعة لها والثاني ضبط ما اشتبه
منها بالنقط والاشكال المميزة لها ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحة
نظمه وانما هو زيادة حذق بصنعته وليس بشرط في صحته وقد قال علي عليه
حسن الخط لسان اليد وبهجة الضمير وقال ابو العباس المبرد رداءة الخط
زمانة الادب وقال عبد الحميد البيان في اللسان والبنان والخط
وانشد بعض اهل الادب لاحد شعراء البصرة

اعذر اخاك على رداءة خطه واغفر رداءته لجودة ضبطه
واعلم بان الخط ليس يراد من تركيبه الا تبين سمطه

فاذا

27

فاذا ابان عن المعاني لم يكن تحسينه الا زيادة شرطه
ومعلوم ما زاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة
على ما زاد على الكلام المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب
ولذلك قالت العرب حسن الخط احدى الفصاحتين وكما انه لا يعذر
من اراد التقدم في الكلام ان يطرح الفصاحة والاعراب وان فهم
وافهم كذلك لا يعذر من اراد التقدم في الخط ان يطرح تصحيح الحروف
وتحسين الصور وان فهم وافهم وربما تقدم بالخط من كان الخط من جل
فضائله واشرف خصائله حتى صار به علما مشهورا وسندا مذكورا غير ان
العلماء اطرحوا صرف الهمة الى تحسين الخط لانه يشغلهم عن العلم ويقطعهم
عن التوفر عليه ولذلك تجد خطوط العلماء في الاغلب رديئة لا يلحظ
الا من اسعده القضاء وقد قال الفضل بن سهل من سعادة المرء ان يكون
رديء الخط لان الزمان الذي يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر
وليست رداءة الخط هي السعادة وانما السعادة الا يكون له صارف عن
العلم وغاية ذي الخط ان يتشاغل بتحسين الخط عن العلم فمن هذا الوجه
صار برداءة خطه سعيدا وان لم تكن له رداءة الخط له سعادة واذا كان
ذلك كذلك فقد تعرض للخط اسباب تمنع من قراءته ومعرفته كما يعرض للكلام
اسباب تمنع من فهمه وصحته والاسباب المانعة من قراءة الخط وفهم ما تضمنه
قد يكون من ثمانية اوجه احدها اسقاط الفاظ من اثناء الكلام يصير الباقي
بها مبتورا لا يعرف استخراجه ولا يفهم معناه وهذا يكون اما من سهو
الكاتب واما من فساد نقله وهذا يسهل استنباطه على من كان مرتاضا بذلك

النوع فيستدل بحواشي الكلام وما سلم منه على ما سقط او فسد
لاسيما اذا قل لان الكلمة تستدعي ما يليها ومعرفة المعنى توضح عن
الكلام المترجم عنه فاما من كان قليل الارتياض بذلك النوع فانه قد
يصعب عليه استنباط المعنى منه لاسيما اذا كان كثيرا لانه يحتاج في فهم
المعاني الى الفكرة والروية فيما قد استخرجه بالكتبة واذا هو لم يعرف
تمام الكلام المترجم عن المعنى وصرف فهمه عن ادراكه وضل فكره
عن استنباطه والوجه الثاني زيادة الفاظ في اثنا الكلام يشكل
بها معرفة الصحيح غير الزايد من معرفة السقيم الزايد فيصير الكل مشكلا
وهذا لا يكاد ان يوجد كثيرا الا ان يقصد الكاتب تعمية كلامه فيدخل
في اثناه ما يمنع من فهمه فيصير ذلك رمزا يعرف بالمواضعة واما وقوعه
سهوا فقد يكون بالكلمة والكلمتين وذلك الكلام لا يمنع من فهمه على المتدرب
وغيره ٥ والوجه الثالث اسقاط حروف من اثنا الكلام يمنع من استخراجه
على الصحة وقد يكون هذا تارة من السهو فيقل وتارة من ضعف الهجا فيكثر
والقول فيه كالقول في الوجه الاول والوجه الرابع زيادة حروف
في اثنا الكلام يشكل بها معرفة الصحيح من حروفه وهذا يكون تارة من سهو
الكاتب فيقل ولا يمنع من استخراج الصحيح ويكون تارة لتعمية ومواضعة
يقصد بها الكاتب اخفا غرضه فيكثر كالتراجم ويكون القول فيه كالقول في الوجه
الثاني والوجه الخامس فصل الحروف المتصلة ووصل الحروف الموصولة فيدعوا
ذلك الى الاشكال لان الكلمة تشتبه عليها وصل حروفها وتمنع فصلها
من مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو سهل استخراجه وان كان

ذلك

قليل معرفة بالخط او مشقا يسبق به التذكير فصعب استخراجه الا
على المرتاض به ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه شر الكتابة
المشق كما شر القراءة الهذرمة ٥ وان كان للتعمية والرمز لم يعرف
الا بالمواضعة والوجه السادس تغيير الحروف عن اشكالها وابدالها
باغيارها حتى يكتب الحا على شكل البا والصاد على شكل الرا وهذا يكون
في رموز التراجم لا يوقف عليه الا بالمواضعة الا لمن زاد فيه
الذكا فقدر على استخراج المعنى والوجه السابع ضعف الخط عن تقويم
الحروف على الاشكال الصحيحة واتيانها على الاوصاف الخفية حتى لا تكاد
الحروف تتمايز عن اغيارها حتى تصير العين الموصولة كالفا والمفصولة كالحا
وهذا يكون من رداة الخط وضعف اليد واستخراج ذلك ممكن بفضل
المعاناة وشدة التامل وربما كان اصح قاريه واوها معانيه ولذلك
قيل ان الخط الحسن لمزيد الحق وضوحا والوجه الثامن اغفال النقط
والاشكال التي تتميز بها الحروف المشتبهة وهذا ايسر امرا واخف حالا
لان من كان مميزا بصحة الاستخراج ومعرفة الخط لم يخف عليه معرفة الخط
وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط والاشكال بل قد استقبح في المكاتبات
وراوه من تقصير الكاتب او سو ظنه بفهم المكاتب وكان استقباحهم له
في مكاتبة الروسا اكثر منه وقد حكى قدامة بن جعفر ان بعض كتاب الدواوين
كاتب عاملا فشكا العامل منه الى عبيد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر
فيها احتجاجا لصحة دعواه ووضوح شكواه فوقع فيها عبيد الله بن سليمان
هذا هذا فاخذها العامل وقراها فظن ان عبيد الله اراد هذا هذا اتيانا

لصحة دعواه وصدق قوله كما يقال في ابانة الشي هو هو وحمل الرقعة الى
كاتب الديوان واراه خط عبيد الله وقال ان عبيد الله قد صدق قولي
وصحح ما ذكرت فخفي على الكاتب ذلك واطيفه على كتاب الدواوين
فلم يقفوا على مراد عبيد الله ورد اليه ليسال عن مراده فشدد عبيد الله
الكلمة الثانية وكتب تحتها والله المستعان استغطا ما منه لتقصيرهم
في استخراج مراده حتى احتاج الى ابانته بالشكل فهذه حال الكتاب
في استقباحهم اعجام المكاتبات بالنقط والاشكال فاما غير الكتاب
من سائر العلوم فلم يروه قبيحا بل استحسنوه لا سيما في كتب الادب
التي يقصد بها معرفة صيغة الالفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو
واللغة والشعر الغريب فان الحاجة الى ضبطها بالشكل والاعجام
اكثر وهي فيما سواه من العلوم ايسر وقال الثوري الخطوط
المعجمة كالبرود المعلمة وقال بعض البلغاء اعجام الخط يمنع من استعجامه
وشكله يومن من اشكاله وقال بعض الادباء رب علم لم تعجم فصوله
فاستعجم محصوله وكما استقبح الكتاب الشكل والاعجام في المكاتبات
وان كان في كتب العلوم مستحسنا فلذلك استحسنوا مشق الخط في
المكاتبات وان كان في كتب العلوم مستقبحا وسبب ذلك انهم لفرط
ادلالهم بالصنعة وتقدمهم بالكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون
على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء شروط الابانة تقصيرا ولفضل
ما يعتقدونه من التقدم بهذه الحال تراوا ما تنبه عليه من سواد المداد
اثرا جميلا وعلى الفضل في التخصيص دليلا لما حكي ان عبيد الله بن
سليمان

راى على بعض ثيابه اثر صفرة فاخذ من مداد الدواة فطلاه به ثم قال
المداد بنا احسن من الزعفران وانشد
إنما الزعفران عطر العذارى ومداد الدوي عطر الرجال
فهذه جملة كافية في الابانة عن الاسباب المانعة من فهم الكلام
ومعرفة معانيه لفظا كان او خطا والله ولي التوفيق فينبغي لطالب العلم
ان يكشف عن الاسباب المانعة ان تعذر عليه فهم المعنى ليسهل عليه
الوصول اليه ثم يكون من بعد ذلك سايسا لنفسه مدبرا لها في حال
تعلمه فان للنفس نفورا يفضي بها الى التقصير ونفورا يوول الى السرف
وقيادها عسر ولها احوال ثلث حال عدل وانصاف وحال غلو واسراف
وحال تقصير واجحاف فاما حال العدل والانصاف فهو ان تختلف
قوى النفس من جهتين متقابلتين طاعة مسعدة وشفقة كافة فطاعتها
تمنع من التقصير وشفقتها تصد عن السرف وهذه احمد الاحوال لان ما
منع من التقصير تام وما صد عن السرف مستديم والنمو اذا استدام فاخلق
به ان يستكمل وقال بعض الحكما اياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف
مثل المقصر في الخروج عن الحد واما حال الغلو والاسراف فهي ان تختص
النفس بقوى الطاعة وتعدم قوى الشفقة فيبعثها اختصاص الطاعة
على افراغ الجهد ويفضي بها افراغ الجهد الى عجز الكلال ويوديها
عجز الكلال الى الترك والاهمال فتصير الزيادة نقصانا والربح خسرانا
وقد قالت الحكما طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام ان اخذ منه
قوتا عصمه وان اسرف فيه ابشمه وربما كان فيه منيته وكالآخذ الادوية

التي القصد فيها شفاء ومجاوزة القصد فيها السم المميت وأما حال التقصير
والإجحاف فهي أن تختص النفس بقوى الشفقة وتعدم قوى الطاعة
فيدعوها الإشفاق إلى المعصية ويمنعها المعصية من الإجابة فلا يطلب شاردا
ولا يقبل عائدا ولا يحفظ مستودعا ومن لم يطلب الشارد ويقبل العائد ويحفظ
المستودع فقد الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ما وجد فهو مصاب محزون
ومن لم يجد ما فقد فهو خائب مغبون وقد قال بعض الحكماء العجز مع التواني
والفوت مع التواني وقد يكون للنفس مع الأحوال الثلث حالتان مشتركتان
يغلب احدي القوتين فيكون للنفس طاعة وإشفاق وأحدهما أغلب من الآخر
فإن كانت الطاعة أغلب كانت إلى الوفور المجاوز رام أميل وإن كان الإشفاق
أغلب كانت إلى التقصير المقصر به أقرب فإذا عرف من نفسه قدر طاعتها
وخبر منها كنه الإشفاق راض نفسه ليلبث على أعدلها الاتيها وقد أشار
إلى ما وصفناه من حال النفس الفرزدق في قوله

لكل امرئ نفسان نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى إذا قل من أحرارهن شفيعها

فإن أهمل سياستها وأغفل رياضتها ورام أن يأخذها بالعنف ويقسرها
بالعسف استشاطت نافرة وكثرت معاندة فلم ينقد إلى طاعة ولم تنكف
عن معصية وقد قال سابق البربري

إذا زجرت لجوجا زدته علقا وأحب النفس منه في تماديها
فعد عليه إذا ما نفسه جمحت باللين منك وإن اللين يثنيها

فإن استصعبت عليه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياستها ومعاناة أدبها

30

تركها تركا راحة ثم عاودها بعد الاستراحة فإن إجابتها أسرع وطاعتها
أرجح وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال القلب يموت ويحيا ولو بعد
حين وقال ابن مسعود رضي الله عنه للقلوب شهوة وإقبال وفترة وإدبار
فأتوها من قبل شهوتها ولا تأتوها من قبل فترتها وقال الشاعر

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

فأما الشروط التي يتوفر بها علم الطالب وينتهي معها كمال الراغب مع ما
يلاحظ به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط أحدها العقل الذي
يدرك به حقائق الأمور والثاني الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم
والثالث الذكاء الذي يستقر به حفظ ما تصوره وفهم ما علمه والرابع
الشهوة التي يدوم بها الطلب ولا يسرع إليه الملل والخامس الاكتفاء بمادة
تغنيه عن كلف الطلب والسادس الفراغ الذي يكون معه التوفر ويحصل
به الاستكثار والسابع عدم القواطع المذهلة من هموم وأمراض والثامن
طول العمر واتساع المدة لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال
والتاسع الظفر بعالم سمح بعلمه متأن في تعليمه فإذا استكمل هذه الشروط
التسعة فهو أسعد طالب وأنجح متعلم وقد قال الاسكندر يحتاج طالب العلم
إلى أربع مدة وجدة وقريحة وشهوة وتمامها في الخامس معلم ناصح وسنذكر
طرفا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم اعلم أن للمتعلم في زمان تعلمه
ملقا وتذللا إن استعملهما غنم وإن تركهما حرم لأن التملق للعالم يظهر مكنون
علمه والتذلل له سبب لإدامة صبره وبإظهار مكنونه تكون الفائدة وباستدامة
صبره يكون الإكثار وقد روى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم ليس من أخلاق المؤمن

المومن الملق الا في طلب العلم وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه ذللت طالبا فعززت مطلوبا وقال بعض الحكما من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل ابدا وقال بعضهم كما الفرس اذا قعدت وانت صغير حيث تحب قعدت وانت كبير حيث لا تحب ثم ليعرف له فضل علمه وليشكر له جميل فعله فقد روت عايشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم من وقر عالما فقد وقر ربه وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يعرف فضل اهل الفضل الا اهل الفضل وقال بعض الشعرا

ان المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان اذا هما لم يكرما
فاصبر لدايك ان جفوت طبيبه واصبر لجهلك ان جفوت معلما

ولا يمنعه من ذلك علو منزلته ان كانت له وان كان العالم خاملا فان العلما بعلمهم استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال انشدني بعض اهل الادب لابن الرومي

لا تحقرن عالما وان قصرت الحافظه في عيون رامقه
وانظر اليه بعين ذي ادب مهذب الراي في طرايقه
فالمسك بينا تراه ممتهنا بفهر عطاره وساحقه
حتى تراه في عارضي ملك او موضع التاج من مفارقه

وليكن مقتديا بهم في رضى اخلاقهم متشبها بهم في جميل افعالهم ليصير لها آلفا وعليها ناشيا ولما خالفها مجانبا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم خياركم شبانكم المتشبهون بشيوخكم وشراركم شيوخكم المتشبهون بشبانكم وروى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من تشبه بقوم فهو منهم وانشدني بعض اهل الادب لابي بكر بن دريد

العالم

31

العالم العاقل ابن نفسه اغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شيت وكن مودبا فانما المرء بفضل كيسه
وليس من تكرمه لغيره مثل الذي تكرمه لنفسه

وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه وان آنسه والادلال عليه وان تقدمت صحبته فقد قيل لبعض الحكما من اذل الناس فقال عالم يجري عليه حكم جاهل وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبي فقال لها من انت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى الله عليه وسلم ارحموا عزيزا ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا عالما ضاع بين الجهال ولا يظهر له الاستغنا منه والاستغنا عنه فان في ذلك كفر النعمة واستخفافا بحقه وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكايه وحدة خاطره فقصد من يعلمه الاعنات له والاعتراض عليه ازرا به وتبكيتا له فيكون كمن تقدم فيه المثل الساير لابن البطحا

اعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

وهذا من مصايب العلوم وانعكاس حظوظهم ان يصيروا عند من علموه مستجهلين وعند من قدموه مستذلين وقال صالح بن عبد القدوس

وان عنا ان تعلم جاهلا فيحسب جهلا انه منك اعلم
متى يبلغ البنيان يوما تمامه اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
متى ينتهي عن سيء من اتى به اذا لم يكن منه عليه تندم

ولا ينبغي ان يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الاعنات له على التقليد فيما اخذ عنه فانه ربما غلا بعض الاتباع

وعـ
ارحموا عالما

في غلوهم حتى يروا ان قوله دليل وان لم يستدل وان اعتقاده حجة
وان لم يحتج فيفضي بهم الامر الى التسليم له فيما اخذوا عنه ويؤول بهم
الى التقصير فيما يصدر منه لانه مجتهد بحسب اجتهاد من اخذ عنه فلا يبعد
ان تبطل تلك المقالة ان انفردت او تخرج اهلها من عداد العلما فيما شاركت
لانه قد لا يرى بعدهم من ياخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن اخذوا عنه فيبطل بهم ما
قصروا فيه فيضعفوا عن ابانته ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا ضايعين ويصيروا
عجزة مضعوفين ولقد رايت من هذه الطبقة رجلا في مجلس حوار وقد استدل
الخصم عليه بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها ان قال ان هذه دلالة فاسدة
ووجه فسادها ان شيخي لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ فلا خير فيه
فامسك عنه المستدل متعجبا ولان شيخه كان محتشما وقد حضرني طايفة
يرون فيه مثل راي هذا الرجل ثم اقبل المستدل علي فقال والله لقد افحمني
جهله وصار الباقون من هذه الجهالة بين مستهزئ او متعجب او مستعيذ
بالله من جهل مغرب فهل رايت كذلك عالما او غاليا في الجهل ودل على قلة
العقل واذا كان المعلم معتدل الراي فيمن اخذ عنه متوسط الاعتقاد
فيمن يتعلم منه حتى لا يحمله الاعراض على اعراض المبتدئين ولا يبعثه الغلو على تسليم
المقلدين برئ المتعلمين من المدمنين وسلم العالم من الممتحنين وليس كثرة السؤال
فيما التبس اعناتا ولا قبول ما صح في النفس تقليدا وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال العلم خزاين ومفتاحه المسالة فاسالوا رحمكم الله فانما
يوجر في العلم ثلثة القايل والمستمع والاخذ وقال هلا سالوا اذ لم يعلموا
انما شفا العي السوال فامر بالسوال وحث عليه ونهى اخرين عن السوال وزجر عنه

فقال صلى الله عليه وسلم انهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة
المال وقال واياكم وكثرة السوال فانما هلك من قبلكم بكثرة السوال
وليس هذا اختلافا للاول وانما امر بالسوال من قصد به علم ما جهل ونهى
عنه من قصد به اعنات من سمع واذا كان السوال في موضعه ازال
الشكوك ونفى الشبهة وقد قيل لابن عباس رضي الله عنه بم نلت هذا
العلم فقال بلسان سوول وقلب عقول وروى نافع عن ابن عمر عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال حسن السوال نصف العلم وانشد المبرد عن ابي سليمان
فشفا الفقيه تكرر وفيها مثله لا خير في علم بغير تدبر
واذا تعسرت الامور فارجها وعليك بالامر الذي لم يعسر
فليأخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبه عنده من نبيه وخامل ولا يطلب الصيت
وحب الذكر باتباع اهل المنازل من العلما اذا كان النفع بغيرهم اعم الا
ان يستوي النفعان فيكون الاخذ عمن قد اشتهر ذكره وارتفع
قدره اولى لان الانتساب اليه اجمل والاخذ عنه اشهر وقد قال الشاعر
اذا انت لم تشهر بعلمك لم تجد لعلمك مخلوقا من الناس يقبله
وان صانك العلم الذي قد حملته اتاك له من يجتنيه ويحمله
واذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد واذا سهل عليك من وجه فلا تطلب ما
صعب واذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم تخبره فان العدول عن القريب الى البعيد
عنا وترك الاسهل بالاصعب بلا والانتقال عن المخبور الى غيره خطر
وقد قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه عقبى الاخرق مضرة والمتعسف لا
تدوم له مسرة وقد قال بعض الحكما القصد اسهل من التعسف والكف اودع

خطر

من التكلف وربما تتبعت نفس الانسان من بعد عنه استهانة بمن قرب
منه وطلب ما صعب احتقارا لما سهل عليه وانتقل الى من لم يخبره مللا لمن
خبره فلا يدرك محبوبا ولا يظفر بطائل وقد قالت العرب في امثالها
ان العالم كالحمة ياتيها البعدا ويزهد فيها القربا وانشدني بعض شيوخنا
لمسيح بن حاتم

لا ترى عالما يحل بقوم فيحلوه غير دار الهوان
قلما توجد السلامة والصحة مجموعتين في انسان
فاذا حلتا مكانا سحيقا فهما في النفوس معشوقتان
هذه مكة المنيعة بيت الله يسعى لحجها الثقلان
وترى ازهد البرية في الحج لها اهلها لقرب المكان

فصل فاما ما يجب ان يكون عليه العلماء من الاخلاق
التي بهم اليق ولهم الزم فالتواضع ومجانبة العجب لان التواضع عطوف
والعجب منفر وهو بكل احد قبيح وبالعلما اقبح لان الناس بهم يقتدون
وكثيرا ما يداخلهم الاعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ولو انهم نظروا
حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم اولى ومجانبة العجب بهم
احرى لان العجب نقص ينافي الفضل لاسيما مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان العجب لياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب فلا يفي ما ادركوه من فضيلة
العلم بما لحقهم من نقص العجب وقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنه
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قليل الفقه خير من كثير العبادة وكفى
بالمرء علما اذا عبد الله وكفى بالمرء جهلا اذا اعجب برايه وقال عمر بن الخطاب

تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون وليتواضع
لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلما فلا يقوم علمكم بجهلكم وقال
بعض السلف من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ومن تواضع بعلمه
رفعه الله به وعلة اعجابهم انصراف نظرهم الى كثرة من دونهم من الجهال
وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلما فانه ليس متناه في العلم الا وسيجد من
هو اعلم منه بشي اذ العلم اكثر من ان يحيط به بشر قال الله تعالى نرفع
درجات من نشا يعني في العلم وفوق كل ذي علم عليم قال اهل التاويل
يعني فوق كل عالم من هو اعلم منه حتى ينتهي ذلك الى الله تعالى وقيل
لبعض السلف من يعرف كل العلم قال كل الناس وقال الشعبي ما رايت
مثلي وما اشا ان القى رجلا اعلم مني الا لقيته ولم يذكر الشعبي هذا
القول تفضيلا لنفسه فيستقبح منه وانما ذكره تعظيما للعلم عن ان
يحاط به فينبغي لمن علم ان ينظر الى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب ما ادرك
منه وقد قيل في منثور الحكم اذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك
من الجهال ولكن انظر من فوقك من العلما وانشدت لابن العميد

من شا عيشا هنيا يستفيد به فواضل العيش ادبارا واقبالا
فلينظرن الى من فوقه ادبا ولينظرن الى من دونه مالا

وقل ما تجد بالعلم معجبا وبما ادرك منه مفتخرا الا من كان فيه مقلا مقصرا
لانه يجهل قدره ويحسب انه قد نال بالدخول فيه اكثره فاما من كان فيه
متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن ادراك نهايته
ما يصده عن العجب به وقد قال الشعبي العلم ثلاثة اشبار فمن نال منه شبرا

شيخ بانفه وظن انه ناله ومن نال الشبر الثاني صغرت اليه نفسه وظن
انه ناله واما الشبر الثالث فهيهات لا يناله احد ابدا ومما انذرك
به من حالي اني صنفت في البيوع كتابا جمعت له ما استطعت من كتب الناس
واجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري حتى اذا انهذب واستحكم
وكدت اعجب به وتصورت انني اشد الناس اطلاعا بعلمه حضرني وانا
في مجلسي اعرابيان فسالاني عن بيع عقداه في البادية على شروط
تضمنت اربع مسايل لم اعرف لواحدة منهن جوابا فاطرقت مفكرا
وبحالي وحالهما معتبرا فقالا اما عندك فيما سالناك جواب وانت زعيم
هذه الجماعة قلت لا فقالا ايها لك وانصرفا ثم اتيا من قد يتقدمه في العلم كثير
من اصحابي فسالاه فاجابهما مسرعا بما اقنعهما فانصرفا عنه
راضيين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا وبي لعلى ما كنت عليه
في تلك المسايل الى وقتي فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل
بهما قياد النفس وانخفض بهما جناح العجب توفيقا منحته ورشدا
اوتيته وحق على من ترك العجب بما يحسن ان يدع التكلف لما لا يحسن
فقد نهي الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما ومن اوضح ذلك بيانا
استعاذة الجاحظ في كتاب البيان حيث يقول اللهم انا نعوذ بك من فتنة
القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا
نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر
كما نعوذ بك من شر العي والحصر ونحن نستعيذ الله مثل استعاذته فليس
لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهي اليها ولا حد يقف عنده ومن كان تكلفه عن مجاوزة

فاحلق به ان يضل وان يضل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
من سيل فافتى بغير علم فقد ضل واضل وقال بعض الحكماء العالم لا
تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك جهلا من عقلك ان تنطق بما لا تفهم
ولقد احسن زرارة بن زيد حيث يقول

اذا ما انتهى علمي تناهيت عنده اطال فاملى ام تناهى فاقصرا
ويخبرني عن غايب المر فعله كفى الفعل عما غيب المر مخبرا

واذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار ان يجهل بعضه واذا لم يكن
في جهل بعضه عار لم يقبح به ان يقول لا اعلم فيما ليس يعلم وقد روي ان رجلا
قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اي البقاع خير واي البقاع شر
فقال لا ادري حتى اسال جبريل وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه
وا بردها على القلب اذا سيل احدكم عما لا يعلم ان يقول الله اعلم فان
العالم من عرف ان ما يعلم فيما لا يعلم قليل وقال عبد الله بن عباس رضي الله
عنه اذا ترك العالم لا ادري اصيبت مقاتله وقال بعض العلما
هلك من ترك لا ادري وقال بعض الحكما ليس لي من فضيلة العلم
الا علمي باني لست اعلم وقال بعض العلما من قال لا ادري علم فدرا
ومن انتحل ما لا يدري اهمل فهوى ولا ينبغي للرجل وان صار في طبقة
العلما الافاضل ان يستنكف من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف له
فقد قال عيسى بن مريم عليه السلم يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم
وعلم الجهال ما علمت وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه خمس خذوهن
عني ولو ركبتم الفلك ما وجدتموهن الا عندي لا يرجون

احد الادنيه ولا يانف الادنيه ولا يستنكف العالم ان يتعلم ما ليس عنده
واذا سيل عما لا يعلم فليقل لا اعلم ومنزلة الصبر من الايمان منزلة الراس
من الجسد وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه لو كان احد مكتفيا من العلم
لاكتفا منه موسى عليه السلم لما قال هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت
رشدا ه وقيل للخليل بن احمد بما ادركت هذا العلم قال كنت اذا
ادركت عالما اخذت منه واعطيته ه وقال بزرجمهر من العلم ان لا
يحقر شيا من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم ه وقيل لمنصور الشريكي
انا لك هذا العلم قال لم ارغب عن قليل استفيده ولم ابخل بكثير افيده
على ان العلم يقتضي منه ما بقي ويستدعي ما تاخر عنه وليس للراغب فيه قناعة
ببعضه ه روي عون بن عبد الله عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال منهومان
لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا فاما طالب العلم فانه يزداد للرحمن رضا
ثم قرا انما يخشى الله من عباده العلما واما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا
ثم قرا كلا ان الانسان ليطغى ان راه استغنى وليكن مستقلا للفضيلة
منه ليزداد منها ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهي عنها ولا يقتنع في العلم
بما ادرك منه لان القناعة فيه زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل
وقد قال بعض الحكما عليك بالعلم والاكثار منه فان قليله اشبه شي بقليل
الخير وكثيره اشبه شي بكثيره ولن يعيب الخير الا القلة واما كثيره فانها
امنية وقال بعض البلغا من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال عقلك استظهارك
على عقلك ولا ينبغي ان يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا ان يتجاوز بها قدر
حقها ولان يكون بها مقصرا فيقعد عن الانقياد اولى من ان يكون بها مجاوزا
فيكون

فيكف عن الازدياد لان من جهل حال نفسه كان لغيرها اجهل وقد
قالت عايشة رضي الله عنها يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه
فقال اذا عرف نفسه ه وقد قسم الخليل بن احمد احوال الناس فيما
علموه او جهلوه اربعة اقسام متقابلة لا يخلو حال الانسان منها فقال الرجال
اربعة رجل يدري ويدري انه يدري فذاك عالم فاسالوه ه ورجل يدري
ولا يدري انه يدري فذاك ناس فذكروه ورجل لا يدري ويدري
انه لا يدري فذاك مسترشد فارشدوه ه ورجل لا يدري ولا يدري
انه لا يدري فذاك جاهل فارفضوه وانشد ابو القسم الامدي
اذا كنت لا تدري ولم تك بالذي تسايل من يدري فكيف اذا تدري
جهلت ولم تعلم بانك جاهل فمن لي بان تدري بانك لا تدري
اذا كنت في كل الامور بنعمة فكن هكذا ارضا يطاك الذي يدري
ومن اعجب الاشيا انك لا تدري وانك لا تدري بانك لا تدري
وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على ان تاتمر بما امر به ولا تكن
ممن قال الله تعالى فيه مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار
يحمل اسفارا وقد قال قتادة في قوله تعالى وانه لذو علم لما علمناه يعني
العامل بما علم ه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ويل لجامع
القول ويل للمصرين الذين يسمعون القول ولا يعملون ه وروى عبد
الله بن وهب عن سفيان ان الخضر قال لموسى عليه السلم يا ابن عمران تعلم العلم
لتعمل به ولا تعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره ه
وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه انما زهد الناس في طلب العلم

لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم وقال ابو الدردا اخوف ما اخاف اذا وقفت بين يدي الله تعالى ان يقول قد علمت فماذا عملت اذ علمت

وكان يقال خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله وقيل في منثور الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به

وقال بعض العلماء ثمرة العلم العمل به وقال بعض الصلحا العلم يهتف بالعمل فان اجابه والا ارتحل وقال بعض الحكما خير العلم ما نفع وخير القول ما ردع وقال بعض الادبا ثمرة العلوم العمل بالمعلوم

وقال بعض البلغا من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله وقال اخر من استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد

ولم ار امرا عالما غير عامل ولا من عاملا غير عالم

راوا طرقات المجد عوجا قطيعة واقطع عجز عندهم حازم

ولانه لما كان علمه حجة على من اخذ عنه واقتبسه منه حتى لزمه العمل والمصير اليه كان عليه احج وله الزم لان رتبة العمل قبل رتبة القول ثم ان رتبة العلم قبل رتبة العمل وقد قال ابو العتاهيه

اسمع الى الاحكام تحملها الرواة عنا واعلم هديت بان حجتك البليغة

ثم يجتنب ان يقول ما لا يفعل وان يامر بما لا ياتمر وان يسر غير ما يظهر ولا يجعل قول الشاعر

اعمل بقولي وان قصرت في عملي ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

عذرا له في تقصيره بجرمه وان لم يضر غيره فان اعذار النفس تغريها وتحسن

لها مساويها

36

فان من قال ما لا يفعل فقد مكر ومن امر بما لا ياتمر فقد خدع ومن اسر غير ما يظهر فقد نافق وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المكر والخديعة وصاحبهما في النار على ان امره بما لا ياتمر مطرح وانكاره ما لا ينكره من نفسه مستقبح بل ربما كان ذلك سببا لاغرا المامور بترك ما امر به عنادا وارتكاب ما نهي عنه كيادا حكي ان اعرابيا اتى ابن ابي ذيب فساله عن مسالة طلاق فافتاه بطلاق امراته فقال انظر حسنا فقال قد نظرت فقد بانت منك فتولى الاعرابي وهو يقول

اتيت ابن ذيب ابتغي الفقه عنده فطلق حتى البت تبت انامله

اطلق في فتيا ابن ذيب حليلتي وعند ابن ذيب اهله وحلايله

وظن بجهله انه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فما ظنك بقول يجب اشتراك الامر والمامور فيه كيف يكون منه مقبولا وهو غير عامل به ولا قابل له كلا وقد قال احمد بن يوسف

وعامل بالفجور يامر بالبر كهاد يخوض في الظلم

او كطبيب قد شفه سقم وهو يداوي من ذلك السقم

يا واعظ الناس غير متعظ ثوبك طهر اولا فلا تلم

وقال اخر

عود لسانك قلة اللفظ واحفظ كلامك ايما حفظ

اياك ان تعظ الرجال وقد اصبحت محتاجا الى الوعظ

فاما الانقطاع عن العلم الى العمل او الانقطاع عن العمل الى العلم اذا عملت بموجب العلم فقد حكي عن الزهري رضي الله عنه فيه ما يغني عن تكلف غيره وهو انه قال العلم افضل من العمل لمن جهل

والعمل افضل من العلم لمن علم فاما فضل ما بين العلم والعبادة اذا
لم يخل بواجب ولم يقصر في فرض فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال يبعث العالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للعالم
اثبت حتى تشفع للناس ومن اداب العلما ان لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون
ولا يمتنعوا من افادة ما يعلمون فان البخل به لوم وظلم والمنع منه حسد
واثم وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل واوتوه عفوا
من غير بذل ام كيف يجوز لهم الشح بما ان بذلوه زاد ونما وان كتموه
تناقص ووهى ولو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم اليهم ولا
انقرض عنهم بانقراضهم ولصاروا على مرور الايام جهالا ولتقلب
الاحوال وتناقصها ارذالا وقد قال الله تعالى واذ اخذ الله ميثاق
الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه وروي عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال لا تمنعوا العلم اهله فان ذلك فساد دينكم والتباس
بصايركم ثم قرا ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى
من بعد ما بيناه للناس في الكتاب الايه وروي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال من كتم علما يحسنه الجمه الله بلجام من نار وروي
عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه انه قال ما اخذ الله تعالى
العهد على اهل الجهل ان يتعلموا حتى اخذ العهد على اهل العلم
ان يعلموا وقال بعض الحكما اذا كان من قواعد الحكمة
بذل ما ينقصه البذل فاحرى ان يكون من قواعدها بذل ما
لا ينقصه البذل وقال بعض العلما ان الاستفادة نافلة
للمتعلم

لعله الإفادة

37

للمتعلم كذلك الاشارة فريضة على المعلم وقد قيل في منثور الحكم
من كتم علما فكانه جاهل وقال خالد بن صفوان اني لافرح بافادتي
المتعلم اكثر من فرحي باستفادتي من المتعلم ثم له بالتعليم نفعان احدهما
ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم
التعليم صدقة فقال صلى الله عليه وسلم تصدقوا على اخيكم بعلم
يرشده وراي يسدده وروي ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال تعلموا وعلموا فان اجر العالم والمتعلم سوا قيل ما
اجرهما قال على مايه مغفرة ومايه درجه في الجنة والنفع الثاني
زيادة العلم واتقان الحفظ وقد قال الخليل بن احمد اجعل تعليمك
دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس عندك وقال
ابن المعتز في منثور الحكم النار ما ينقصها ما اخذ منها ولكن يخمدها
ان لا تجد حطبا كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحا ملين
له سبب عدمه واياك والبخل بما تعلمه وقال بعض العلما
علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا انت قد علمت ما جهلت وحفظت
ما علمت واعلم ان المتعلمين ضربان مستدعى وطالب فاما
المستدعى الى العلم فهو من استدعاه العالم الى التعليم لما ظهر
له من جودة ذكايه وبان له من قوة خاطره فاذا وافق استدعا
العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتها درك النجبا وظفر السعدا
لان العالم باستدعايه متوفر والمتعلم بشهوته مستكثر
فاما الطالب للعلم لداع يدعوه وباعث يحدوه فان كان

الداعي دينياً وكان المتعلم فطناً ذكياً وجب على العالم أن
يكون عليه مقبلاً وعلى تعليمه متوفراً لا يخفي عنه مكنوناً ولا
يطوي عنه مخزوناً وإن كان بليداً بعيد الفطنة فينبغي أن لا
يمنع من اليسير فيحرم ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل بلادته
ذريعة لحرمانه فإن الشهوة باعثة والصبر مؤثر وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا
ولا تضعوه في غير أهله فتأثموا وقال بعض العلماء لا تمنعوا
العلم أحداً فإن العلم أمنع بجانبه فأما إن لم يكن الداعي دينياً
نظر فيه فإن كان مباحاً كرجل دعاه إلى طلب العلم حب
النباهة وطلب الرياسة فالقول فيه مقارب للقول في تعليم
من قبل لأن العلم يعطفه إلى الدين في ثاني حال وإن لم يكن مبتدياً
به في أول حال وقد حكي عن سفيان الثوري أنه قال تعلمنا
العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله وقال عبد الله بن المبارك
طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا وإن كان الداعي
محظوراً كرجل دعاه إلى طلب العلم شر كامن ومكر باطن
يريد أن يستعملهما في شبه دينية وحيل فقهية لا يجد
أهل السلامة منهما مخلصاً ولا عنهما مدفعاً كما قال
النبي صلى الله عليه وسلم أهلك أمتي رجلان عالم فاجر وجاهل
متعبد وقيل يا رسول الله أي الناس شر فقال العلما
ء إذا فسدوا فينبغي للعالم إذا رأى من هذه حاله أن يمنعه من

طلبته ويصرفه عن بغيته ولا يعينه على إمضاء عزمه وإعمال
شره فقد روى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر
والذهب وقال عيسى بن مريم لا تعلقوا اللؤلؤ الخنازير فالعلم
أفضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير وحكي أن تلميذاً
سأل عالماً عن بعض العلوم فلم يفده فقيل له لم منعته فقال لكل
تربة غرس ولكل بناء أس وقال بعض البلغاء لكل ثوب لابس
ولكل علم قابس وقال بعض الأدباء أرب لروضة توسطها
خنزير وباب لعلم حواه شرير فينبغي أن يكون للعالم فراسة
يتوسم بها المتعلم ليعرف بها مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه
ما يتحمله بذكائه أو يضعف عنه ببلادته فإنه أروح للعالم وأنجح
للمتعلم وقد روى ثابت عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم وقال عمر بن الخطاب رضي الله
عنه إذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت وقال عبد الله بن
الزبير لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه وقال ابن الرومي
المعي يرى بأول رأي آخر الأمر من وراء المغيب
لوذعي له فؤاد ذكي ما له في ذكائه من ضريب
لا يروي ولا يقلب طرفاً وأكف الرجال في تقليب
وإذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقا قهم
خبيراً لم يضع له عناء ولم يخب على يديه صاحب وإن لم يتوسمهم وخفيت

عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا إياه في عناء وتعب عن مجد
لأنه لا يعدم أن يكون فيهم ذكي محتاج إلى الزيادة وبليد يكتفي
بالقليل فيضجر الذكي ويعجز البليد ومن تردد أصحابه بين عجز
وضجر ملوه وملوا وقد روى عبد الله بن وهب عن سفيان قال
قال الخضر لموسى عليهما السلام يا طالب العلم إن القائل أقل
ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم يا موسى واعلم
أن قلبك وعاء فانظر ما تحشو به وعاءك وقال بعض الحكماء
خير العلماء من لا يقل ولا يمل وقال بعض العلماء كل علم كثر
على السمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى وإنما ينفع
السمع للأذن إذا قوي فهم القلوب في الأبدان وربما كان
لبعض السلاطين رغبة في العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه
فلا يجعل ذلك ذريعة في الانبساط عنده والإدلال عليه بل
يعطي ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فإن للسلطان حق الطاعة
والإعظام وللعالم حق القبول والإكرام ثم لا ينبغي أن يبتدئ به
إلا بعد الاستدعاء ولا يزيد على قدر الاكتفاء فربما أحب بعض
العلماء إظهار علمه للسلطان فأكثر فصار ذلك ذريعة إلى ملاله
ومفضيا إلى بعده فإن السلطان مقسم الأفكار مستوعب
الزمان فليس له في العلم فراغ المنقطعين إليه ولا صبر المتفردين به
وقد حكي عن الأصمعي قال قال لي الرشيد يا عبد الملك أنت أعلم
منا ونحن أعقل منك لا تعلمنا في ملأ ولا تسرع إلى تذكيرنا في

خلا واتركنا حتى نبتديك بالسؤال فإذا بلغت من الجواب حق
الاستحقاق فلا تزد إلا أن نستدعي ذلك منك انظر إلى ما ألطف في
التأديب وأنصف في التعليم وبلغ بأوجز لفظ غاية التقويم وليخرج
تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة لا مخرج التعليم والإفادة لأن لتأخير
التعلم خجلة تقصير يجل السلطان عنها فإن ظهر منه خطأ أو زلل في
قول أو عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراك زلله وإصلاح
خطئه حكي أن عبد الملك بن مروان قال للشعبي كم عطاءك قال
ألفين قال لحنت قال لما ترك أمير المؤمنين الإعراب كرهت أن أعرب
كلاما عليه ثم ليحذر اتباعه فيما خالف الدين وتضاد الحق موافقة
لرأيه ومتابعة لهواه فربما زلت أقدام العلماء في ذلك رغبة
أو رهبة فضلوا وأضلوا وقد روى الحسن البصري قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال هذه الأمة تحت
يد الله تعالى وفي كنفه ما لم يمال قراؤها أمراءها ولم يزك
صلحاؤها فجارها وما لم يمال الخيار الأشرار فإذا فعلوا ذلك
رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب وضربهم
بالفاقة والفقر وملأ قلوبهم رعبا ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه
المكاسب والقناعة بالميسور عن كد المطالب فإن شبه المكاسب
إثم وكد المطالب ذل والأجر أجدر به من الإثم والعز أحق به
من الذل أنشدني بعض أهل الأدب للقاضي أبي الحسن علي بن
عبد العزيز الجرجاني

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل من في الأرض أرضاه منعما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنهنهها عن بعض ما لا يشينها مخافة أقوال العدى فيم أو لما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

على أن العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بداً منه وقد قال بعض البلغاء من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة ومن آنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الإخوان وقال بعض الحكماء لا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم ومن آدابهم أن يقصدوا وجه الله تعالى بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه بإرشاد من أرشدوا وأن لا يعتاضوا عليه عوضاً ولا يلتمسوا عليه رزقاً قال الله تعالى ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وقال أبو العالية لا تأخذ على علمك أجراً فإنه مكتوب عندهم في الكتاب الأول يا ابن آدم علم مجاناً كما علمت مجاناً وروي أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال أجر المعلم كأجر الصائم القائم ومن هذا أجرهم أن لا يلتمس عليه أجراً ومن آدابهم نصح من علموه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم فإن ذلك أعظم لأجرهم وأسنى لذكرهم وأنشر لعلومهم وأرسخ لمعلومهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام يا علي لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلماً ولا يحتقروا ناشئاً ولا يستصغروا مبتدئاً فإن ذلك أدعى إليهم وأعطف عليهم وأحث على الرغبة فيما لديهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وقروا من تتعلمون منه ووقروا من تعلمونه ومن آدابهم أن لا يمنعوا طالباً ولا ينفروا راغباً ولا يؤيسوا متعلماً لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض إلى انقراض العلم بانقراضهم فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى يا رسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه وعلم ليس فيه تفهم وقراءة ليس فيها تدبر فهذه جملة كافية والله ولي التوفيق



41

باب أدب الدين

اعلم أن الله تعالى إنما كلف خلقه متعبداته وألزمهم مفترضاته وبعث إليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته إلى تكليفهم ولا من ضرورة قادته إلى تعبدهم وإنما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عدداً من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم به أعظم لأن نفع ما سوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة وما جمع نفع الدنيا والآخرة كان أعظم نعمة وأكثر تفضلا وجعل ما تعبدهم به مأخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع ولذلك توجه التكليف إلى من كمل عقله فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فبلغهم رسالة الله وألزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه فيما أحله وحرمه وأباحه وحظره واستحبه وكرهه وأمر به ونهى عنه ووعد به من الثواب لمن أطاعه وأوعد به من العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لأن الرغبة تبعث على الطاعة والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع أمرا بطاعة ونهيا عن معصية فلذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة وكان ما تخلل ذلك من قصص الأمم السالفة وأخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة فكان ذلك من لطفه بنا وتفضله علينا فالحمد لله الذي نعمه لا تحصى وشكره لا يؤدى ثم جعل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض إليه قال الله تعالى وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ثم جعل إلى العلماء بعد رسوله استنباط ما نبه على معانيه وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد به فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وقال وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم فصار الكتاب أصلا والسنة فرعا واستنباط العلماء إيضاحا وكشفا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال القرآن أصل علم الشريعة نصه ودلائله والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمة المجتمعة حجة على من شذ عنها وكان من رأفته بخلقه وتفضله على عباده أن أقدرهم على ما كلفهم ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ليكونوا مع ما قد أعدهم ناهضين بفعل الطاعات ومجانبة المعاصي قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا إلا وسعها وقال وما جعل عليكم في الدين من حرج وجعل ما كلفهم ثلاثة أقسام قسما أمرهم باعتقاده وقسما أمرهم بفعله وقسما أمرهم بالكف عنه ليكون اختلاف جهات التكليف أبعث على قبوله وأعون على فعله حكمة منه وفضلا وجعل ما أمرهم باعتقاده قسمين قسما إثباتا وقسما نفيا فأما الإثبات فإثبات توحيده وصفاته وإثبات تصديق رسله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وأما النفي فنفي الصاحبة والولد والحاجة والقبائح أجمع وهذان القسمان هما أول

ما كلفه العاقل وجعل ما امرهم به بفعله لله اقسام قسما
على ابدانهم كالصلوة والصيام وقسما في اموالهم كالزكوة
والكفارات وقسما على اموالهم وابدانهم كالحج والجهاد
ليسهل عليهم فعله وتخف عليهم اداوه نظرا منه لهم وتفضلا
منه عليهم وجعل ما امرهم بالكف عنه لله اقسام قسما
لاحيا نفوسهم وصلاح ابدانهم كنهيه عن القتل واكل
الخبائث والسموم وشرب الخمور الموديه الى فساد العقل
وزواله وقسما لايتلافهم وصلاح ذات بينهم كنهيه
عن الغصب والغلبه والظلم والسرف المفضي الى القطيعه
والبغضا وقسما لحفظ انسابهم وتعظيم محارمهم
كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم وقد اتت نعمه
فيما حظره علينا كنعمه فيما اباحه لنا وتفضله فيما
نهانا عنه كتفضله فيما امرنا به وهل يجد العاقل في رويته
مساغا ان يقصر فيما امره وهو نعمه عليه او يرى
فسحه في ارتكاب ما نهي عنه وهو تفضل عليه وهل
يكون من انعم عليه بنعمه فاهملها مع شدة فاقته اليها
الا مذموما في العقل فيما جا من وعيد الشرع ثم من لطفه
بخلقه وتفضله على عباده ان جعل لهم من جنس كل فريضه
نفلا وجعل لها من الثواب قسطا وندبهم اليه ندبا وجعل
لهم الحسنة عشرا ليضاعف ثواب فاعله ويضع العقاب
عن تاركه ومن لطيف حكمه ان جعل لكل عبادة
حالين

حالين حالة كمال وحالة جواز رفقا منه بخلقه
لما سبق في علمه ان فيهم العجل المبادر والبطي المتثاقل
ومن لا صبر له على اداء الاكمل ليكون ما اخل به من
هيات عباداته غير قادح في فرض ولا مانع من اجر
فكان ذلك من نعمه علينا وحسن نظره لنا فكان اول ما
فرض بعد تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم عبادات للابدان
وقدمها على ما تعلق بالاموال لان النفوس على الاموال
اشح وبما تعلق بالابدان اسمح وذلك الصلوة والصيام
فقدم فرض الصلوة على الصيام لان الصلوة اسهل فعلا
وايسر عملا وجعلها مشتمله على خضوع له وابتهال اليه
فالخضوع له رهبة منه والابتهال اليه رغبة فيه
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا قام احدكم الى
صلوته فانما يناجي ربه فلينظر احدكم بم يناجيه وروي
عن امير المومنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه كان اذا
حضره وقت صلوة اصفر لونه مرة واحمر اخرى فقيل
له في ذلك فقال اتتني الامانة التي عرضت على السموات
والارض والجبال فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملتها
انا ولا ادري اسيء فيها او احسن ثم جعل لها شروطا
لازمة من رفع حدث وازالة نجس ليستديم النظافة للقا ربه
والطهارة لاداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر
ما فيه من اوامره ونواهيه ويعتبر اعجاز لفظه ومعانيه

ثم علقها باوقات راتبه وازمان مترادفة ليكون ترادف
ازمانها وتتابع اوقاتها سببا لاستدامة الخضوع له
والابتهال اليه فلا تنقطع الرهبه منه ولا الرغبه فيه
واذا لم تنقطع الرغبه والرهبه استدام صلاح الخلق وبحسب قوه الرغبه
والرهبه يكون استيفاوها على الكمال او التقصير فيها على حالة
الجواز فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الصلوة
مكيال فمن وفا وفي له ومن طفف فقد سمعتم ما قال الله تعالى
في المطففين وقد قال صلى الله عليه وسلم من هانت عليه صلوته كان على الله
اهون وانشد بعض اهل الادب

اقبل على صلواتك الخمس كم من مصبح وعساه لا يمسي
واستقبل اليوم الجديد بتوبة تمحو ذنوب صنيعة الامس
فليفعلن بوجهك الحسن الثرى فعل الظلام بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالى الصيام وقدمه على زكوه الاموال لتعلق الصيام
بالابدان فكان في ايجابه حث على رحمة الفقرا واطعامهم وسد
جوعاتهم لما قد عاينوه من شده المجاعة في صومهم وقد قيل
ليوسف عليه السلام لم تجوع وانت على خزاين الارض قال
اخاف ان اشبع فانسى الجايع ثم ما في الصوم من قهر النفس واذلالها
وكسر الشهوة المستوليه عليها واشعار النفس ما هي عليه من الحاجة
الى يسير الطعام والشراب والمحتاج الى الشي ذليل به
ولهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى وامه الهين من دونه فقال
تعالى ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة
كانا

كانا ياكلان الطعام فجعل حاجتهما الى الطعام نقصا فيهما
عن ان يكونا الهين وقد وصف الحسن البصري رضي الله عنه
نقص ابن ادم بالطعام وغيره فقال مسكين ابن ادم محتوم
الاجل مكنون الامل مستور العلل يتكلم بلحم وينظر بشحم ويسمع
بعظم اسير جوعه وصريع شبعه توذيه البقة وتنتنه
العرقه وتقتله الشرقه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا
ولا حيوه ولا نشورا فانظر الى لطفه بنا فيما اوجبه من الصيام
علينا كيف انتبهت العقول له وقد كانت عنه غافلة ومتغافلة
ونفعت النفوس به ولم تكن لولاه منتفعة ولا نافعة ثم فرض
زكوات الاموال وقدمها على فرض الحج لان الحج مع انفاق
المال سفرا شاقا فكانت النفس الى الزكاة اسرع اجابا
منها الى الحج فكان في ايجابها مواساه للفقرا ومعونه لذوي
الحاجات تكفهم عن البغضا وتمنعهم من التقاطع وتبعثهم
على التواصل لان الامل وصول والراجي هايب واذا زال
الامل وانقطع الرجا واشتدت الحاجة وقعت البغضا واشتد
الحسد فحدث التقاطع بين ارباب الاموال والفقرا ووقعت
العداوة بين ذوي الحاجات والاغنيا حتى يفضي الى التغالب
على الاموال والتغرير بالنفوس هذا مع ما في الزكوة من
تمرين النفس على السماحة المحمودة ومجانبة الشح المذموم لان
السماحة تبعث على ادا الحقوق والشح يصد عنها وما بعث
على ادا الحقوق فاجدر به حمدا وما صد عنها فاخلق به ذما

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال شر ما اعطي العبد
شح هالع وجبن خالع فسبحان من دبر بلطيف حكمته
واخفى عن فطننا جزيل نعمته حتى استوجب من الشكر باخفايها
اعظم ما استوجبه بابدايها ثم فرض الحج فكان اخر فروضه
لانه يجمع عملا على بدن وحقا في مال فجعل فرضه بعد استقرار
فروض الابدان وفروض الاموال ليكون استيناسهم بكل
واحد من النوعين ذريعة الى تسهيل ما جمع النوعين فكان في
ايجابه تذكيرا بيوم الحشر بمفارقة المال والاهل وخضوع
العزيز والذليل في الوقوف بين يديه واجتماع المطيع
والعاصي في الرهبة منه والرغبة اليه واقلاع اهل المعاصي
عما اجترحوه وندم المذنبين على ما اسلفوه فقل من حج الا
واحدث توبة من ذنب واقلاعا عن معصية ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم من علامة الحجة المقبولة ان يكون
صاحبها بعدها خيرا منه قبلها وهذا صحيح لان الندم على
الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة منها مكفرة لما سلف
منها فاذا كف عما كان يقدم عليه انبا عن صحة توبته وصحة
التوبة تقتضي قبول حجه ثم فيه لما يعاني فيه من مشاق السفر
المودي اليه على موضع النعمة بمفارقة الاقامة والاوطان
الاوطان ليحنوا على من سلبت هذه النعمة من ابناء السبيل ثم اعلمهم
بمشاهدة حرمه الذي انشا منه دينه وبعث فيه رسوله
ثم بمشاهدة دار الهجرة التي اعز الله بها اهل طاعته

واذلال

واذلال بنصرة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم اهل معصيته
حتى خضع له عظما المتجبرين وتذلل له زعما المتكبرين لانه
لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ولا قوي بعد الضعف
البين حتى طبق الارض شرقا وغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر
عزيز فاعتبر وفقك الله للتقوى والهمك الشكر على نعمايه
عليك فيما كلفك واحسانه اليك فيما تعبدك وقد وكلك
الى فطنتك واحالك على بصيرتك بعد ان كنت لك رايدا صادقا
وناصحا مشفقا هل تحسن نهوضا بشكره اذا فعلت ما امرك
وتقبلت ما كلفك كلا لانه لم يولك نعمة توجب الشكر الا
وصلها قبل شكر ما سلف بنعمة توجب الشكر في المستانف ولذلك
قال الحسن بن علي رضي الله عنهما نعم الله اكثر من ان تشكر
الا ما اعان عليه وذنوب ابن ادم اعظم من ان تغفر الا ما عفا عنه
وانشدت لمنصور بن اسمعيل الفقيه المصري
شكر الاله نعمة موجبة لشكره فكيف شكري بره وشكره من بره
واذا كنت عن شكر نعمه عاجزا فكيف بك اذا فرطت فيما كلفك وقصرت
بما امرك ونفعه اعود عليك لو فعلته هل يكون لسوابغ نعمه
الا كفورا وببداية العقول الا مزجورا وقد قال الله تعالى
يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها قال مجاهد اي يعرفون
ما عدد الله عليهم من نعمه ثم ينكرونها بقولهم ان هذا ورثناه
عن ابائنا واكتسبناه بافعالنا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال يقول الله تبارك وتعالى يا ابن ادم ما انصفتني اتحبب

اليك بالنعم وتتمقت الي بالمعاصي خيري اليك نازل وشرك الي صاعد كم من ملك كريم يصعد الي منك بعمل قبيح ٥ وقال بعض صلحا الناس قد اصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه فلا ندري ايما نشكر اجميل ما ينشر ام قبيح ما يستر فحق على من عرف موقع النعمة ان يقبلها ممتثلا لما كلف منها وقبولها يكون باداتها ثم يشكر الله على ما انعم به من اسدائها فان بنا من الحاجة الى نعمة اكثر مما كلفنا من نعمة فان نحن اذينا حق النعمة في التكلف فلزمت النعمان ومن لزمته النعمان فقد ادرك حظ الدنيا والاخرة وهذا هو السعيد بالاطلاق فان قصرنا في اذا ما كلفنا من نعمة قصر عنا ما لا تكليف فيه من نعمة فنفرت النعمان ومن نفرت عنه النعمان فقد سلب حظ الدنيا والاخرة فلم يكن له في الحيوة حظ ولا في الموت راحة وهذا هو الشقي بالاستحقاق وليس يختار الشقا على السعادة ذو لب صحيح ولا عقل سليم ٥ وقد قال الله تعالى ليس باما نيكم ولا اماني اهل الكتاب من يعمل سوا يجز به ٥ فروي الاعمش عن ابي بكر قال قلت يا رسول الله ما اعظم هذه الاية من يعمل سوا يجز به فقال يا با بكر ان المصيبة في الدنيا جزا واختلف المفسرون في تاويل قوله تعالى سنعذبهم مرتين قال بعضهم ان العذاب الواحد الفضيحة في الدنيا والاخر عذاب القبر ٥ قال عبد الرحمن بن زيد احد العذابين مصايبهم في الدنيا في اولادهم واموالهم والثاني عذاب الاخرة في النار وليس وان قال اهل المعاصي لنا من عيش اوادركوا امنية من دنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجا ونقمة

وقد قال ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رايت الله تعالى يعطي الناس على معاصيهم ما يشاون فانما ذلك استدراج منه لهم ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شي حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون فاما ساير المحرمات التي منع الشرع منها واستقر التكليف عقلا وسمعا بالنهي عنها فينقسم قسمين منها ما تكون النفوس داعية اليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح وشرب الخمر فقد زجر الله تعالى عنها لقوة الباعث عليها وشدة الميل اليها بنوعين من الزجر احدهما حد عاجل يرتدع به الجري والثاني وعيد اجل يزدجر به التقي ومنها ما يكون النفوس نافرة منها والشهوات مصروفة عنها كاكل الخبايث والمستقذرات وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله سبحانه في الزجر عنها بالوعيد وحده دون الحد لان النفوس مسعدة في الزجر والشهوات مصروفة عن ركوب المحذور منها ثم اكد الله تعالى زواجره بانكار المنكرين لها فاوجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون الامر بالمعروف تاييدا لاوامره والنهي عن المنكر تاييدا لزواجره لان النفوس الاشرة قد الهتها الصبوة عن اتباع الاوامر واذهلتها الشهوة عن تذكار الزواجر فكان انكار المجانسين ازجر لها وتوبيخ المخالطين ابلغ فيها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم

ما اقر قوم المنكر بين اظهرهم الا اعمهم الله بعذاب محتضر
واذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال فاعل المنكر من احد
امرين احدهما ان يكون احادا متفرقين وافرادا متبددين
لم تتحزب بوانيه ولم يتاطفروا عليه وهم رعيه مقهورون
واشذاذ مستضعفون فلا خلاف بين الناس ان امرهم بالمعروف
ونهيهم عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة واجب على من
شاهد ذلك من فاعليه او سمعه من قايليه وانما اختلفوا في
وجوب ذلك على منكريه هل وجب عليهم بالعقل او بالشرع
فذهب بعض المتكلمين الى وجوب ذلك بالعقل لانه لما وجب
بالعقل وجب ان يمتنع من القبيح وجب ايضا بالعقل ان يمنع
غيره منه لان ذلك ادعى الى مجانبته وابلغ في مفارقته
وقد روى عبد الله بن المبارك عن النبي صلى الله عليه وسلم
ان قوما ركبوا في سفينة في البحر فاقتسموا فاخذ كل واحد
منهم موضعا فنقر احدهم موضعه بفاس فقالوا له ما تصنع
قال هو مكاني اصنع به ما شيت فلم ياخذوا على يده فهلك
وهلكوا وذهب اخرون الى وجوب ذلك بالشرع دون
العقل لان العقل لو اوجب النهي عن المنكر ومنع غيره
من القبيح لوجب على الله تعالى ولما جاز ورود الشرع مثله
باقرار اهل الذمة على الكفر وترك التنكير عليهم لان
واجبات العقول لا يجوز ابطالها بالشرع وفي ورود
الشرع بذلك دليل على ان العقل غير موجب لانكاره
فاما

فاما اذا كان في ترك انكاره ولم تلحقه مضرة في كفه واقراره
لم يجب عليه الانكار لا بالعقل ولا بالشرع اما العقل فلانه يمنع
من اجتلاب المضار التي لا يوازيها نفع واما الشرع فقد روى
ابو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال انكر المنكر بيدك فان لم تستطع فبلسانك فان لم
تستطع فبقلبك وذلك اضعف الايمان فان اراد الاقدام
على الانكار مع خوف المضرة به نظر فان لم يكن اظهار التنكير
ما يتعلق باعزاز دين الله ولا اظهار الكلمة الحق لم يجز له
التنكير اذا خشي بغالب الظن تلفا او ضررا ولم يحسن منه
التنكير ايضا وان كان في اظهار التنكير اعزاز الدين الله تعالى
واظهار الكلمة الحق حسن منه التنكير مع خشية الاضرار
والتلف وان لم يجب عليه اذا كان الغرض يحصل له بالتنكير
فان استفضى اوتيا وعلى هذا الوجه قال النبي صلى الله عليه وسلم
ان من افضل الاعمال كلمة حق عند سلطان جاير فاما ان كان
يقتل قبل حصول الغرض قبح في العقل ان يتعرض لانكاره ولذلك
لو كان الانكار يزيد المنهي اغراء بفعل المنكر وتجاهرا في الاستكثار
منه قبح في العقل انكاره واما الحال الثانية ان يكون فعل المنكر من
جماعة قد تضافرت عليه وعصبة قد تحزبت ودعت اليه وقد
اختلف الناس في وجوب انكاره على مذاهب شتى فقالت
طايفة من اصحاب الحديث واهل الاثار لا يجب انكاره والاولى
بالانسان ان يكون كافا ممسكا ملازما لبيته وادعا غير منكر

ولا مستنكر وقالت طائفة اخرى ممن يقول بظهور المنتظر
لا يجب انكاره ولا التعرض لازالته الا ان يظهر المنتظر
فيتولى انكاره بنفسه ويكونوا حينئذ اعوانه وقالت طائفة
اخرى منهم الاصم لا يجوز للناس انكاره الا ان يجتمعوا على امام
عدل فيجب عليهم الانكار معه وقال جمهور المتكلمين انكار
ذلك واجب عليه والدفع عنه واجب بشروطه في وجود
اعوان يصلح زوله فاما مع فقد الاعوان فعلى الانسان التوقي لان
الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض فيه وذلك قبيح في العقل
ان يتعرض له فهذا حكم ما امر الله تعالى به او امر به واين
الزواجر من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يختلف من احوال
الامرين به والناهين عنه ثم ليس يخلو احوال الناس فيما امروا
به ونهوا عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصي من اربعة
احوال فمنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب
المعاصي وهي اكمل احوال اهل الدين وافضل صفات المتقين
فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المتقين روى محمد بن
عبد الملك المدايني عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان لا يموت
فكن كيف ما شئت كما تدين تدان وقد قيل كما يحصد ما
يزرع ويجزى بما يصنع بل قال لو زرع يومك حصاد غدك ومنهم
من يمتنع من فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي وهي
اخبث احوال المكلفين وشر صفات المتعبدين فهذا

يستحق عقاب اللاهي عن فعل ما امر به من طاعته وعذاب المجتري
على ما اقدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة عجبت
لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة
النار فاخذ ذلك بعضهم فنظمه فقال

جسمك قد افنيته بالحمى دهرا من البارد والحار
وكان اولى بك ان تحتمي من المعاصي حذر النار

وقال ابن طباطبا انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله اهون
من الصبر على عذاب الله وقال آخر اصبروا عباد الله على عمل
لا غنا بكم عن ثوابه واصبروا على عمل لا صبر لكم على عقابه وقال
الفضيل بن عياض رضي الله عنه كيف يرضى عني وما ارضيته
ومنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي
فهذا يستحق عذاب المجتري لانه توسط بغلبة الشهوة على الاقدام
على المعصية وان سلم من التقصير في فعل الطاعة وقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقلعوا عن المعاصي قبل ان ياخذكم الله
فيدع عملكم هبتاً بتاً الهبت الكسر والبت القطع قال بعض العلماء افضل
الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تزل الشبهة يقينه وقال احمد
بن زيد عجبت لمن يحتمي الاطعمة لمضرتها كيف لا يجتنب الذنوب لمعرتها
وقال بعض الحكماء اهل الذنوب مرضى القلوب وقيل للفضيل بن
عياض ما اعجب ما رايت قال قلب عرف الله ثم عصاه وقال
بعض الادباء لا يبالي الطاعة العاصي وينسى عظم المعاصي وقال
رجل لابن عباس رضي الله عنه ايما احب اليك رجل قليل الذنب قليل

قليل العمل او رجل كبير الذنوب كبير العمل قال لا ابغي بالسلامة
بدلا وقيل لبعض الزهاد ما تقول في صلوة الليل قال خف الله
بالنهار ونم بالليل وسمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم
اهلككم النوم فقال بل اهلكتهم اليقظة وقيل لابي
هريرة رضي الله عنه ما التقوى قال اجزت في ارض
فيها شوك قال نعم قال كيف صنعت قال تحايدت الشوك
قال فتوقى المعاصي ولعبد الله بن المبارك

ايصبر فتى ترك المعاصي وارهنه الجهالة بالحلا
اطاع الله قوم فاستراحوا ولم يتجرعوا غصص المعاصي

ومنهم من تمنع من فعل الطاعات وكف عن ارتكاب المعاصي
فهذا يستحق عقاب اللاهي عن دينه المنذر بقلة تنبيه وروى
ابو ادريس عن ابي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم كانت صحف موسى عليه السلم كلها عبرا
عجبت لمن ايقن بالنار كيف يضحك وعجبت لمن ايقن بالموت كيف
يفرح وعجبت لمن ايقن بالقدر كيف ينصب وعجبت لمن راى
الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها وعجبت لمن ايقن بالحساب
غدا ثم لا يعمل ليوم الحساب وروي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال اجتهدوا في العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا
عن المعاصي وهذا واضح المعنى لان الكف عن المعاصي ترك
وهو اسهل وعمل الطاعات فعل وهو اثقل ولذلك لم يبح
الله ارتكاب معصية بعذر ولا غير عذر لانه ترك والترك
لا يعجز

لا يعجز المعذور عنه واباح ترك الاعمال بالاعذار
لان العمل قد يعجز عنه المعذور وقد قال بكر بن عبد الله
رحم الله امرأ كان قويا فاعمل قوته في طاعة الله او كان
ضعيفا فكف عن معصية الله وقال عبد الاعلى بن عبد الله الشامي

العمر ينقص والذنوب تزيد وتقال عثرة الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد رجل جوارحه عليه شهود
والمرء يسال عن سنيه فيشتهي تنقيصها وعن الممات يحيد

واعلم بان لاعمال الطاعات ومجانبة المعاصي آفتين احدهما
كسب الوزر والاخرى توهي الاجر فاما المكتسبة
للوزر فالاعجاب بما سلف من عمله وقدم من طاعته لان
الاعجاب به نقص الحالين من وجهين احدهما ان المعجب بعمله
ممتن به والممتن على الله جاحد لنعمه قال ابن عباس رضي
الله عنه اوحى الله تبارك وتعالى الى نبي من انبيائه اما زهدك
في الدنيا فقد استعجلت به الراحة واما انقطاعك الي فهو
عز لك فهذا ان لك وبقيت انا والثاني ان المعجب بعمله مدل
به والمدل مجتري والمجتري على الله عاص وقد قال مورق
العجلي خير من العجب بالطاعة ان لا يأتي بطاعته وقال بعض
السلف ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه
وباك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه واما
الموهنة للاجر فالثقة بما سلف والركون الى ما قدم لان
الثقة تؤول الى امرين سيئين احدهما انها تحدث اتكالا على ما

ما مضى وتقصيرا فيما يستقبل ومن قصر واتكل لم يرح اجرا
ولم يود شكرا والثاني ان الواثق امن والامن من الله
غير خايف ومن لم يخف الله هانت عليه اوامره وسهلت عليه
زواجره وقد قال الفضيل بن عياض رهبة العبد من الله
على قدر علمه بالله وقال مورق العجلي لان ابيت نادما خير
من ابيت قايما واصبح ناعما وقالت الحكما ما بينك وبين الا
يكون قبلك خير الا ان لا ترى ان قبلك خيرا وقيل
لرابعة العدوية هل عملت قط عملا ترين انه يقبل منك قالت ان
كان شي فخوفي من ان يرد علي عملي وقال ابن السماك انا
لله فيما مضى ما اعظم فيه الخطر وانا لله فيما بقي ما اقل منه الحذر
حكي ان بعض الزهاد وقف على جمع فنادى باعلى صوته
فقال يا معشر الاغنيا لكم اقول استكثروا من الحسنات
فان ذنوبكم كثيره ويا معشر الفقرا لكم اقول اقلوا من الذنوب
فان حسناتكم قليله فينبغي احسن الله لك التوفيق ان لا تضيع
صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك والثقة
بسالف عملك واجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة
فراغك وليس كل الزمان مسعفا ولا ما فات مستدركا
وللفراغ زيغ او ندم وللخلوة ميل او اسف وقد قال
عمر بن الخطاب رضي الله عنه الراحة للرجال غفلة وللنساء
غلمة وقال بزرجمهر ان كان الشغل مجهدة فان الفراغ
مفسدة وقال بعض الحكما اياكم والخلوات فانها تفسد

العقول

العقول وتعقد المحلول وقال بعض البلغا لا تمض يومك
في غير منفعة ولا تضع مالك في غير صنيعة فالعمر اقصر
من ان ينفد في غير المنافع والمال اقل من ان يصرف في غير
الصنايع والعاقل اجل من ان يفني ايامه فيما لا يعود عليه نفعه
وخيره وينفق امواله فيما لا يحصل له ثوابه واجره وابلغ من ذلك
قول عيسى بن مريم عليه السلم البر ثلثه المنطق والنظر والصمت
فمن كان منطقه في غير ذكر الله فقد لغا ومن كان نظره في غير
اعتبار فقد سها ومن كان صمته في غير فكر فقد لهى واعلم
ان للانسان فيما كلف من عباداته ثلثة احوال احدها ان
يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانيه
ان يقصر فيها والثالثه ان يزيد فيها واما الحالة الاولة
وهو ان ياتي بها على حال الكمال من غير تقصير فيها ولا زيادة
تطوع على راتبتها فهي اوسط الاحوال واعدلها لانه لم يكن
منه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز وقد روى سعيد بن
ابي سعيد عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال سددوا وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة
وشي من الدلجة وقال الشاعر
عليك باوساط الامور فانها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا
واما الحالة الثانية وهو ان يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره
من اربعة احوال احدها ان يكون تقصيره لعذر اعجزه عنه
او مرض اضعفه عن ادا ما كلف منه فهذا خارج عن حكم المقصر

ويلحق باحوال القاملين باستقرار الشرع على سقوط ما دخل
تحت العجز وقد جا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
ما من عامل يعمل عملا فيقطعه عن ذلك العمل مرض الا وكل الله به
من يكتب له ثواب عمله والحالة الثانية ان يكون تقصيره اغترارا
بالمسامحة فيه ورجا للعفو عنه فهذا مخدوع العقل مغرور
بالجهل قد جعل الظن ذخرا والرجا عدة فهو كمن قطع سفرا
بغير زاد ظنا بانه سيجده في المفاوز اجده فيفضي به الظن
الى الهلكة وهلا كان الحذر عليه اغلب وقد ندب الله سبحانه
وتعالى اليه حكي عن اسرايل بن محمد القاضي قال لقيني
مجنون كان يكون في الخرابات فقال يا اسرايل خف الله
خوفا يشغلك عن الرجا فان الرجا يشغلك عن الخوف وفر
الى الله ولا تفر منه وقيل لمحمد بن واسع الا تتكي فقال
تلك جلسة الامنين وحكي ان ابا حازم الاعرج اخبر سليمان
بن عبد الملك بوعيد للمذنبين فقال سليمان فاين رحمة الله
قال قريب من المحسنين وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه
ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
مثل كتاب كتبه الي علي بن ابي طالب رضي الله عنه اما بعد فان
الانسان يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوه فوت ما لم يكن
ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا ولا تكن بما فاتك
ترحا ولا تكن ممن يرجو الاخرة بغير عمل ويوخر التوبة
بطول امل فكان قد والسلم وقال محمود الوراق

اخاف

اخاف على المحسن المتقي . وارجو الذي الهفوات المسي
فذلك خوفي على محسن فكيف على الظالم المعتدي
على ان ذا الزيغ قد يستفيق ويستانف الزيغ قلب التقي
والحالة الثالثة ان يكون تقصيره فيه ليستوفي ما اخله من بعد
فيبدا بالسيئة في التقصير قبل الحسنة في الاستيفا اغترارا بالامل
وامهالا له ورجا لتلافي ما اسلف من تقصيره واخلاله فلا ينتهي
به الامل الى غاية ولا يفضي به الى نهاية لان الامل هو في ثاني
حال كهو في اول حال وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال من يامل انه يعيش غدا فانه يامل ان يعيش ابدا . ولعمري انه
هذا صحيح لان لكل يوم غدا فاذا يفضي به الامل الى الفوت
من غير درك فيوديه الرجا الى الاهمال من غير تلاف فيصير الامل
خيبة والرجا ياسا وقد روى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال اول صلاح هذه الامة باليقين والزهد
وفسادها بالبخل والامل وقال الحسن البصري ما اطال عبد
الامل الا اسا العمل وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة
الك حاجة الى بغداد قال ما احب ان ابسط املي حتى تذهب
الى بغداد وتجي وقال بعض الحكما الجاهل يعتمد على امله
والعاقل يعتمد على عمله وقال بعض البلغا الامل كالسراب غر
من راه وخاب من رجاه وقال محمد بن يزداد دخلت على المامون
وكان يوما قد بردت فراشه قايما وبيده رقعة فقال يا محمد
اقرات ما فيها فقلت هي في يد امير المومنين قال فرمى بها

فرمى بها الي فاذا فيها مكتوب

انك في دار لها مدة يقبل فيها عمل العامل واما ترى الموت محيطا بها يقطع بها
تعجل الذنب لما تشتهي وتأمل التوبة في قابل والموت يأتي بعد ذلك على غفلة ما ذا بفعل
الحازم العاقل

فلما قراتها قال المأمون هذا من احكم شعر قرأته وقال ابو حازم
الاعرج نحن لا نريد ان نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت
وقال بعض البلغا الامهال رايد الاهمال والحالة الرابعة ان
يكون تقصيره فيها استثقالا للاستيفاء وزاهدا في التمام واقتصارا
على ما سنح وقلة التزايد فيما بقي فهذا على ثلثة اضرب احدها ان يكون
ما اخل به وقصر فيه غير قادح في فرض ولا مانع من اجر عبادة
كمن اقتصر في العبادة على فعل واجباتها ومفروضها واخل
بمسنوناتها وهيآتها فهذا مسيء فيما ترك اساءة من لا يستحق وعيدا
ولا يستوجب عقابا لان اداء الواجب يسقط عنه العقاب
واخلاله بالمسنون يمنع من اكمال الثواب وقد قال بعض الحكما
من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان وقال الشاعر

ويصون ثوبيه ويترك غير ذلك لا يصونه واحق ما صان الفتى دين امانته

والضرب الثاني ان يكون ما اخل به من مفروض عباداته
لكن لا يقدح ترك ما بقي فيما مضى كمن اكمل عبادة واخل
بغيرها فهذا اسوا حالا مما تقدمه لما استحقه من الوعيد
واستوجبه من العقاب والضرب الثالث ان يكون ما اخل
به من مفروض عباداته وهو قادح فيما عمل منها لا لعبادة
التي

التي يرتبط بعضها ببعض فيكون المقصر في بعضها تاركا جميعها
ولا ينسب له بما عمل لاخلاله بما بقي وهذه اسوا احوال المقصرين و
منه باحوال التاركين بل قد تكلف ما لا يسقط فرضا ولا يؤدي
حقا فقد ساوى التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليهم في تكلف
ما لا يفيد فصار من الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحيوة الدنيا
وفي الاخرة ثم لعله لا ينقض لسانه ولا يشعر خسرانه وقد خسر
الدنيا والاخرة وينقض اليسير من ماله ان وهى واختل واشتد
بعض اهل العلم

اني ان من الرجال بهيمة في صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة في ماله واذا يصاب بدينه لم يشعر

واما الحالة الثانية وهو ان يزيد فيما كلف فهذا على ثلثة اقسام
احدها ان يكون الزيادة رياء الناظرين وتصنعا للمخلوقين حتى
يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية
فيتبهرج بالصلحا ويلبس منهم وينذلس في الاخيار وهو ضدهم
وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم للمرائي بعمله مثلا فقال
المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور يريد بالمتشبع بما لا يملك
المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوبي زور وهو الذي يلبس
ثياب الصلحا ويتعمل افعال الصلحا فهو بريائه محروم الاجر
مذموم الذكر لانه لم يقصد به وجه الله تعالى فيؤجر عليه
ولا يخفى رياؤه على الناس فيحمد به وقد قال الله تعالى فمن كان
يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه

احدًا قال لجميع اهل التأويل معنى قوله ولا يشرك بعبادة ربه
احدًا اي لا يرائي بعمله احدًا فجعل الريا شركًا لانه جعل
ما يقصد به وجه الله تعالى مقصودًا به غير الله وقال
الحسن البصري في قوله تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها
قال لا تجهر بها ريا ولا تخافت بها حيا وكان سفين بن عيينة
يتأول قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاي
ذي القربى وينهى عن الفحشا والمنكر والبغي ان العدل استوا
السريرة والعلانية في العمل لله تعالى والاحسان ان تكون سريرته
احسن من علانيته والفحشا والمنكر ان تكون علانيته احسن
من سريرته وكان غيره العدل شهادة ان لا اله الا الله
والاحسان الصبر على نهيه وامره وطاعة الله في سره وجهره
وايتاي ذي القربى صلة الارحام وينهى عن الفحشا يعني
الزنا والمنكر من القبائح والبغي الكبر والظلم وليس يخرج
الريا بالاجمال من هذا التأويل ايضا لانه من جملة القبائح وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم اشد الناس عذابا يوم القيامة
من يرى ان فيه خيرًا ولا خير فيه وقد روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال اخوف ما اخاف على امتي الريا الظاهر والشهوة
الخفية وقال علي بن ابي طالب عليه السلام لا تعمل شيا من الخير ريا
ولا تتركه حيا وقال بعض الحكما كل حسنة لم يرد بها وجه
الله فعلتها في الريا وثمرتها سوء الجزا وقد يفضي الريا بصاحبه
الى استهزا الناس به كما حكي ان طاهر بن الحسين قال لابي

52

عبد الله المروزي مذ كم صرت الى العراق يا ابا عبد الله
فقال دخلت العراق منذ عشرين سنة وانا منذ ثلاثين
سنة صائم فقال يا ابا عبد الله سالناك عن مسالة واجبتنا
عن مسالتين وحكى الاصمعي ان اعرابيا صلى فاطال والى
جانبه اقوام فقالوا ما احسن صلاتك فقال وانا مع
ذلك صائم فقال اعرابي كان فيهم

صلى فاعجبني وصام فرابني نح القلوص من المصلى
الصائم

فانظر الى هذا الريا مع قبحه ما ادله على سخف عقل صاحبه
وربما ساعد الناس مع ظهور ريائه على الاستهزا بنفسه كالذي
حكي ان زاهدا نظر الى رجل في وجهه سجادة لسره واقفا
على باب السلطان فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك وانت
ها هنا فقال انه ضرب على غير السكة وهذا من اخونه
الخلاعة التي يدفع بها تحجيز المذمة وقد استحسن الناس
من الاشعث ابن قيس قوله فقد خففت صلاته مرة فقال له
بعض اهل المسجد خففت صلاتك جدا فقال انه لم يخالطها
ريا فخلص من تنقصهم وسلم من تعييبهم بنفي الريا عن نفسه ودفع
التصنع في صلاته وقد كان الانكار لولا ذلك متوجها
عليه واللوم لاحقا به ومر ابو امامة ببعض المساجد
فاذا رجل يصلي وهو يبكي فقال انت انت لو كان هذا
في بيتك فلم يزد لك منه حسنا الا انه اتهمه بالريا لعله كان

كان مرتابا منه فكيف بمن صار الرياء اغلب صفاته واشهر سماته
مع انه اثم من هبوب النسيم باحمل ولذلك قال عبد الله
بن المبارك افضل الزهد اخفا الزهد وربما احتشدوا الفضل
من نفسه ميلا الى المراياة به فبعثه الفضل على هتك ما نازعته
النفس من المراياة فكان ذلك ابلغ في فضله كالذي حكي
عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه احس على المنبر بريح خرجت
منه فقال ايها الناس اني قد مثلت بين ان اخافكم في الله
وبين ان اخاف الله فيكم فكان ان اخاف الله فيكم احب
الي الا واني قد فسوت وها انا انزل لاعيد الوضو فكان اذا نزل
ذلك منه زجرا لنفسه لتكف عن نزعها الى مثله وقال
عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لمحمد بن كعب القرظي عظني فقال
لا ارضى نفسي لك واعظا لاني احبس بين الفقير والغني فاميل
على الفقير واوسع على الغني ولان طاعة الله في العمل لوجهه
لا لغيره حكي ان قوما ارادوا سفرا فحادوا عن الطريق
وانتهوا الى راهب فقالوا قد ضللنا فكيف الطريق قال هاهنا
واوما الى السما والقسم الثاني ان يفعل الزيادة اقتدا بغيره
وهذا قد يثمره مجالسة الاخيار الافاضل ويحدثه مكاثرة الاتقيا
الاماثل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء على دين
خليله فلينظر احدكم من يخالل فاذا كاثرهم المجالس وطاولهم
المؤانس احب ان يقتدي بهم في افعالهم ويتاسى بهم في
اعمالهم ولا يرتضي لنفسه ان يقصر عنهم ولا ان يكون في الخير
دونهم

53

دونهم وربما دعته الحمية على الزيادة عليهم والمكاثرة
لهم فيصير واسيا لسعادته وباعثا على استزادته والعرب تقول
لولا اللوام لهلك الانام اي لولا ان الناس يرى بعضهم
بعضا فيقتدي بهم في الخير لهلكوا ولذلك قال بعض العلماء
من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار مودة الاشرار
وهذا صحيح لان للمصاحبة تاثيرا في اكتساب الاخلاق
فتصلح اخلاق المرء بمصاحبة اهل الصلاح وتفسد بمصاحبة اهل الفساد
ولذلك قال الشاعر
رايت صلاح المرء يصلح اهله ويعديهم عند الفساد اذا فسد
يعظم في الدنيا بفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت في الاهل والولد
وانشدني بعض اهل الادب لابي بكر الخوارزمي
لا تصحب الكسلان في حاجاته كم صالح بفساد اخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد
والقسم الثالث ان يفعل الزيادة ابتدا من نفسه التماسا لثوابها
ورغبة في الزلفة بها فهذا من نتاج النفس الزاكية ودواعي
الرغبة الوافية الدالين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك افضل
احوال العاملين واعلا منازل العابدين وقد قيل الناس
في الخير اربعة منهم من يفعله ابتدا ومنهم من يفعله اقتدا ومنهم
من يتركه استحسانا ومنهم من يتركه حرمانا فمن فعله ابتدا
فهو كريم ومن فعله اقتدا فهو حكيم ومن تركه استحسانا فهو
ردي ومن تركه حرمانا فهو شقي ثم لما يفعله من الزيادة

حالتان احدهما ان يكون مقتصدا فيها وقادرا على الدوام
عليها فهي افضل الحالتين واعلى المنزلتين عليها انقرض خيار
السلف وتبعهم فيها فضلاء الخلف وقد روت عايشه رضي الله
عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ايها الناس اكلفوا ما تطيقون
فان الله تعالى لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الاعمال
ما ديم عليه والعرب تقول القصد والدوام وانت السابق
الجواد ولان من كان صحيح الرغبه في ثواب الله تعالى لم تكن له
مسرة الا في طاعة الله تعالى قال عبد الله بن المبارك قلت لراهب
متى عيدكم قال كل يوم لا اعصي الله تعالى فيه فهو يوم عيد انظر
هذا القول منه وان لم يكن من مقاصد الله تعالى الطاعه
ما ابلغه في حب الطاعة واحثه على بذل الاستطاعه وخرج
بعض الزهاد في يوم عيد في هيئة رثة فقيل له تخرج في مثل
هذا اليوم في هذه الهيئة والناس يتزينون فقال ما تزين لله
تعالى بمثل الطاعة والحاله الثانيه ان يستكثر منها استكثار
من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على ايصالها فهذا انما كان بالمقصر
اشبه لان الاستكثار من الزيادة اما ان يمنع من اداء اللازم
فلا يكون الا تقصيرا لانه تطوع بزيادة احدثت نقصا وبنفل منع
فرضا واما ان يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة
الاستكثار من غير اخلال بلازم ولا تقصير في فرض فهي اذا
قصيرة المدى قليلة اللبث وتقليل العمل في طول الزمان افضل
عند الله من كثير العمل في قصير الزمان لان المستكثر من العمل

في الزمان

في الزمان القصير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صار
في زمان تركه لاهيا او ساهيا والمقلل في الزمان الطويل مستيقظ
الافكار مستديم التذكار وقد روى ابو صالح عن ابي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان للاسلام شرة وللشرة
فترة فمن سدد وقارب فارجوه ومن اشير اليه بالاصابع فلا تعدوه
فجعل الاسلام شرة وهي الايغال في الاستكثار وجعل للشرة فترة
وهي الاهمال بعد الاستكثار فلم يخل مما اثبت من ان تكون هذه
الزيادة تقصيرا او اخلالا ولا خير في واحد منهما واعلم
جعل الله العلم حاكما لك وعليك والحق قائدا لك واليك ان
الدنيا اذا وصلت فتبعات موبقة واذا فارقت ففجعات محرقة
وليس لوصلها دوام ولا من فراقها بد فروض نفسك على قطيعتها
لتسلم من تبعاتها وعلى فراقها لتامن فجعاتها فقد قيل المرء معرض
من عمره المنقوص مع ان العمر وان طال قصير والفراغ وان تم
يسير وانشدت لعلي بن جهم

اذا كملت للمرء ستون حجة ... فلم يحظ من ستين الا بسدسها
الم تر ان النصف بالليل حاصل ... ويذهب اوقات المقيل بخمسها
وتاخذ اوقات الهموم بحصة ... واوقات اوجاع تميت بمسها
فحاصل ما يبقى له سدس عمره ... اذا صدقته النفس عن علم نفسها

ورياضه نفسك لذلك تترتب على احوال ثلث وكل حال منها
تنشعب وهي لتسهيل ما يليها سبب والحالة الاولى ان تصرف
حب الدنيا عن قلبك فانها المبعد عن اخرتك ولا تجعل شغلك لها

فيمتلك حظك منها وتوقَّ الركوب لها ولا تكن آمناً لها وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من أُشرب قلبه حبَّ الدنيا
وركن اليها التاط منها بشغل لا يبلغ مداه وامل لا يبلغ منتهاه
وحرص لا يدرك مداه وقال عيسى بن مريم عليه السلم الدنيا لابليس
مزرعة واهلها له حراث وقال علي بن ابي طالب عليه السلم
مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها فاعرض عما اعجبك منها
لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما ايقنت من فراقها وكن
احذر ما تكون لها انس ما تكون لها فان صاحبها كلما اطمأن
منها الى سرور اشخصه عنها مكروه وان سكن الى ايناس ازاله
عنها ايحاش وقال بعض البلغا ان الدنيا لا تصفو لشارب
ولا تبقى لصاحب ولا تخلوا من فتنة ولا تخلى من محنة فاعرض
عنها قبل ان تعرض عنك واستبدل بها قبل ان تستبدل بك فان
نعيمها متنقل واحوالها متبدل ولذاتها تفنى وتبعاتها
تبقى وقال بعض الحكما انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق
ولا تتاملها تامل العاشق الموافق وقال بعض الشعرا

الا انما الدنيا كاحلام نايم وما خير عيش لا يكون بدايم
تامل اذا ما نلت بالامس لذة فافنيتها هل انت الا كحالم
فمن غافل عنه وليس بغافل ومن نايم عنه وليس بنايم

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من هوان الدنيا
على الله الا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها وروي
سفيان ان الخضر عليه السلم قال لموسى عليه السلم يا موسى اعرض

عن الدنيا وانبذها وراك فانها ليست لك بدار ولا فيها محل
قرار وانما جعلت الدنيا للعباد ليتزودوا منها ليوم المعاد
وقال عيسى بن مريم عليه السلم الدنيا قنطرة فاعبروها ولا
تعمروها وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه يصف الدنيا
اولها عنا واخرها فنا حلالها حساب وحرامها عقاب من صح
فيها امن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن
افتقر فيها حزن من ساعاها فاتته ومن قعد عنها اتته
ومن نظر اليها اعمته ومن نظر بها بصرته وقال بعض البلغا
ان الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب وتصل
وصال الملوك وتفارق فراق العجول فخيرها يسير
وعيشها قصير واقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها
فانيه وتبعاتها باقيه فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة
الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك
وقال وهب بن منبه مثل الدنيا والاخرة مثل ضرتين ان
ارضيت احداهما اسخطت الاخرى وقال عبد الحميد الدنيا
منازل فراحل ونازل وقال بعض الحكما الدنيا اما نقمة
نازله او نعمة زايله وقيل في منثور الحكم من الدنيا
على الدنيا دليل وقال بعض الشعرا

تسع من الايام ان كنت حازما فانك منها بين ناه وامر
اذا ابقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضاير
ولن تعدل الدنيا جناح بعوضة ولا وزن زف من جناح لطاير

كما رضي الدنيا ثوابا للمومن ولا رضي الدنيا جزا للكافر
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الدنيا يومان
يوم فرح ويوم هم وكلاهما زايل عنك فدعوا ما يزول
واتعبوا انفسكم في العمل بما لا يزول وقال عيسى بن مريم
عليه السلم لا تنازعوا اهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم
في دينكم فلا دنياهم اصبتم ولا على دينكم ابقيتم قال علي بن
ابي طالب رضي الله عنه لا تكن ممن يقول في الدنيا بقول
الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين ان اعطي منها لم يشبع
وان منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما اوتي ويبتغي الزيادة
فيما بقي ينهى ولا ينتهي ويامر بما لا ياتي يحب الصالحين
ولا يعمل بعملهم ويبغض المتكبرين وهو منهم وقال
الحسن البصري رضي الله عنه الدنيا كلها غم فما كان منها من
سرور فهو ربح وقال بعض البلغا ان الدنيا كثيرة
التغيير سريعة التنكير شديدة المكر دايمة الغدر
فاقطع اسباب الهوا عن قلبك واجعل ابعد املك بقية
يومك وكن كانك ترى ثواب عملك وقال بعض الحكما
الدنيا اما مصيبة موجعة واما منية منجعة وقال بعض الشعرا
خل دنيا فانها تعقب الخير شرها هي ام تعق من نسلها من يسرها
كل نفس فانها تبتغي ما يضرها والمنايا تسوقها والاماني تغرها
واذا استحليت الجنا اعقب الحلو مرها يستوي في ضريحه عبدها وحرها
فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتصمت منها بثلث
خصال

خصال احداهن ان تكفى اشفاق المحب وحذر الموافق فليس
لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة والثانية ان تايس من الاغترار
بملاهيها فتسلم من عاديه دواهيها فان الملاهي بها مغتر و
والمغتر وريها مدهو والثالث ان تستريح من تعب السعي
لها ووصب الكد فيها فان من احب شيا طلبه ومن طلب شيا
كد له والمكدود فيها شقي ان ظفر ومحروم ان خاب وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كل الناس
الناس غاد يا ان فغاد بنفسه فمعتقها وموبق نفسه فموبقها
وقال عيسى بن مريم عليه السلم انه قال تعملون للدنيا
وانتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للاخره وانتم
لا ترزقون فيها الا بعمل وقال بعض البلغا من كرا الدنيا
الا تبقى على حالة ولا تخلوا من استحالة تصلح جانبا بافساد
جانب وتسر صاحبا بمساة صاحب فالكون فيها خطر
والثقة بها غرر وقال بعض الحكما الدنيا مرتجعة الهبه
والدهر حسود لا يابى على شي الا غيره ولمن عاش حاجة
لا تنقضي ولما بلغ مروان من الدنيا افضل ما سمت اليه نفسه
نبذها وقال هذا سرور لولا انه غرور ونعيم لولا انه
عديم وملك لولا انه هلك وغنا لولا انه فنا وجسيم
لولا انه ذميم ومحمود لولا انه مفقود وغنى لولا انه
منى وارتفاع لولا انه اتضاع وعلا لولا انه بلا وحسن
لولا انه حزن وهو يوم لو وثق له بغد وقال بعض الحكما

قد ملك الدنيا غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب
فيها استبقت ولا الزاهد فيها افلت وقال ابو العتاهيه

هي الدار دار الاذى والقذى ودار الفناء ودار الغير
فلو نلتها بحذافيرها لمت ولم تقض منها الوطر
ايا من يؤمل طول الخلود وطول الخلود عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب فلا خير في العيش بعد الكبر

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اللهم اني اعوذ بك
من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع
هل يتوقع احدكم الا غنى مطغيا او فقرا منسيا او مرضا
مفسدا او هرما مفندا او الدجال فهو شر غايب ينتظر
او الساعة فالساعة ادهى وامر حكي ان الله تعالى
اوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام ان هب لي من قلبك الخشوع
ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع فاني قريب وقال
عيسى بن مريم عليه السلام اوحى الله تعالى الى الدنيا من خدمني
فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه وقال بعض البلغاء
زد من طول املك في قصر عملك فان الدنيا ظل الغمام
وحلم النيام فمن عرفها ثم طلبها فقد اخطى الطريق وحرم
التوفيق وقال بعض الحكما لا يومنك اقبال الدنيا
عليك من ادبارها عنك ولا دولة لك من ادالة منك
وقال اخر ما مضى من الدنيا كما لم يكن وما بقي منها
كما قد مضى وقيل لزاهد قد خلعت الدنيا فكيف سخت نفسك
عنها

عنها فقال ايقنت اني اخرج منها كارها فرايت ان ادعها
طايعا وقيل لحرقة بنت النعمان ما لك تبكي فقالت رايت
لاهلي غضارة ولن تمتلي دار فرحا الا امتلات ترحا وقال
ابن السماك من جرعته الدنيا حلاوتها بميله اليها جرعته
الاخرة مرارتها لتجافيه عنها وقال صاحب كليلة طالب
الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا وكان
عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الابيات

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والاسى لك لازم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى كما سر باللذات في النوم حالم
وتشغل فيما سوف تكره غبه كذلك في الدنيا تعيش البهايم

وسمع رجلا يقول لصاحبه لا اراك الله مكروها فقال
كانك دعوت على صاحبك بالموت ان صاحب الدنيا
فلا بد من ان يرى مكروها وقال ابو العتاهيه
ان الزمان وان لان لاهله لمخاشن بخطوبه المتحركات
ثم الحالة الثانيه من احوال دنياك لها ان تصدق نفسك
فيما منحك من رغايبها وانالك من غرايبها فتعلم ان العطية فيها
مرتجعه والمنحه فيها مسترده بعد ان يبقى عليك ما احتقبت
من اوزار وصولها اليك وخسران خروجها عنك فقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تزول قدما ابن ادم
حتى يسال عن اربع شبابه فيما ابلاه وعمره فيما افناه وماله من اين
كسبه وفيم انفقه وروي عن عيسى بن مريم عليه السلام انه قال

في المال ثلث خصال قالوا وما هن يا روح الله قال كسبه
من غير حله قالوا فان كسبه من حله قال يضعه في غير حقه
قالوا فان وضعه في حقه قال يشغله عن عبادة ربه ودخل
ابو حازم على بشر بن مروان فقال له يا ابا حازم ما المخرج
مما نحن فيه قال تنظر ما عندك فلا تضعه الا في حقه وما ليس عندك
فلا تاخذه الا بحقه قال ومن يطيق هذا يا ابا حازم قال فمن
اجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس اجمعين وعيرت اليهود
عيسى بن مريم عليه السلم بالفقر فقال من الغنى اتيتم ودخل قوم
منزل عابد فلم يجدوا شيا يقعدون عليه فقال لهم لو كانت
دار مقام لاتخذنا لها اثاثا وقيل لبعض الزهاد الا توصي
قال وبما ذا اوصي والله ما لنا شي ولا لنا عند احد شي ولا
لاحد عندنا شي انظر الى هذه الراحة كيف نعجلها والى السلامة
كيف صار اليها وكذلك قيل الفقر ملك ليس فيه محاسبة
وقيل لعيسى بن مريم عليه السلم الا تتزوج فقال انما احب
التكثر في دار البقا وقيل لو دعوت الله ان يرزقك حمارا
فقال انا اكرم على الله ان يجعلني خادم حمار وقيل لابي
حازم ما مالك فقال شيان الرضى عن الله والغنى عن الناس
وقيل له انك لمسكين قال كيف اكون مسكينا ومولاي له ما في
السموات والارض وما بينهما وما تحت الثرى وقال بعض
الحكما رب مغبوط بنعمة هي داوه ومرحوم من سقم هو شفاوه
وقال بعض الادبا الناس اشتات ولكل جمع شتات وقال بعض

البلغا

البلغا الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح
يقينه زهد في الثراء ومن قوي دينه ايقن بالجزاء فلا تغرنك وقال بعض الشعراء
صحة نفسك وسلامة امسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة
رب مغرور بين يعاش به عدمته كف مفترسه ومآل الدهر مأمنه او الاشامن عرسه
فاذا رحمت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها احد خلال
احداهن نصح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها وقد اعتمدت عليك
فان غاش نفسه مغبون والمنحرف عنها مافون والثانية الزهد
فيما ليس لك لتكفى تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه والثالث انتهاز
الفرصة فيما لك ان تضعه في حقه وان توتيه لمستحقه ليكون
ذلك ذخرا ولا يكون عليك وزرا فقد روي ان رجلا سال رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال يا رسول الله اني اكره الموت قال الك مال
قال نعم قال قدم مالك فان قلب كل امري عند ماله وقالت
عايشة رضي الله عنها ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقالت يا رسول الله
ما بقي الا كتفها فقال كلها بقي الا كتفها وحكي ان عبد الله بن عتبة
بن عبد الله بن مسعود باع دارا بثمانين الف درهم فقيل له لو اتخذت
لولدك ذخرا فقال انا اجعل هذا المال ذخرا لي عند الله
واجعل الله ذخرا لولدي وتصدق بها وعوتب سهل بن عبد الله
المروزي في كثرة الصدقة فقال لو ان رجلا اراد ان ينتقل من
دار الى دار هل كان يبقي في الاولى شيا وقال سليمان بن عبد
الملك لابي حازم ما بالنا نكره الموت فقال لانكم اخربتم اخرتكم
وعمرتم دنياكم فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب وقيل

لعبد الله بن عمر ترك زيد بن خارجة مايه الف درهم فقال عبد الله
بن عمر لكنها لا تتركه وقال الحسن البصري ما انعم الله على عبد
نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان عليه السلم فان الله تعالى قال
هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب وقال ابو حازم ان
عوفينا من شر ما اعطينا لم يضرنا فقد ما زوي عنا وقال بعض
السلف قدموا كلا ليكون لكم ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم
وقال ابراهيم نعم القوم السوال يدقون ابوابكم يقولون
توجهوا الى الاخرة شيا وقال سعيد بن المسيب رضي الله عنه
مر بي صلة بن اشيم فما تمالكت ان نهضت اليه فقلت يا ابا الصهبا
ادع لي فقال رغبك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفنى ووهب
لك اليقين الذي لا تسكن النفوس الا اليه ولا يعول في الدين
الا عليه ولما ثقل عبد الملك بن مروان راى غسالا يلوي
بيده ثوبا فقال وددت اني كنت غسالا لا اعيش الا بما
اكتسبه يوما فيوما فبلغ ذلك ابا حازم فقال الحمد لله الذي
جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى ما هم فيه وورد
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول ابن ادم مالي مالي
ما لك من مالك الا ما اكلت فافنيت او لبست فابليت واعطيت
فامضيت وقال خالد بن صفوان بت ليلتي اتمنى وكسبت البحر
الاخضر بالذهب الاحمر فاذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان
وكوزان وطمران قال مورق العجلي يا ابن ادم في كل يوم
تؤتى رزقك وانت تحزن وينقص من عمرك وانت لا تحزن
نظر

تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك وقال ابو حازم انما بيني
وبين الملوك يوم واحد اما امس فلا يجدون لذته وانا وهم
في غد على وجل وانما هو اليوم فما عسى ان يكون وقال بعض
السلف تعزّ عن الشي اذا منعته لقلة ما يصحبك اذا اعطيته
وقال بعض الحكما من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من
الاخرة وقال اخر ترك التلبس بالدنيا قبل التشبث بها
اهون من رفضها بعد ملابستها وقال اخر ليكن طلبك
للدنيا اضطرارا وفكرتك في الدنيا اعتبارا وسعيك لمعادك
ابتدارا وقال اخر الزاهد من لا يطلب المفقود حتى يفقد
الموجود وقال اخر من امن بالاخرة لم يحرص على الدنيا
ومن ايقن بالمجازاة لم يوثر على الحسنى وقال اخر من حاسب نفسه
ربح ومن غفل عنها خسر وقال ابو العتاهيه
ارى الدنيا لمن هي في يديه عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شي فدعه وخذ ما انت محتاج اليه
وحكى الاصمعي قال دخلت على الرشيد يوما وهو ينظر في كتاب
ودموعه تسيل على خده فلما بصر بي قال ارايت ما كان مني قلت
نعم يا امير المومنين قال اما انه لو كان من امر الدنيا ما رايت
هذا ثم رمى بالقرطاس فاذا فيه شعر لابي العتاهيه
هل انت معتبر بمن خربت منه غداة قضى دساكره
وبمن اذل الدهر مصرعه فتبرات منه عساكره

ومن خطت منه اسرته ومن خلت منه منابره

اين قال

فلما بدا الكاتبين الدنيا فان الموت اخره موخر

اين الملوك وابن غيرهم صاروا مصيرا انت صائره متقدم

يا موثر الدنيا للذته والمستعد لمن يفاجره

فقال الرشيد والله لكأني اخاطب بهذا الشعر دون الناس
فما لبث بعد ذلك الا يسيرا حتى مات ثم الحالة الثانية من
احوال الزيارة يصلها ان تكشف لنفسك حال اجلك وتصدقها
عن غرور املك حتى لا يطيل لك الامل اجلا قصيرا ولا تنسيك
موتا ولا نشورا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في

قال النبي عليه السلام في بعض خطبه

بعض خطبه ايها الناس ان الايام تطوى والاعمار تفنى
والاعمار تفنى والابدان في الثرى تبلى وان الليل والنهار
يتراكضان تراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد
وفي ذلك عباد الله ما الهى عن الشهوات ورغب في الباقيات
الصالحات وقال مسعر كم مستقبل يوما وليس يستكمله ومنتظر
غدا وليس من اجله ولو رايتم الاجل ومسيره لبغضتم الامل وغروره
وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم من اكيس الناس قال اكثرهم
ذكرا للموت واشدهم استعدادا له اولئك الاكياس ذهبوا بشرف
الدنيا وكرامة الاخرة وقال عيسى بن مريم عليه السلام كما تنامون
كذلك تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون وقال
علي بن ابي طالب عليه السلام ايها الناس اتقوا الله الذي ان قلتم سمع
وان اضمرتم علم وبادروا الموت الذي ان هربتم ادرككم وان اقمتم

اخذكم

اخذكم وقال العلا بن المسيب ليس قبل الموت شيء الا والموت
اشد منه وليس بعد الموت الا الموت ايسر منه وقال
بعض الحكما ان للباقي بالماضي معتبرا وللاول بالاخر مزدجرا
والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يغتر بالطمع وقال
بعض الصلحا ان بقاءك الى فناء وفناءك الى بقاء فخذ من فنائك
الذي لا يبقى لبقائك الذي لا يفنى وقال بعض العلماء واي
عيش يطيب وليس للموت طبيب وقال بعض البلغاء كل
امرئ يجري من عمره الى غاية ينتهي اليها مدة اجله وتنطوي عليها
صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بامسك
وكف عن سيئاتك وزد في حسناتك قبل ان تستوفي مدة
الاجل وتقصر من الزيادة في السعي والعمل وقيل في منثور
الحكم من لم يتعرض للنوائب تعرضت له وقال ابو العتاهية

لابي العتاهية في المقابر

ما للمقابر لا تجيب اذا دعاهن الكئيب

حفر مسقفة عليهن الجنادل والكثيب



فيهن ولدان واطفال وشبان وشيب

كم من حبيب لم تكن نفسي بفرقته تطيب

غادرته في بعضهن مجندلا وهو الحبيب

وسلوت عنه وانما عهدي برؤيته قريب

ووعظ النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فقال له اقلل من الدنيا
تعش حرا واقلل من الذنوب يهن عليك الموت وانظر حيث
تدع ولدك فان العرق دساس وقال الرشيد لابن السماك

عظني واوجز فقال اعلم انك اول خليفة تموت ه وعزى اعرابي
رجلا عن ابنه بن له صغير فقال له لعهد الله الذي نجاه مما
هاهنا من الكدر وخلصه مما بين يديه من الخطر وقال
بعض السلف من عمل للاخرة احرزها والدنيا ومن اثر الدنيا
حرمها والاخرة وقال بعض الصلحا استغنم تنفس الاجل
وامكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك في اجل
محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود وقال
بعض الحكماء الطبيب معذور اذا لم يدفع المحذور وقال
بعض البلغاء اعمل عمل المرتحل فان حادي الموت يحدوك ليوم
ليس يعدوك وروي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه
قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

غير جهول امله يموت من جا اجله
ومن دنا من حتفه لم تغن عنه حيله
وما بقا اخر قد غاب عنه اوله
والمر لا يصحبه في القبر الا عمله

وقال ابو العتاهية ه

لا تامن الموت في طرف ولا نفس وان تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بان سهام الليل قاصدة لكل مدرع منها ومترس
ترجو النجاة ولا تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري على اليبس

واذا رضيت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها بثلث
خصال احداهن ان تكفي تسويف امل يرديك وتسويل محال

يوبقك

محال يوبقك فان تسويف الامل غرار وتسويل المحال اضرار
والثانية ان تستيقظ لعمل اخرتك وتغتنم بقية اجلك بخير عملك
فان من قصر امله واستقل اجله حسن عمله والثالثة ان يهون
عليك نزول ما ليس عنه محيص ويسهل عليك حلول ما ليس الى دفعه
سبيل فان من تحقق امرا توطا لحلوله وهان عليه عند نزوله
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لابي ذر رضي الله عنه
نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم جنبك واتق الله ربك وقال
عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابي ذر رضي الله عنه عظني ارض بالقوت
وخف الفوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت وقال عمر
بن عبد العزيز رضي الله عنه ما رايت يقينا لا شك فيه اشبه بشك
لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلئن كنا مقرين انا لحمقى ولئن كنا جاحدين
انا لهلكى وقال الحسن البصري رضي الله عنه نهارك ضيفك فاحسن
اليه فانك ان احسنت اليه ارتحل بحمدك وان اسات اليه ارتحل بذمك
وكذلك ليلك وقال الجاحظ في كتاب البيان وجد مكتوبا في حجر
ابن ادم انك لو رايت يسير ما بقي من اجلك لزهدت في طول ما
ترجوا من املك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك
وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك واسلمك
اهلك وحشمك وتبرا منك القريب وانصرف عنك الحبيب ولما
حضر بشر بن منصور الموت فرح فقيل له اتفرح بالموت فقال
اتجعلون قدومي على خالق ارجوه كمقامي مع مخلوق اخافه وقيل
لابي بكر رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه لو ارسلت الى الطبيب

قال قد راني الطبيب قال فما قال لك قال قال لي اني فعال لما اريد
وقيل للربيع بن خثيم وقد اعتل ندعوا لك طبيبا فقال قد اردت
ذلك فذكرت عادا وثمودا واصحاب الرس وقرونا بين ذلك
كثيرا وعلمت ان كان فيهم الدا والمداوي وهلكوا جميعا
وسيل انو شروان متى تكون عيش الدنيا الذ فقال اذا كان الذي
ينبغي ان يعمله في حياته معمولا وقال بعض الحكما من ذكر المنية
نسي الامنية وقال بعض الادبا عن الموت سل فهو كريشه نبل
وقال بعض البلغا الامل حجاب الاجل وانشد بعض اهل الادب ما ذكر
انه لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه

فلوا انا اذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكنا اذا متنا بعثنا فتسل بعدنا عن كل شي

وقال بعض الشعرا

الا انما الدنيا مقيل لراكب قضى وطرا من منزل ثم هجرا
فراح ولا يدري على ما قدومه الا كلما قدمت يلقا موفرا

وروى سعيد بن مسعود ان ابا الدردا قال يا رسول الله
اوصني فقال النبي صلى الله عليه وسلم اكسب طيبا واعمل صالحا وسل الله
رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى وكتب الربيع بن خثيم
الى اخ له قدم جهازك وافرغ زادك وكن وصي نفسك والسلم
وقال بعض السلف اصاب الدنيا من حذرها واصابت الدنيا من امنها
ومر محمد بن واسع بقوم فقيل له ها ولا زهاد فقال وما
قدر الدنيا حتى يحمد من زهد فيها وقال بعض الحكما السعيد من اعتبر
بامسه واستظهر لنفسه والشقي من جمع لغيره وبخل على نفسه

وقال

وقال بعض البلغا لا تبت عن غير وصية وان كنت من جسمك في صحة
ومن عمرك في فسحة فان الدهر خاين وكل ما هو كاين كاين وقال بعض الشعرا

من كان يعلم ان الموت يدركه والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وانه بين جنات ستبهجه يوم القيامة او نار ستنضجه
فكل شي سوا التقوى به سمج وما اقام عليه منه اسمجه
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنا لم يدر ان المنايا سوف تزعجه

وروى جابر الجعفي عن محمد بن علي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في بعض خطبه ايها الناس ان لكم
نهايه فانتهوا الى نهايتكم وان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم
وان المومن بين مخافتين اجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه
واجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فليتزود العبد
لنفسه من نفسه ومن دنياه لاخرته ومن الحياة قبل الموت
وان الدنيا خلقت لكم وانتم خلقتم للاخره فوالذي نفس محمد
بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنه
او النار وقال الحسن البصري رضي الله عنه امس اجل واليوم
عمل وغدا امل فاخذ ابو العتاهية هذا المعنى فنظمه شعرا فقال

قنع النفس بالكفاف والا طلبت منك فوق ما يكفيها
ليس فيما مضى ولا في الذي لم ياتي من لذة لمستحليها
انما انت طول عمرك ما عمرت في الساعة التي انت فيها
علل النفس بالكفاف والا طلبت منك فوق ما يكفيها

وقيل لزاهد ما بالك تمشي على عصاة ولست بكبير ولا مريض

قال اعلم اني مسافر وانها دار قلعة وان العصا من آلة المسافر فاخذه

حملت العصا لا الضعف اوجب حملها علي ولا اني تحنيت من كبر

ولكنني الزمت نفسي حملها لاعلمها ان المقيم على سفر

وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعة فاجعلها طاعة وقال ذو القرنين

رتعنا في الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين واخرجنا منها كارهين

وقال عبد الحميد المرء اسير عمر يسير به وقيل في بعض المواعظ

عجب لمن خاف العقاب كيف لا يكف وعجب لمن يرجو الثواب كيف لا

يعمل وقال بعض الحكما المسيء ميت وان كان في دار الحياة والمحسن

حي وان كان في دار الاموات وكل الاثر في يومه او غده

وقال بعض السلف الله المستعان على السنة تصف وقلوب تعرف

واعمال تخالف وقال اخر ان الليل والنهار يعملان فيك

فاعمل فيهما وقال اخر اعملوا لاخرتكم في هذه الايام التي تسير كانها

تطير وقال اخر الموت قصر امل كل حي من دنياه وقال اخر وقال

اخر عباد الله الحذر الحذر والله لقد ستر حتى كانه غفر ولقد

امهل حتى كانه قد اهمل وقال اخر الايام صحايف اعمالكم فخلدوها

اجمل افعالكم وقيل في منثور الحكم اقبل نصح الشيب في اعجال

وقبل ما طلعت الشمس الا وعظت بامس وقال محمد بن بشير

مضى امسك الادنى شهيداً معدلاً ويومك هذا بالفعال شهيد

فان تك بالامس اقترفت اساءة فثن باحسان وانت حميد

ولا ترج فعل الخير منك الى غد لعل غداً ياتي وانت فقيد

وروى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال

ما رايت مثل الجنة نام طالبها وما رايت مثل النار نام هاربها

وقال عيسى بن مريم عليه السلام ان اوليا الله الذين لا خوف

عليهم ولا هم يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر

الناس الى ظاهرها والى اجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها

واماتوا منها ما خشوا ان يميت قلوبهم وتركوا منها ما علموا انه

سيتركهم وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس

طالبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها في نحره فانه ربما ادرك

الذي يطلب منها فهلك بما اصاب منها وطالب يطلب الاخرة فاذا

رايتم طالبا يطلب الاخرة فنافسوه ودخل ابو الدردا الشام

فقال يا اهل الشام اسمعوا قول اخ ناصح فاجتمعوا عليه

فقال ما لي اراكم تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تاكلون

ان الذين كانوا قبلكم بنوا مشيداً واملوا بعيداً وجمعوا كثيراً

فاصبح املهم غروراً وجمعهم بوراً ومساكنهم قبوراً وقال

ابو حازم ان الدنيا غرت اقواما فعملوا فيها بغير الحق ففاجاهم

الموت فخلفوا ما لهم لمن لا يحمدهم وصاروا الى من لا يعذرهم

وقد خلفنا بعدهم فينبغي لنا ان ننظر الذي كرهنا منهم فنجتنبه

والذي غبطناهم به فنستعمله ومر بعض الزهاد بباب جديد

وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد ومر بعض الزهاد برجل

قد اجتمع عليه الناس فقالوا هذا لص سرق منه رجل جبة

ومر به اخر فاعطاه جبة فقال الحمد لله ان سعيكم لشتى وقال

بعض الحكما ما انصف من نفسه من ايقن بالحشر والحساب وزهد في

الأجر والثواب ه وقال آخر بطول الامال تقسو القلوب
وباخلاص النية تقل الذنوب ه وقال آخر اياك والمنى
فانه من بضايع النوكى وتثبط عن الآخرة والأولى ه وقال آخر
قصر امالك فالعمر قصير واحسن سيرتك فالبر يسير وقال عبد الله بن المعتز
نسير الى الاجال في كل ساعة وايامنا تطوى وهن رواحل
ولم ار مثل الموت حقا كأنه اذا ما تخطته الاماني باطل
وما اقبح التفريط في زمن الصبى فكيف به والشيب في الراس نازل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى فعمرك ايام تعد قلائل
وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين ه
فاعمل على مهل فانك ميت واكدح لنفسك ايها الانسان
فكأن ما قد كان لم يك اذ مضى وكأن ما هو كائن قد كان
ونظر سليمن بن عبد الملك يوما في المراة فقال انا الملك الشاب فقالت جارية له
انت نعم المتاع لو كنت تبقى غير ان لا بقاء للانسان
انت خلو من العيوب ومما يكره الناس غير انك فان
ليس فيما بدا لنا منك عيب كان في الناس غير انك فان
وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن ابان عن انس قال خطبنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء فقال يا ايها الناس كان
الموت فيها على غيرنا كتب وكان الحق فيها على غيرنا وجب وكان
الذين نشيع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوئهم
اجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم قد نسينا كل
واعظة وامنا كل جائحة طوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره وانفق

من مال اكتسبه من غير معصية ورحم اهل الذل والمسكنة
وخالط اهل الفقه والحكمة طوبى لمن اذل نفسه وحسنت
خليقته وصلحت سريرته طوبى لمن عمل بعلمه وانفق من فضل
وامسك من قوله ووسعته السنة ولم يعدها الى البدعة ه وروى
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال زوروا القبور تذكروا
بها الاخرة وغسلوا الموتى فانها معالجة الاجساد الخاوية
وموعظة بليغة ه وحفر الربيع بن خثيم في داره قبرا فكان اذا وجد
من قلبه قسوة جاء فاضطجع في القبر فمكث فيه ما شاء الله ثم
يقول رب ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه
ثم يقول قد ارجعتك فجد ثم يمكث على ذلك ما شاء الله وقال
ابو عمرو الطفاوي كفتك القبور مواعظ الامم السالفة
وقيل لبعض الزهاد ما ابلغ العظات فقال النظر في محلة الاموات
فاخذه ابو العتاهية فقال
وعظتك اجداث صمت ونعتك ازمنة خفت
وتكلمت عن اوجه تبلى وعن صور سبت
وارتك قبرك في القبور وانت حي لم تمت
يا شامتا بمنيتي ان المنية لم تفت
فلربما انقلب الشمات فحل بالقوم الشمت
ووجد مكتوبا على قبر قصرنا من قصرنا فصرنا للاطين عبرة
وقال آخر من امل البقاء وقد راى مصارعنا فهو مغرور سليب
في منثور الحكم ما اكثر من يعرف الحق ولا يطيعه وقال

بعض الحكما من لم يمت لم يفت وقال بعض الصلحا للناس كل ميت عظه بحاله وعبرة بماله وقال بعض العلما من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول احد وقال بعض البلغاء ما انقصت ساعة من امسك الا ببضعه من نفسك فاخذه ابو العتاهيه فقال

ان مع الدهر فاعلم غدا فانظر بما ينقضي مجي غده
ما ارتد طرف امرئ بلذته الا وشي يموت من جسده

ولما مات الاسكندر قال بعض الحكما ان الملك امس انطق منه اليوم وهو اليوم اوعظ منه امس فاخذ هذا المعنى ابو العتاهية فقال

كفى حزنا بدفنك ثم اني نفضت تراب قبرك عن يديا
وكانت في حياتك لي عظات وانت اليوم اوعظ منك حيا

وقال بعض الحكما لو كان للخطايا ريح لافتضح الناس ولم يتجالسوا

احسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح وإذا المستور منا بين ثوبيه فضوح

وهذا كله ماخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تكاشفتم ما تدافنتم

وكتب رجل الى ابي العتاهيه

يا ابا اسحاق اني واثق منك بود فاعني بان ابت على غيي برشدك

فاخذ ابو العتاهيه فقال

اطع الله بجهدك راغبا او دون جهدك اعط مولاك الذي تطلب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكما من سره بنوه ساته نفسه فاخذ هذا المعنى ابو العتاهيه

ان ذي الحين كلما ادنته مسرع زادني فنا ابيه
ما بقاء الاب الملح عليه بذيب البلى شباب بنيه

وفي معناه ما روي ان زر بن حبيش عاش مايه وعشرين سنه فلما احتضر

الوفاه

ولما حضرته الوفاة قال

اذا الرجال ولدت اولادها واضطربت من كبر اعضادها
وجعلت اسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس

الموت باب وكل الناس داخله فليت شعري بعد الباب ما الدار

فاجابه صالح

الدار جنة عدن ان عملت بما يرضي الاله وان فرطت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما فانظر لنفسك ماذا انت مختار

باب في ادب الدنيا

اعلم ان الله تعالى بما نفذ قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره وفطرهم بتقديره وكان من لطيف ما دبر وبديع ما قدر ان خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنا منفردا وبالقدرة مختصا حتى يشعرنا بقدرته انه خالق ويعلمنا بغنايه انه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقصنا عجزا وحاجة ثم جعل الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه في الاستعانة صفة لازمة لطبيعته وخلقة قايمة في جوهره ولذلك قال سبحانه وتعالى وخلق الانسان ضعيفا يعني ضعيفا عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان كان اظهر عجزا لان الحاجة الى الشي افتقار اليه والمفتقر الى الشي عاجز به وقد قال بعض الحكما الاستغنا عن الشي خير من الاستغنا به وانما خص الله سبحانه وتعالى الانسان بكثرة الحوايج وظهور

العجز نعمة عليه ولطفا به ليكون ذل العجز ومهانة الحاجة يمنعان من طغيان الغنى وبغي القدرة لان الطغيان مركوز في طبعه اذا استغنى والبغي مستول عليه اذا قدر وقد انبا الله تعالى بذلك عنه فقال تعالى كلا ان الانسان ليطغى ان راه استغنى ثم ليكون اقوى الامور شاهدا على نقصه واوضحها دليلا على عجزه

وانشدني بعض اهل الادب لابن الرومي

اعيرتني بالنقص والنقص شامل ... ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل
واشهد اني ناقص غير انني ... اذا قيس بي قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجى ... ففي ايما هذين انت مفضل
ولو منح الله الكمال ابن ادم ... لخلده والله ما شا يفعل

ولما خلق الله تعالى الانسان ماس الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته اسبابا ولدفع عجزه حيلة دله عليها بالعقل وارشده اليها بالفطنة قال الله تعالى والذي قدر فهدى قال مجاهد قدر احوال خلقه فهدى الى سبيل الخير والشر وقال ابن مسعود في قوله وهديناه النجدين يعني الطريقين طريق الخير وطريق الشر ثم لما كان العقل دالا على اسباب ما تدعوا اليه حاجته جعل الله سبحانه الادراك والظفر موقوفا على ما قسمه وقدره كيلا يعتمدوا في الارزاق على عقولهم وفي العجز على فطنتهم لتدوم له الرهبة والرغبة ويظهر منه الغنى والقدرة وربما عزب بهذا المعنى عمن ساعدته بخالفه حتى صار سببا لضلاله كما قال بعض الشعراء

سبحان من انزل الايام منزلها ... وصير الناس مرفوضا ومرموقا
فعاقل فطن اعيت مذاهبه ... وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
ذاك الذي ترك الالباب حايرة ... وصير العاقل النحرير زنديقا

ولو حسن ظن العاقل حتى صح نظره لعلم من علل المصالح ما صار بها صديقا لا زنديقا لان من علل المصالح ما هو ظاهر ومنها ما هو غامض ومنها ما هو مغيب عنه استاثر بها وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حسن الظن بالله من عبادة الله ثم ان الله تعالى جعل اسباب حاجاته وحيل عجزه في الدنيا التي جعلها دار تكليف وعمل كما جعل الاخرة دار قرار وجزا فلزم لذلك ان يصرف الانسان الى دنياه حظا من عنايته لانه لا غنا به عن التزود منها لاخرته ولا له بد من سد الخلة فيها عند حاجته وليس في هذا القول نقض لما ذكرنا قبل من ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم وطالب فضولها مذموم والرغبة انما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول انما ينطلق على ما زاد على قدر الكفاية وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب قال اهل التاويل يعني فاذا فرغت من امر دنياك فانصب في عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن ندبه الى اخذ البلغة وعلى هذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك الدنيا للاخرة ولا الاخرة للدنيا ولكن خيركم من اخذ من هذه وهذه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال نعم المطية

الدنيا فان عملوها تبلغكم الآخرة وذم رجل الدنيا عند علي رضي الله عنه
فقال علي الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها
ودار غنى لمن تزود منها وحكى مقاتل ان ابرهيم الخليل عليه السلام
قال يا رب حتى متى اتردد في طلب الدنيا فقيل له امسك عن
هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا وقال سفين
الثوري مكتوب في التورية اذا كان في البيت بر فتعبد واذا لم
يكن فاطلب يا ابن ادم حرك يدك يسبب لك رزقك وقال
بعض الحكماء ليس من الرغبة اكتساب ما يصون العرض فيمتهن
وقال بعض الادباء ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن
وقال محمود الوراق

لا تتبع الدنيا وايامها ذمًّا وان دارت بك الدائرة
من شرف الدنيا ومن فضلها ان بها تستدرك الآخرة

فاذا كان لزم ما بيناه النظر في امور الدنيا فواجب سبر
احوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم
اسباب صلاحها وفسادها ومواد عمارتها وخرابها لتنتفي
عن اهلها شبه الحيرة وتنجلي لهم اسباب الخيرة فيقصدوا الامور
الامور من ابوابها ويعتمدوا صلاح قواعدها واسبابها
اعلم ان صلاح الدنيا معتبر من وجهين اولهما ما ينتظم به امور
جملتها والثاني ما يصلح به حال كل واحد من اهلها فهما
شيئان لا صلاح لاحدهما الا بصاحبه لان من صلحت حاله مع فساد
الدنيا واختلال امورها لن يعدم ان يتعدى اليه فسادها ويقدح

فيه اختلالها لان منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله مع
صلاح الدنيا وانتظام امورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها
اثرًا لان الانسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت
له ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه لان نفسه اخص وحاله
امس فصار نظره الى ما يخصه مصروفا وفكره على ما يمسه موقوفا
واعلم ان الدنيا لم تكن قط لجميع اهلها مسعدة ولا عن كافتهم معرضة
لان اعراضها عن جميعهم عطب واسعادها لكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف
والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون فاذا تساوى جميعهم لم يجد احدهم
الى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا فيذهبوا
حينئذ ضيعة ويهلكوا عجزا واذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين
بالمعاونة متواصلين بالحاجة لان ذا الحاجة وصول والمحتاج اليه
موصول وقد قال الله تعالى ولا يزالون مختلفين الا من رحم
ربك قال الحسن مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير ولذلك
خلقهم يعني للاختلاف بالغنى والفقر وقال الله تعالى والله فضل
بعضكم على بعض في الرزق غير ان الدنيا اذا صلحت كان اسعادها موفورا
واعراضها ميسورا لانها اذا منحت هنت واودعت واذا امرت رفقت
وابقت واذا فسدت الدنيا كان اسعادها مكرا واعراضها عذرا لانها اذا
منحت كدرت واتعبت واذا استردت استاصلت واجحفت ومع هذا
فصلاح الدنيا مصلح لسرائر اهلها لوفور اماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها
مفسد لسرائر اهلها لقلة اماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك في
مشاهد الحال تجربة وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا فلا شي

النفع من صلاحها كالاشي اضر من فسادها لان ما به يقوى ديانات
الناس وتوفر اماناتهم فلا شي احق به نفعا كان ما به يضعف ديانا ثم
ويذهب اماناتهم فلا شي اجدر بضررا واشد. لابي بكر بن دريد
الناس مثل زمانهم قد الحذا على مثاله
ورجال دهرك مثل دهرك في تقلبه وحاله
وكذا اذا فسد الزمان جرى الفساد على رجاله
واذ قد بلغ بنا القول الى ذالك فسنبتدي بذكر ما يصلح به الدنيا ثم نتلوه ٥
بوصف ما يصلح به حال الانسان فيها اعلم ان ما به تصلح الدنيا حتى تصير احوالها
منتظمة وامورها ملتيمة ستة اشيا هي قواعدها وان تفرعت وهي دين
متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وامن عام وخصب دار وامل فسيح
فاما القاعدة الاولى وهي الدين المتبع فلانه يصرف النفوس عن
شهواتها ويعطف القلوب عن اراداتها حتى يصير قاهرا للسرائر
زاجرا للضماير رقيبا على النفوس في خلواتها نصوحا لها في ملماتها وهذه
امور لا يوصل بغير الدين اليها ولا يصلح الناس الا عليها وكان الدين
اقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها واجدى الامور نفعا
في انتظامها وسلامتها وكذالك لم يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم
من تكليف شرعي واعتقاد ديني ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم
الاراء ويستسلمون لامره فلا تفرق بهم الاهوا وانما اختلف العلماء في
العقل والشرع هل جاءا مجيئا واحدا او سبق العقل ثم تعقبه
الشرع فقالت طائفة جاء العقل والشرع مجيئا واحدا لم يسبق احدهما
صاحبه وقالت طائفة اخرى بل سبق العقل ثم تعقبه الشرع

لان بكمال العقل يستدل على صحة الشرع ٥ وقد قال الله تعالى
ايحسب الانسان ان يترك سدى وذالك لا يوجد منه الا عند كمال عقله
فتبت ان الدين من اقوى القواعد في صلاح الدنيا وهو الفرد الاوحد في
صلاح الاخرة وما كان به صلاح الدنيا والاخرة فحقيق بالعاقل
ان يكون به متمسكا وعليه حافظا وقد قال بعض الحكماء الادب
الاديب اديبان ادب شريعة وادب سياسة فادب الشريعة ما ادى
الفرض وادب السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع الى العدل الذي به
سلامة السلطان وعمارة البلدان لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن
خرب الارض فقد ظلم غيره وقال سعيد بن حميد ٥
ما صحة ابدا نافعة حتى يصح الدين والخلق ٥
واما القاعدة الثانية فهي السلطان القاهر تتالف برهبته الاهوا المختلفة
وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدي المتغالبة
وتنقمع من خوفه النفوس العادية لان في طباع الناس من حب المغالبة
على ما اثروه والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفوا عنه الا بمانع قوي ورادع ملي
وقد افصح المتنبي بذلك حيث يقول ٥
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من خلق النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم
وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلوا من احد اربعة اشيا اما عقل زاجر
او دين حاجز او سلطان رادع او عجز صاد واذا تاملتها لم تجد خامسا
يقترن بها ورهبة السلطان ابلغها لان العقل والدين ربما كانا مضعوفين
او بدواعي الهوى مغلوبين فيكون رهبة السلطان اشد زجرا واقوى

ردعا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال السلطان
ظل الله في الأرض يأوي اليه كل مظلوم وروي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال ان الله ليزع بالسلطان اكثر مما يزع بالقران وروي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان لله تعالى حراسا في السما وحراسا
في الارض فحراسه في السما الملايكة وحراسه في الارض الذين يقبضون
ارزاقهم يذبون عن الناس وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
الامام الجاير خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفي بعض الشر خيار وقال
عبد الله بن مسعود السلطان يفسد وما يصلح الله به اكثر فان عدل فله الاجر
وعليكم الشكر وان جار فعليه الوزر وعليكم الصبر وروى ابو هريرة
رضي الله عنه قال سبت العجم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم
فنهى عن ذلك وقال لا تسبوها فانها عمرت بلاد الله فعاش فيها عباد
الله وقال بعض البلغا السلطان في نفسه امام متبوع وفي سيرته
دين مشروع فان ظلم لم يعدل احد في حكم وان عدل لم يجسر احد على ظلم
وقال بعض الادبا ان اقرب الدعوات الى الاجابة دعوة السلطان
الصالح واولى الحسنات بالاجر والثواب امره ونهيه في وجوه المصالح
فهذه اثار السلطان في احوال الدنيا وما ينتظم به امورها ثم لما في السلطان
من حراسة الدين والدنيا والذب عنهما ودفع الاهوا منهما وحراسة التبديل
فيه وزجر من شذ عنه بارتداد او بغى فيه بعناد او سعى فيه بفساد وهذه
امور ان لم تنحسم عن الدين بسلطان قوي ورعاية وافية اسرع فيه تبديل
ذوي الاهوا وتحريف ذوي الارا فليس دين زال سلطانه الا بدلت
احكامه وطمست اعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر فيه
وهاية

وهاية اثر كما ان السلطان ان لم يكن على دين تجتمع به القلوب
حتى يرا اهله الطاعة فيه فرضا والتناصر عليه حتما لم يكن للسلطان
لبث ولا لايامه صفو وكان سلطان قهر ومفسد دهر ومن
هذين الوجهين وجب اقامة امام يكون سلطان الوقت وزعيم
الامة ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن
الدين واحكامه وقال عبد الله بن المعتز الملك بالدين يبقى والدين
بالملك يقوى واختلف الناس هل وجب ذلك بالعقل او بالشرع
فقالت طايفة وجب بالعقل لان معلوما من حال العقلا على اختلافهم
الفزع الى زعيم مندوب للنظر في مصالحهم وذهب اخرون
الى وجوبه بالشرع لان المقصود بالامام القيام بامور شرعية
كاقامة الحدود واستيفا الحقوق وقد كان يجوز الاستغنا عنها
بان لا يرد التعبد بها بان يجوز الاستغنا عن ايراد الابتلا او لي
وعلى هذا اختلفوا في وجوب بعثة الانبيا فمن قال بوجوب ذلك
بالعقل قال بوجوب بعثة الانبيا ومن قال بوجوب ذلك بالشرع
منع من وجوب بعثة الانبيا لانه لما كان المقصود ببعثتهم تعريف
المصالح الشرعية وكان يجوز من المكلفين الا يكون هذه الامور
مصلحة لهم لم يجب بعثة الانبيا اليهم فاما اقامة امامين او ثلثة في
عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز اجماعا فاما في بلدان شتى
وامصار متباعدة فقد ذهبت طايفة شاذة الى جواز ذلك لان
الامام مندوب الى المصالح واذا كان اثنين في بلدين او ناحيتين كان
كل واحد منهما اقوم بما في يديه واضبط لما يليه ولانه لما جاز

بعثة نبيين في عصر واحد ولم يؤد ذلك الى ابطال النبوة كانت
الامامة اولى ولا يؤدي ذلك الى ابطال الامامة وذهب
الجمهور الى ان اقامة امامين في عصر واحد لا يجوز شرعا
لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا بويع لاميرين
فاقتلوا احدهما وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان وليتم ابا بكر
تجدوه قويا في الله ضعيفا في بدنه وان وليتم عمر تجدوه قويا في الله
وفي بدنه وان وليتم عليا وجدتموه هاديا مهديا فبين بظاهر
هذا الكلام ان اقامة جميعهم في وقت واحد لا يصح ولو صح لا
شار اليه ونبه عليه والذي يلزم سلطان الامة من امورها
سبعة اشيا احدها حفظ الدين من تبديل فيه والحث على العمل
به من غير اهمال له والثاني حراسة البيضة والذب عن الامة
من عدو في الدين او باغي نفس او مال والثالث عمارة البلدان
باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها والرابع تقدير ما
يتولاه من الاموال بسنن الدين من غير تحريف في اخذها واعطائها
والخامس معاناة المظالم والاحكام بالتسوية بين اهلها
واعتماد النصفة في فصلها والسادس اقامة الحدود
على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها والسابع اختيار
خلفائه في الامور ان يكونوا من اهل الكفاية فيها والامانة عليها
واذا فعل من افضى اليه سلطان الامة ما ذكرنا من هذه الاشياء
السبعة كان مؤديا لحق الله فيهم ومستوجبا لطاعتهم ومناصحتهم
مستحقا لصدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها

وواحدها كان بها مواخذا وعليها معاقبا ثم هو من الرعية
على استبطان معصية ومقت يتربصون الفرص باظهارهما وتوقع
الدوائر باعلانهما وقد قال الله تعالى قل هو القادر على ان
يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعا
وفي قوله عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم تاويلان احدهما ان العذاب
الذي من فوقهم امراء السوء والذي من تحتهم عبيد السوء وهذا
قول ابن عباس رضي الله عنه والثاني ان العذاب الذي من فوقهم
الرجم ومن تحت ارجلهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير
وفي قوله او يلبسكم شيعا تاويلان احدهما انه الاهواء المختلفة
وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه والثاني الفتن والاختلاط
وهذا قول مجاهد رضي الله عنه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال ما من امير على عشيرة الا وهو يجي يوم القيامة مغلولة يده
الى عنقه حتى يكون عمله هو الذي يطلقه او يوبقه وروي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال خيار ائمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم
وشرار ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم
وهذا صحيح لانه اذا كان ذا خير احبهم واحبوه وان كان ذا
شر ابغضهم وابغضوه وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه
الى سعد بن ابي وقاص ان الله اذا احب عبدا حببه الى خلقه فاعرف
منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس واعلم ان ما لك عند الله مثل
ما لله عندك فكان هذا موضحا لمعنى ما ذكرنا واصل هذا ان خشية
الله تعالى تبعث على طاعته في خلقه وطاعته في خلقه تبعثهم على محبته

فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته وبغضتهم دليلا
على شره وقلة مراقبته وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض
خلفايه اوصيك ان تخشى الله في الناس ولا تخشى الناس في الله وقالت
عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لبعض جلسايه اني اخاف الله فيما تقلدت
فقال لست اخاف عليك ان تخاف الله انما اخاف عليك الا تخاف الله
وهذا اوضح لان من خاف الله مامون الخوف كالذي روي عن عمر
بن الخطاب رضي الله عنه انه قال لابي مريم السلولي وكان
الذي قتل اخاه زيد بن الخطاب والله اني لا احبك حتى تحب الارض
الدم قال فيمنعني ذلك حقا قال لا قال فلا ضير انما ياسى على
حب النساء وروي عبد الرحمن بن محمد قال اصدق طلحة بن
عبيد الله ام كلثوم بنت ابي بكر الصديق رضي الله عنه
مايه الف درهم وهو اول من اصدق هذا القدر من المال على
عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال ما هذا فقالوا اصداق ام كلثوم
بنت ابي بكر رضي الله عنه قال ادخلوه بيت المال فاخبر طلحة وقيل
له كلمه فقال ما انا بفاعل ان كان عمر يرى له فيه حقا لا يرده
كلامي وان كان لا يرى فيه حقا ليردنه قال فلما اصبح عمر
رضي الله عنه بالمال فدفع الى ام كلثوم وحكي ان الرشيد
حبس ابي العتاهية فكتب على حايط الحبس

اما والله ان الظلم لوم وما زال المسي هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم في المعاد اذا التقينا غدا عند المليك من الظلوم

حبس الرشيد رجلا ثم استحضره بعد مدة فقال كنت رايت نوحشك قال رفع القدر عند الله قال وكيف ذاك قال لاني ظلمت وصبرت وان الله مع الصابرين قال وما تحب ان احمل معك قال لست ارجو خيرا ممن لا يصلح لنفسه قال وكيف ذلك قال لانك اخترت لها اللعنة بظلمك والعقوبة من الله بجورك فان الله تعالى يقول الا لعنة الله على الظالمين فبكى الرشيد وامر باطلاقه واحسن اليه واستعمله

فاخبر

71

فاخبر الرشيد بذلك فبكا ودعا ابي العتاهية فاستحله ووهب
له الف دينار واطلقه واما القاعدة الثالثة فهي عدل شامل
يدعوا الى الالفة ويبعث على الطاعة وتعمر به الارض وتنمى به
الاموال ويكثر معه النسل ويامن به السلطان فقد قال الهرمزان
لعمر حين راه وقد نام متبذلا عدلت فامنت فنمت وليس شي اسرع
في خراب الارض ولا افسد في ضماير الخلق من الجور لانه ليس يقف
على حد ولا ينتهي الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى
يستكمل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بيس الزاد
الى المعاد العدوان على العباد وقال النبي صلى الله عليه وسلم ثلث
منجيات وثلث مهلكات فاما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا
وخشية الله تعالى في السر والعلانية والقصد في الغنا والفقر
واما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وحكي
ان الاسكندر قال لحكما الهند وقد راى قلة الشرايع
بها لم صارت سنن بلادكم قليلة قالوا لاعطاينا الحق من انفسنا
ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم ايما افضل العدل او الشجاعة
قالوا اذا استعمل العدل استغني عن الشجاعة وقال بعض الحكما
بالعدل والانصاف تكون مدة الايتلاف وقال بعض البلغا
ان العدل ميزان الله وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه
في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه واستعن على العدل بخلتين
قلة الطمع وكثرة الورع واذا كان العدل من احدى
قواعد الدنيا التي لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها

الا منعه وجب ان نبدا بعدل الانسان في نفسه ثم بعدله في غيره
فاما عدله في نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح
ثم بالوقوف في احوالها على اعدل الامرين من تجاوز او تقصير
فان التجاوز فيها جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو
لغيره اظلم ومن جار عليها فهو على غيره اجور وقد قال بعض الحكما
من توانا في نفسه ضاع واما عدله مع غيره فقد ينقسم حال الانسان
مع غيره على ثلثه اقسام فالقسم الاول عدل الانسان فيمن
دونه كالسلطان مع رعيته والرييس مع صحابته فعدله فيهم
يكون باربعة اشيا باتباع الميسور وحذف المعسور وترك التسلط
بالقوة وابتغا الحق في السيره فان اتباع الميسور ادوم
وحذف المعسور اسلم وترك التسلط اعطف على المحبة
وابتغا الحق ابعث على النصره وهذه امور ان لم تسلم للزعيم
المدبر كان الفساد بنظره اكثر والاختلال بتدبيره اظهر
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اشد الناس عذابا
يوم القيامة من اشركه الله تعالى في سلطانه فجار في حكمه
وقال بعض الحكما الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم
وقال بعض الادبا ليس للجاير جار ولا تعمر له دار وقال
بعض البلغا اقرب الاشيا صرعة الظلوم وانفذ السهام دعوة
المظلوم وقال بعض حكما العرب والعجم من ملك استفسد
رعيته وهو يعلم ان عزته بطاعتهم وقال اردشير بن بابك
اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعيه عن الطاعه
وعوتب

وعوتب انوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال هم المرضى
ونحن الاطبا فاذا لم نداويهم بالعفو فمن لهم والقسم الثاني
عدل الانسان مع من فوقه كالرعيه مع سلطانها والصحابة مع
رييسها فقد يكون بثلثه اشيا باخلاص الطاعة وصدق الولا (وبذل النصره)
فان اخلاص الطاعة اجمع للشمل وبذل النصرة ادفع للوهن وصدق
الولا انفى لسوء الظن وهذه امور ان لم تجتمع في المرءوس تسلط عليه
من كان يدفع عنه واضطر الى اتقا من كان يتقي عنه كما قال البحتري
متى احوجت ذا الكرم تخطى اليك ببعض افعال اللييم
وفي استمرار هذا اخلال نظام جامع وفساد صلاح شامل وقد قال
ابرويز اطع من فوقك يطعك من دونك وقال بعض الحكما الظلم
مسلبة النعم والبغي مجلبة النقم وقال بعض الحكما ان الله لا يرضى عن
خلقه الا بتادية حقه وحقه شكر النعمة ونصح الامة وحسن الصنيعة
ولزوم الشريعة والقسم الثالث عدل الانسان مع اكفايه
وقد يكون بثلثه اشيا بترك الاستطالة ومجانبة الادلال
وكف الاذى لان ترك الاستطالة آلف ومجانبة الادلال
اعطف وكف الاذى انصف وهذه امور ان لم تخلص في الاكفا
اسرع فيهم تقاطع الاعدا فافسدوا وافسدوا وقد روى عمر
بن عبد العزيز عن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم الا انبيكم بشرار الناس قالوا بلى يا رسول الله
قال من لا يرجى خيره ولا يومن شره ثم قال الا انبيكم بشر من ذلك
قالوا بلى يا رسول الله قال من يبغض الناس ويبغضونه وروي ان

عيسى بن مريم عليه السلم قام خطيبا في بني اسرايل فقال يا بني اسرايل
لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم
ولا تكافوا ظالما فيبطل فضلكم يا بني اسرايل الامور ثلثة امر تبين
رشده فاتبعوه وامر تبين غيه فاجتنبوه وامر اختلف فيه فردوه
الى الله وهذا الحديث جامع لاداب العدل في الاحوال كلها
وقال بعض الحكما اذا عقل لا يداوي الكل فليس بعاقل وقال الشاعر
ما دمت حيا فدار الناس كلهم فانما انت في دار المداراة

من [illegible] لم يدار [illegible] الناس

وقد تتعلق بهذه الطبقات امور خاصية يكون عدلهم فيها بالتوسط
في حالتي التقصير والسرف لان العدل ماخوذ من الاعتدال فما
جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل وقد قالت الحكما
الفضايل هيات متوسطة بين خلتين ناقصة وافعال الخير توسط
بين رذيلتين فالحكمة واسطة بين الشر والجهالة والشجاعة
واسطة بين التهور والجبن والعفة واسطة بين الشره وضعف
الشهوة والسكينة واسطة بين السخط وضعف الغضب والعزة
واسطة بين الحسد وسو العادة والظرف واسطة بين الخلاعة
والعدامة والتواضع واسطة بين الكبر ودناة النفس
والسخا واسطة بين التقتير والتبذير والحلم واسطة بين افراط
الغضب وعدمه والمودة واسطة بين الخلابة وحسن الخلق
والحيا واسطة بين الفحة والحصر والوقار واسطة بين الهزء والسخافة
واذا كان ما خرج من الاعتدال الى ما ليس باعتدال خروجا عن الحق
الى ما ليس بعدل كان ما خرج عن الاولى لما ليس باولى خروجا عن العدل

الى ما

الى ما ليس بعدل وقد قال بعض البلغا السلطان السو يخيف
البري ويطيع الدني والبلد السو يجمع السفل ويورث العلل
والولد السو يشين السلف ويهدم الشرف والجار السو
يفشي السر ويهتك الستر فجعل هذه الاشيا لخروجها عن الاولى
الى ما ليس باولى خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل ولست اجد
فسادا الا وسببه نتيجة الخروج فيه من حال العدل الى ما ليس
بعدل من حالتي الزيادة والنقصان فاذن لا شي انفع من العدل
كما انه لا شي اضر مما ليس بعدل واما القاعدة الرابعة
فهو امن عام تطمين اليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن اليه
البري ويانس به الضعيف فليس لخايف راحة ولا لحاذر طمانينة
وقد قال بعض الحكما الامن اهنا عيش والعدل اقوى جيش
ولان الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم
ويكفهم عن اسباب المواد التي بها قوام اودهم وانتظام جملتهم
ولان كان الامن من نتايج العدل والخوف من نتايج ما ليس بعدل
فقد يكون الجور تارة بمقاصد الادميين الخارجة عن العدل
وقد يكون تارة باسباب حادثة عن غير مقاصد الادميين فلا
يكون خارجة عن حال العدل فمن اجل ذلك لم يكن ما
سبق من حال العدل مقنعا عن ان يكون الامن في انتظام
الدنيا قاعدة كالعدل فاذا كان ذلك كذلك فالامن المطلق
ما عم والخوف قد يتنوع تارة ويعم ويتنوعه بان يكون تارة على
النفس وتارة على الاهل وتارة على المال وعمومه ان يستوعب

الي

جميع الاحوال ولكل واحد من انواعه حظ من الوهن ونصيب
من الحزن وقد تختلف باختلاف اسبابه وتتفاضل بتباين جهاته
ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فمن اجل ذلك
لم يجز ان يصف حال كل واحد من انواعه بمقدار من الوهن
ونصيب من الحزن لاسيما والخائف على الشي مختص الهم به
منصرف الفكر عن غيره فهو يظن ان لا خوف له الا اياه
ويغفل عن قدر النعمة بالامن فيما سواه فصار كالمريض الذي
هو بمرضه متشاغل وعما سواه غافل ولعل ما صرف عنه
اعظم مما بلي به وانما يوكل بالادنى وان جل ما يمضي حكي
ان رجلا قال لاعرابي حاصر ما اشد وجع الضرس فقال
الاعرابي كل دا اشد دا ولذلك من عمه الامن استولت عليه
العافية فهو لا يعرف قدر النعمة بامنه حتى يخاف كما لا يعرف
المعافى قدر النعمة بعافيته حتى يصاب وقال بعض الحكما
انما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها فاخذ ذلك ابو تمام الطائي فقال

والحادثات وان اصابك بؤسها فهو الذي انباك كيف نعيمها

فالاولى بالعاقل ان يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما
سوا ذلك من عافيته وامنه وما انصرف عنه وما هو اشد من مرضه
وخوفه ليستبدل بالشكوى شكرا وبالجزع صبرا فيكون مسرورا
فربما حكي ان يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه اي شي
كان خبرك بعدي قال لا تسلني عما فعله اخوتي بي سلني عما صنعه
بي ربي وقد قال الشاعر لا تنس في الصحة ايام السقم فان عقبى تارك الحزم ندم

وامّا

واما القاعدة الخامسة فهي خصب دار تتسع النفوس به في الاحوال ويشترك
فيه ذوو الاكثار والاقلال فيقل في الناس الحسد وينتفي عنهم
تباغض العدم وتتسع النفوس في التوسع وتكثر المواساة والتواصل
وذلك من اقوى الدواعي في صلاح الدنيا وانتظام احوالها ولان
الخصب يؤول الى الغنا والغنا يحدث الامانة والسخا وقد كتب عمر بن
الخطاب رضي الله عنه الى ابي موسى الاشعري لا تستقضين الا ذا
حسب ومال فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لا يرغب
في مال غيره وقال بعض السلف اني وجدت خير الدنيا والاخرة
في خصلتين وشر الدنيا والاخرة في خصلتين فخير الدنيا والاخرة
في التقى والغنا وشر الدنيا والاخرة في الفجور والفقر وقال بعض الشعرا

ولم ار بعد الدين خيرا من الغنى ولم ار بعد الكفر شرا من الفقر

وبحسب الغنا يكون اقلال البخيل وعطاؤه واكثار الجواد وسخاه كما قال دعبل

لان كنت لا تولي يدا دون امره فلست بمولي نائلا اخر الدهر

واي اناء لم يفض عند ملئه واي بخيل لم ينل ساعة الوفر

فاذا دام الخصب حدث من اسباب الصلاح ما وصفت كان الجدب
يحدث من اسباب الفساد ما ضادها وكما ان صلاح الخصب عام
كذلك فساد الجدب عام وما عم به الصلاح ان وجد وعم به الفساد
ان فقد فاحرى ان يكون من قواعد الصلاح ودواعي الاستقامة
والخصب يكون من وجهين خصب في المكاسب وخصب في المواد
فاما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتائج
الامن المقترن به واما خصب المواد فقد يتفرع عن اسباب الالهية

وهو من نتائج العدل المقترن بها واما القاعدة السادسة
فهو امل فسيح يبعث على اقتنا ما يقصر العمر عن استيعابه
ويبعث على اقتنا ما ليس يؤمن في دركه بحياة اربابه ولولا ان الثاني
يرتفق بما انشاه الاول حتى يصير به مستغنيا لافتقر اهل كل عصر
الى انشا ما يحتاجون اليه من منازل السكنى واراضي الحرث وفي
ذلك من الاعواز وتعذر الامكان ما لا خفا به فلذلك ما ارفق الله
خلقه باتساع الامال حتى عمروا الدنيا فعم صلاحها وصارت تنتقل
بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثاني ما ابقاه الاول من عمارتها
ويرم الثالث ما احدثه الثاني من شعثها ليكون احوالها على
الاعصار ملتئمة وامورها على ممر الدهور منتظمة ولو قصرت
الامال لما جاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة
وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لا يجد فيها بلغة ولا
يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعده اسوا حالا من ذلك حتى لا
ينمى لها نبت ولا يمكن فيها لبث وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال الامل رحمة من الله لامتي ولولا الامل ما غرس غارس شجرا
ولا ارضعت ام ولدا قال الشاعر

وللنفوس وان كانت على وجل من المنية امال تقويها
فالمرء يبسطها والدهر يقبضها والنفس تنشرها والموت يطويها

فاما حال الامل في احوال الاخرة فهو من اقوى الاسباب في
الغفلة عنها وقلة الاستعداد لها وقد افصح لبيد بن ربيعة مع اعرابيته
في الامرين فقال
واما سيء حال الامل

واكذب النفس اذا حدثتها ان صدق النفس يزري بالامل
غير ان لا تكذبنها في التقى واخزها بالبر لله الاجل

والفرق ما بين الامال والاماني ان الامال ما تقيدت باسباب والاماني
ما تجردت عنها فهذه القواعد الستة التي بها تصلح احوال الدنيا وتنتظم
جملتها فان كملت فيها كمل صلاحها وبعيد ان تكون امر الدنيا تاما كاملا وان
يكون صلاحها عاما شاملا لانها موضوعة للتغير والفنا ومنشاه على
التقلب والانقضا سمع بعض الحكما رجلا يقول قلب الله الدنيا فقال
اذا تستوي لانها مقلوبة وقال بعض الشعرا

ومن عادة الايام ان خطوبها اذا سر منها جانب سا جانب
وما تعرف الايام الا ذميمة ولا الدهر الا وهو للثار طالب

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها

فصل

فاما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة اشيا
هي قواعد امره ونظام حاله وهي نفس مطيعة الى رشدها منتهية
عن غيها والفة جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها
ومادة كافية تسكن نفسه اليها ويستقيم اوده بها فاما القاعدة الاولى
التي هي نفس مطيعة فلانها اذا اطاعته ملكها واذا عصته ملكته ولم
يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بان لا يملك غيرها احرى ومن عصته
نفسه كان بمعصية غيرها اولى وقد قال بعض الحكما لا ينبغي للعاقل
ان يطلب طاعة غيره وطاعة نفسه ممتنعة عليه وقد قال الشاعر

اتطمع ان يطيعك قلب سعدى وتزعم ان قلبك قد عصاكا

وطاعة نفسه تكون من وجهين احدهما النصح والثاني الانقياد فاما النصح

فهو ينظر الى الامور خفيا بفهمها فيرى الرشد رشدا او يستنجح منه ويرى
الغي غيا ويستقبحه وهذا يكون من صدق النفس اذا سلمت من دواعي
الهوى وكذلك قيل من لم يكن الصبر. واما الانقياد فهو ان تسرع الى
الرشد اذا امرها وتنتهي عن الغي اذا زجرها وهذا يكون من قبول
النفس اذا لقيت من منازعة الشهوات قال الله تعالى ويريد
الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما. والنفس اذا هي من تمام
طاعتها وكمال مصلحتها وقد اوردنا لها من هذا الكتاب بابا واقتصرنا
في هذا الموضع على ما اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب. واما القاعدة
الثانية التي هي الالفة الجامعة فلان الانسان مقصود بالاذية محسود بالنعمة
فاذا لم يكن الفا مالوفا تخطفته ايدي حاسديه وتحكمت فيه اهواء اعاديه
فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة واذا كان الفا مالوفا انتصر بالالفة على
اعاديه وامتنع بها من حساده فسلمت نعمته منهم وصفت مدته عنهم
وان كان صفو الزمان عسرا وسلمه خطرا وقد روى ابن جريج عن عطاء
عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المومن الف مالوف ولا
خير فيمن لا يالف ولا يولف وخير الناس انفعهم للناس وروى عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا
يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وان تعتصموا بحبله جميعا ولا
تفرقوا وان تناصحوا من ولاه الله امركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة
السوال واضاعة المال وكل هذا حث منه تعالى على الالفة
والعرب تقول من قل ذل وقال قيس بن عاصم
ان القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش ايد

عزت فلم تكسر وان هي بددت فالوهن والتكسير للمتبدد
واذا كانت الالفة بما اتت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضى الحال ذكر
اسبابها واسباب الالفة خمسة وهي الدين والنسب والمصاهرة
والمودة والبر. فاما الدين وهو الاول من اسباب الالفة فلانه يبعث
على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر وبمثل ذلك وصى رسول الله صلى الله عليه
وسلم اصحابه فروى سفيان عن الزهري عن انس قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله
اخوانا لا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلث وهذا وان كان اجتماعهم
في الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكر تراب الجاهلية واحن
الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب اشد الناس
تقاطعا وتعاديا واشرهم اختلافا وتمادنا حتى ان بني الاب الواحد
كانوا فرقا يتولون احزابا مختلفة فيتساوا امهم بالتحزب ولا افتراق
احقادا لا تهدا واحن البعدا وكانت الانصار اشدهم تقاطعا
وتعاديا وكان بين الاوس والخزرج من الاختلاف والتباين
اكثرهم من غيرهم الى ان اسلموا فذهبت احنهم وتقطعت عداوتهم وصاروا
بالاسلام اخوانا متواصلين وبالفة الدين اعوانا متناصرين قال الله
تعالى واذكروا اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا بالاسلام
وقال الله تعالى ان الذين امنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن
ودا يعني حبا على حسب التالف على الدين يكون العداوة فيه اذا
اختلف باهله فان الاختلاف قد يقطع في الدين من كان به برا وعليه
مشفقا هذا ابو عبيده بن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل

والاثر المشهور في الاسلام قتل اباه يوم بدر واتى براسه
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله ولرسوله حين بقي على
ضلاله وانهمك على طغيانه فلم يعطفه عليه رحم ولا كفه عنه اشفاق
وهو من ابر الابنا تغليبا للدين على النسب وطاعة لله تعالى على طاعة
الاب وفيه انزل الله تعالى لا تجد قوما يومنون بالله واليوم الاخر
يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا اباهم او ابناهم او اخوانهم
او عشيرتهم وقد يختلف اهل الدين على مذاهب شتى واراء مختلفه
فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما لا يحدث
من المختلفين في الاديان وعلة ذلك ان الدين والاجتماع على العقد
الواحد اقوى اسباب الالفة كان الاختلاف فيه اقوى اسباب
الفرقة واذا تكافى اهل الاديان المختلفه والمذاهب المتباينه
ولم يكن احد الفريقين اعلا يدا او اكثر عددا دامت العداوة
بينهم اقوى والاحن بينهم اعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف
تحاسد الاكفا وتنافس النظرا واما النسب وهو الثاني من
اسباب الالفة فلان تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان
على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة انفة من
استيلا الاباعد على الاقارب وتوقيا من تسلط الغربا الاجانب
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الرحم اذا
تماست تعاطفت ولذلك حفظت العرب انسابها لما امتنعت
من سلطان يقهرها ويكف الاذى عنها لتكون متضافرة على
من ناواها متناصرة على من شاقها وعاداها حتى بلغت بالالفة

الانساب

وتناصرها على القوي الابد وتحكمت به تحكم المتسلط المتشطط وقد اعذر
نبي الله لوط نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث اليه لو ان لي بكم
قوة او اوي الى ركن شديد يعني الى عشيرة مانعه فروى ابو سلمه عن ابي
هريره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله لوطا لقد كان
ياوي الى ركن شديد يعني الله تعالى قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم فما بعث الله من بعده نبيا الا في ثروة من قومه وقال وهب
لقد وجدت الرسل على لوط وقالوا ان ركنك لشديد وقد روي
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان لا يزال مفرجا حتى يضم الى القبيله
يكون فيها قال الرياشي المفرج الذي لا ينتمي الى قبيله لا يكون
فيها فكان ذلك الحث منه على الالفة وكف عن الفرقة وان قال
النبي صلى الله عليه وسلم من كثر سواد قوم فهو منهم فاذا كان النسب بهذه
المنزله من الالفه فقد تعترض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافيه
لها فاذا قد لزم ان نصف حال الانسان فيما يعرض لها من الاسباب
وحاله للانساب انها تنقسم ثلاثة اقسام قسم والدون وقسم مولودون
وقسم مناسبون ولكل قسم منهم منزله في البر والصله وعارض يطرا فيبعث
على العقوق والقطيعه فاما الوالدون فهم الاباء والامهات
والاجداد والجدات وهم موسومون مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما لازم بالطبع
والثاني حادث باكتساب فاما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفاق
وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال [illegible] وثمرة القلب الولد وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال الولد مبخله مجهله مجبنه محزنه فاخبر ان الحذر عليه يكسبه هذه

ف

الاوصاف وكان هذه الاخلاق وقد كره قوم طلب الولد
كراهة لهذه الحال التي لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعا
وحذرا منها حتى قيل ليحيى بن زكريا عليهما السلام قبل ما بال
نكره الولد فقال تعالى والولدان عاش كدني وان مات هدني
وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام الا تتزوج فقال انما تحب المرء في دار البقا
واما ما كان حادثا بالسبب فهي المحبة التي تنمى مع الاوقات
وتتغير مع تغير الحالات وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
الولد الوط يعني ان حبه يلصق بنياط القلب فان انفرق الولد عن
حب والده فليس ذلك لبغضه منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق
او تقصير بعد تناكد وله اشفاق الذي لا يزول عنه ولا ينفك منه
وقد قال محمد بن علي ان الله رضي للابا للابنا فحذرهم
فتنتهم ولم يوصهم بهم ولم يرض للابنا للابا فوصاهم بهم وان شر الابنا
من دعاه التقصير الى العقوق وشر الابا من دعاه البر الى الافراط
وللامهات الاشفاق ازيد لما باشرن من الولادة وعانين
من التربية فانهن ارق قلوبا والين نفوسا وبحسب ذلك وجب
ان يكون التعطف عليهن اوفر جزا لفعالهن وكفا كفهن وان كان
الله تعالى قد اشرك بينهما في البر وجمع بينهما في الوصية فقال
تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا وقد روي ان رجلا اتى النبي
صلى الله عليه وسلم فقال ان لي اما انا مطيعها اقعدها على ظهري
ولا اصرف عنها وجهي وارد اليها كسبي فهل جزيتها فقال لا ولا
بزفرة واحدة قال ولم قال لانها كانت تخدمك وهي تحب حياتك

وانت تخدمها وتحب موتها قال الحسن البصري حق الوالد اعظم
وبر الوالدة الزم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
انهاكم عن عقوق الامهات ووأد البنات ومنع وهات وروى
خالد بن معدان عن المقدام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ان الله تعالى يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بالاقرب فالاقرب
واما المولودون فهم الاولاد واولاد الاولاد والعرب تسمي
ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما
لازم والاخر متنقل فاما اللازم فهو الانفة في الابا مع
تهضم او خمول والانفة في الابنا في مقابله الاشفاق في الابا وقد لحظ
ابو تمام الطائي في شعره فقال

فاصبحت يلقاني الزمان من اجله باعظام مولود وانفاق والد

واما المتنقل فهو الادلال وهو اول حال الولد والادلال في الابنا
في مقابلة المحبة في الابا لان المحبة بالابا اخص والادلال بالابنا امس
وقد روي عن عمر انه قال قلت يا رسول الله ما بال الناس يعطون اولادنا ولا
يرقون علينا قال لانا ولدناهم ولم يلدونا ثم ان الادلال في الابنا
قد ينتقل مع الكبر الى احد الامرين اما الى البر والاعظام واما
الى الجفا والعقوق فان كان الولد رشيدا او كان الوالدين عطوفا
صار الادلال برا واعظاما وقد روى الزهري عن عامر بن شراحيل
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله ان حق الوالد على الولد
ان يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب فان
المتكلف ليس بالواصل ولكن الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها

وان كان الولد غاويا وكان الوالد جافيا صار الادلال قطيعة
وعقوقا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله امرا اعان
ولده على بره وبشر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمولود فقال ريحانة
اشمها ثم هو بعد قليل ولد بار او عدو ضار وقيل في منثور الحكم
العقوق ثكل من لم يثكل وقال بعض الحكما ابنك ريحانك سبعا
وخادمك سبعا ووزيرك سبعا ثم صديق او عدو واما المناسبون
فهم من عدا الآبا والابنا ممن يرجع بتعصيب او رحم والذي يختص
به الحمية الباعثة على النصرة وهي ادنى رتبة من الالفة لان الالفة
تمنع من التهضم والخمول معا والحمية تمنع من التهضم وليس لها في
كراهة الخمول نصيب الا ان يقترن بها ما يبعث على الالفة
وحمية المناسبين انما يدعوا الى النصرة على البعدا والاجانب
وهي معرضة للحسد الادنى والاقارب موكولة الى المنافسة
والتشاجب بالصاحب فان حرست بالتواصل والتلاطف فامكنت
اسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودة وذا دوام
اسباب الالفة وقد قيل لبعض قريش ايما احب اليك اخوك او
صديقك قال اخي اذا كان صديقا وقال مسلمة بن عبد الملك
العيش في ثلث سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الاهل
وقال بعض الحكما البعيد قريب بمودته والقريب بعيد بعداوته
وان اهملت الحال من المناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية
القرابة غلب عليها مقت الحسد او منازعة التنافس فصارت
المناسبة عداوة والقرابة تباعدا وقال الكندي في بعض
رسايله

رسايله الاب رب والولد كمد والاخ فخ والعم غم والخال
وبال والاقارب عقارب وقال عبد الله بن المعتز

لحومهم لحمي وهم ياكلونه ... وما داهيات المرء الا اقاربه

ومن اجل ذلك امر الله تعالى بصلة الارحام واثنى على واصليها
قال تعالى والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل الاية
قال المفسرون هي الرحم التي امر الله بوصلها ويخشون ربهم
في قطعها ويخافون سو الحساب في المعاقبة عليها وقد روى
عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال يقول الله تعالى انا الرحمن وهي الرحم اشتققت لها من
اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته وروي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال
محبة في الاهل منساة في الاجل وقال بعض الحكما بلوا ارحامكم
بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق وقال بعض البلغا صلوا
ارحامكم فانها لا تبلى عليها اصولكم وانها لا يهتصم عليها فروعكم
وقال بعض الادبا من لم يصلح لاهله لم يصلح لك ومن لم يذب
عنهم لم يذب عنك وقال بعض الفصحا من وصل رحمه وصله الله
ورحمه ومن اجار جاره اعانه الله واجاره وقال محمد بن عبد الله

وحسبك من ذل وسو صنيعة ... مناواة ذي القربى وان قيل قاطع
ولكن اواسيه وانسى ذنوبه ... لترجعه يوما الى الرواجع
ولا يستوي في الحكم عبدان واصل ... وعبد لارحام القرابة قاطع

واما المصاهرة وهو الثالث من اسباب الالفة فلانها استحداث

مواصلة وتمازج مناسبة صدر الى رغبة واختيار وانقطاع عن خيرة ثانيا
فاجتمع فيها اسباب الالفة ومواد المظاهرة قال الله تعالى
ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم
مودة ورحمة يعني بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة
وهما من اوكد اسباب الالفة وفيها تاويل اخر قاله الحسن
البصري ان المودة النكاح والرحمة الولد وقال تعالى
والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم
بنين وحفدة واختلف المفسرون في الحفدة فقال عبد الله بن
مسعود هم اختان الرجل على بناته وقال عبد الله بن عباس
هم ولد الرجل وولد ولده وحكي عنه انهم بنو امراة
الرجل من غيره وسموا حفدة لتحفدهم في الخدمة وسرعتهم
في العمل ومنه قولهم في القنوت واليك نسعى ونحفد اي
نسرع الى العمل بطاعتك ولم تزل العرب تجتذب البعداء
وتتالف الاعداء بالمصاهرة حتى يرجع النافر مؤانسا
ويصير العدو مواليا وقد يصير للصهر من الامنين الفة
من القبيلتين وموالاة بين العشيرتين حكي عن يزيد بن (خالد بن يزيد)
معاوية انه قال كان ابغض خلق الله الي آل الزبير (آل)
حتى تزوجت منهم رملة فصاروا احب خلق الله الي ويقول
احب بني العوام طرا لاجلها ومن اجلها احببت اخوالها كلبا
فان تسلمي نسلم وان تتنصري يخط رجال بين اعينهم صلبا
ولذلك قيل المرء على دين خدنه لما يستنزله الميل اليها
من المتابعة

من المتابعة وتجتذب الحب اليها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة
سبيلا ولا الى المنافرة والمشاققة طريقا واذا كانت المصاهرة
والنكاح بهذه المنزلة من الالفة فقد ينبغي بعقدها احد خمسة
اوجه وهي المال والجمال والدين والالفة والتعفف
وقد روى سعيد بن ابي سعيد عن ابيه عن ابي هريرة رضي الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تنكح المراة لاربع
لمالها وجمالها وحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت
يداك فان كان عقد النكاح لاجل المال وكان اقوى الدواعي
اليه والمال اذا هو المنكوح فان اقترن بذلك احد
الاسباب الباعثة الى الايتلاف جاز ان يثبت العقد وتدوم
الالفة وان تجرد عن غيره من الاسباب وعري مما سواه
من المواد فاخلق بالعقد ان ينحل والالفة ان تزول لا سيما
اذا غلب الطمع وقل الوفاء لان المال ان وصل اليه فقد انقضى
سبب الالفة به وقد قيل من ودك لشيء تولى مع انقضائه
وان اعوز الوصول اليه وتعذرت القدرة عليه اعقب
ذلك استهانة الاياس بعد شدة الامل فحدثت منه عداوة
وقد قيل من ودك طمعا فيك انقطع اذا ايس منك وقال
عبد الحميد من اعطاك لا مستقلا لك استقلك عند ولايتك وان كان
العقد رغبة في الجمال فذلك ادوم الفة من المال لان الجمال
صفة لازمة والمال صفة زائلة ولذلك قيل حسن الصورة
اول السعادة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال

اعظم النسا بركة احسنهن وجها واقلهن مهرا فان سلمت الحال
من الادلال المفضي الى الملل استدام الالفة واستحكمت
الوصلة وقد كانوا يكرهون الجماع البارع اما لما يحدث
عنه من شدة الادلال وقد قيل من سلطه الاذلال فقصه
الادلال واما لما يخاف عليه من محن الرغبة وبلوى المنافسة
وقد روي ان رجلا شاور حكيما في التزوج فقال افعل
واياك الجمال البارع فانه مرعى انيق فقال الرجل وكيف ذلك
فقال كما قال الاول

ولن يصادف مرعى ممرعا ابدا الا وجدت به اثار منتجع

واما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة وتوقاه الحازم
من عواقب الفتنة فقد قال بعض الحكما اياك ومخالطة
النسا فان لحظ المراة سهم ولفظها سم وراى بعض الحكما
صيادا يكلم امراة فقال يا صياد احذر ان تصطاد
وقال سليمان بن داود عليه السلام امش ورا الاسد والاسود
ولا تمش ورا المراة وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه امراة تقول

ان النسا رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهي شم الرياحين

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ان النسا شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة في الدين فهو اوثق العقود حالا
وادومها الفة واحمدها بداية وعاقبة لان طالب الدين
متبع له ومن اتبع الدين انقاد اليه فاستقامت حاله وامن زلله
ولذلك

تاسع

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فاظفر بذات الدين تربت
يداك وفيه تاويلان احدهما تربت يداك ان لم تظفر
بذات الدين والثاني انها كلمة تذكر للمبالغة لا يراد
بها سو كقولهم ما اشجعه قاتله الله وان كان العقد رغبة
في الالفة فهذا قد يكون على احد الوجهين اما ان يقصد
المكاثرة باجتماع الفريقين والمظافرة بتناصر الفئتين
واما ان يقصد تالف اعدا مستطيلين استكفافا لعاديتهم
وتسكينا لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان في الاماثل
واهل المنازل وداعي الوجه هو الرغبة وداعي الوجه
الثاني هو الرهبة وهما سببان في غير المناكح فان
استدام السبب دامت الالفة وان زال السبب بزوال
الرغبة والرهبة خيف زوال الالفة الا ان يضم اليها
احد الاسباب الباعثة عليها والمقوية لها وان كان العقد
رغبة في التعفف فهو الوجه الحقيقي المبتغى بعقد
النكاح وما سوا ذلك فاسباب متعلقة عليه او مضافة اليه
وروي انه لما نزل قوله تعالى يا ايها الناس اتقوا ربكم
الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها قال
النبي صلى الله عليه وسلم خلق الرجل من التراب فهمه في
التراب وخلقت المراة من الرجل فهمها في الرجل وروى
عطية بن بشر عن عكاف بن وداعة الهلالي ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال يا عكاف الك زوجة قال لا

قال اذن انت من اخوان الشياطين ان كنت من رهبان
النصارى فالحق بهم وان كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا
القول منه حاثا على التعفف عن الفساد وباعثا على المكاثرة بالاولاد
ولهذا المعنى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للقفال من
غزوهم اذا افضيتم الى نسائكم فالكيس الكيس يعني في طلب الولد
فلزم حينئذ في عقد التعفف حكم الاختيار فيه والتماس الادوم
من دواعيه وهي نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع لا
يمكن لاختلاف اسبابه وتغاير شروطه فاما الشروط المحصورة
فيه فثلاثة شروط احدها الدين المفضي الى الستر والعفاف
المودي الى القناعة والكفاف قال ابو هريرة رضي الله عنه
لا يفرك مومن مومنة ان كره منها خلقا رضي خلقا وخطب
رجل من عبد الله بن عباس يتيمة كانت عنده قال لا ارضاها لك
قال لم وفي دارك نشات قال انها تتشرف قال لا ابالي
قال الان لا ارضاها وفي معنى هذا قول بعض الحكما من رضي بصحبة
من لا خير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير والشرط الثاني العقل
الباعث على حسن التقدير الامر بصواب التدبير فقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان الوفي ما لو
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم بالودود الولود
ولا تنكحوا الحمقا فان صحبتها بلا وولدها ضياع والشرط الثالث
الاكفا الذين ينتفي بهم العار ويحصل بهم الاستكثار فقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تخيروا لنطفكم
ولا توضعوا

ولا توضعوا الا في الاكفا وقال اكثم بن صيفي لولده يا بني لا
يحملنكم جمال النسا عن صراحة النسب فان المناكح الكريمة مدرجة
للشرف وقال ابو الاسود الدولي لبنيه قد احسنت اليكم
صغارا وكبارا وقبل ان تولدوا قالوا وكيف احسنت الينا
قبل ان نولد قال اخترت لكم من الامهات من لا تسبون بها
واسلم الثاني
فاول احساني اليكم تخيري لماجدة الاعراق باد عفافها
وقد ينضم الى هذه الشروط من صفات الذات واحوال النفس
ما لم يلزم التحرز منه لبعد الخير عنه وقلة الرشد فيه فان كوامن
الاخلاق بادية في الصورة والاشكال كالذي روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لزيد بن حارثة اتزوجت يا زيد
قال لا قال تزوج تستعفف مع عفتك ولا تتزوج من النسا
خمسا قال وما هن يا رسول الله قال لا تتزوج شهبرة
ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هيذرة ولا لفوتا قال يا رسول
الله لا اعرف شيا مما قلت قال اما الشهبرة فالزرقا البذية
واما اللهبرة فالطويلة المهزولة واما النهبرة فالعجوز
المدبرة واما الهيذرة فالقصيرة الذميمة واما اللفوت
فذات الولد من غيرك وقال شيخ من بني سليم لابنه
يا بني اياك والرقوب الغضوب العطوب والرقوب التي
تراقبه ان يموت فتاخذ ماله واوصى بعض الاعراب ابنا له في
التزويج فقال اياك والحنانة والمنانة والانانة
فالحنانة التي تحن الى زوج كان لها والمنانة ان تمن على

زوجها بمالها والاناه التي تاتي منها كسلا وتمارضا
وقال اوس بن دلهم النسا اربع فمنهن معمع لها شيها اجمع
ومنهن تبع ترى ولا تنفع ومنهن صدع تفرق ولا تجمع
ومنهن غيث وقع ببلد فامرع وقال الشاعر

ارى صاحب النسوان يحسب انها سوا وبون بينهن بعيد
فمنهن جنات يفي ظلالها ومنهن نيران لهن وقود

ان النسا كشجر نبتن معا منهن مر وبعض المر ماكول
ان النسا ولو صورن من ذهب فيهن من هفوات الجهل تخييل
ان النسا متى ينهين عن خلق فانه واجب لابد مفعول
وما وعدنك من شر وفين به وما وعدنك من خير فممطول

فاما النوع الاخر فهو ما لا يمكن حصر شرطه لانه قد يختلف باختلاف الاحوال وينتقل بتنقل الاسباب والازمان فانه لا يستغني فيه عن موافقه النفس ومتابعه الشهوه ليكون ادوم للحال الالفه وامد لاسباب الوصله فان الراي المعلول لا يبقى على حاله والميل المدخول لا يدوم على دخله فلا بد ان ينتقل الى احدى حالين اما الى الزياده والكمال واما الى الانفصال وقد حكي ان رجلا قال لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه اني احبك واحب معاويه فقال علي عليه السلم اما الان فانت اعور فاما ان تبرا واما ان تعمى واذا كان ذلك كذلك فلا بد من كشف السبب الباعث على هذا النوع فانه لا يخلو من ثلاثة احوال

احدها

احدها ان يكون لطلب الولد والاحمد فيه ملتمس الحداثه والبكاره لانها احصن للولاده وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم بالابكار فانهن اعذب افواها وانتق ارحاما وارضى باليسير ومعنى قوله وانتق ارحاما اي اكثر اولادا وقال معاذ بن جبل عليكم بالابكار فانهن اكثر حبا واقل خبا وهذه الحاله هي اولى الاحوال الثلثه لان النكاح موضوع لها والشرع وارد بها فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سودا ولود خير من حسنا عاقر والعرب تقول من لا يلد فلا ولد وقد كانوا يختارون لمثل هذه الاحوال انكاح البعدا الاجانب ويرون ذلك انجب للولد وانها الخلقه ويجتنبون انكاح الاهل والاقارب ويرونه مضويا لخلق الولد بعيدا من نجابته وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اغتربوا لا تضووا وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال يا بني السايب قد اضويتم فانكحوا في الغرايب وقال الشاعر

تجاوزت بنت العم وهي حبيبه مخافه ان يضوى علي سليلي

وكان حكما المتقدمين يرون ان انجب الاولاد خلقا وخلقا من كانت سن امه ما بين العشرين والثلاثين وسن ابيه ما بين الثلاثين والخمسين والعرب تقول ان ولد الغيرى لا ينجب وان انجب النسا الفروك لان الرجل يغلبها على الشبه لزهدها في الرجال وقالوا ان الرجل اذا اكره المراه وهي مذعوره ثم اذكرت انجبت والحاله الثانيه ان يكون المقصود به القيام بما تتولاه النسا

من تدبير المنازل فهذا وان كان مختصا بمعاناة النسا فلست
اراه مخالفا لحال الزوجات لانه قد يجوز ان يعانيه غيرهن من النسا
ولذلك قيل المراة ريحانة وليست بقهرمانة وليس في هذا
القصد تاثير في دين ولا قدح في مروة والاحمد في مثل هذا
التماس ذوي الاسنان والحنكة ممن قد خبر تدبير المنازل
وعرف عادات الرجال فانهن اقوم بهذه الحال والحالة
الثالثة ان يكون المقصود به الاستمتاع وهي اذم الاحوال
الثلثة واوهنها للمروة لانه ينقاد فيه لاخلاق البهيمة
ويتابع شهواته الذميمة وقد قال الحارث بن النضر الاسدي
شر النكاح نكاح الغلمة الا ان يفعل ذلك لكسر الشهوة
وقهرها بالاعفاف لها عند الغلبة او تسكين النفس عند
المنازعة حتى لا تطمح له عين ولا تنازعه نفس الى فجور
فلا يلحقه في ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالحمد اجدر
وبالثنا احق ولو تنزه في مثل هذه الحال عن استبدال الحرائر
الى الاما كان اكمل لمروته وابلغ في صيانته وهذه حال يقف
على شهوات النفوس لا يمكن ان يرجح فيها اولى الامور ثم هي
اخطر الاحوال بالمنكوحة لان الشهوات غايات متناهية
يزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتصير الشهوة في الابتدا كراهة
في الانتها ولذلك كرهت العرب البنات ووادتهن اشفاقا
عليهن وحمية لهن من ان يبتذلهن اللئام بمثل هذه الحال
وكان من يحوب من قتل البنات لرقة ومحبة كان موتهن
احب اليه

احب اليه واثر عنده خطبا لي عقيل بن علفة ابنته الجربا فقال
اني وان سيق الي المهر الف وعبدان وذود عشر احب اصهاري الى القبر
وقال عبد الله بن طاهر
لكل ابي بنت يراعي شؤونها ثلاثة اصهار اذا حمد الصهر
فبعل يراعيها وخدر يجنها وقبر يواريها وخيرهما القبر

فصل

واما المواخاة بالمودة وهي الرابع من اسباب الالفة لانها تكسب
بصادق الميل اخلاصا ومصافاة وتحدث بخلوص المصافاة وفا
ومحاماة وهذا اعلى مراتب الالفة ولذلك اخا رسول الله
صلى الله عليه وسلم بين اصحابه ليزيد الفتهم ويقوي تضافرهم
وتناصرهم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
عليكم باخوان الصفا فانهم زينة في الرخا وعصمة في البلا
وروى ابو الزبير عن سهل بن سعد رضي الله عنه ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال المرء كثير باخيه ولا خير في صحبة
من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له وقال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه لقا الاخوان جلا الاحزان وقال خالد بن صفوان
ان اعجز الناس من قصر في طلب الاخوان واعجز منه من ضيع
من ظفر به منهم وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لابنه
الحسين يا بني الغريب من ليس له حبيب وقال ابن المعتز من اتخذ
اخوانا كانوا له اعوانا وقال بعض الادبا افضل الذخاير
اخ وفي وقال بعض البلغا صديق عضد وساعد وقال بعض الشعرا

هموم رجال في امور كبيرة وهمي من الدنيا صديق مساعد

يكون كروح بين جسمين قسمت فجسماهما جسمان والروح واحد

وقيل انما سمي الصديق صديقا لصدقه والعدو عدوا لعدوه عليك وقال ثعلب انما سمي الخليل خليلا لان محبته تخلل القلب فلا تدع فيه خللا الا ملاته وانشد قول بشار

قد تخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلا

والمواخاة قد تكون في الناس من وجهين احدهما مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار والثاني مكتسبة بالقصد والاختيار فاما المكتسبة بالاتفاق فهي اوكد حالا لانها تنعقد عن اسباب تقود اليها والمكتسبة بالقصد تعقد لها اسباب يقاد اليها وما كان جاريا بالطبع فهو الزم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدا بالوجه الاول المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثاني المكتسب بالقصد واما المكتسب بالاتفاق فله اسباب تبتدي منها ثم تنتقل في غاية احواله المحموده الى مراتب سبعه ربما استكملت وربما وقفت على بعضهن ولكل مرتبه في ذلك حكم خاص وسبب موجب قال الشاعر

ما هوى الا له سبب يبتدي منه وينشعب

فاول اسباب الاخا التجانس في حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها فان قوي التجانس قوي الائتلاف به وان ضعف كان ضعيفا به ما لم تحدث علة اخرى يقوى بها الائتلاف وانما كان ذلك كذلك لان الائتلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس

فاذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من وجه ومع انتفا التشاكل يعدم الائتلاف فثبت ان التجانس وان تنوع اصلا للاخاء وقاعدة للائتلاف وقد روى يحيى بن سعيد عن عمره عن عايشه رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الارواح جنود مجنده فما تعارف منها ايتلف وما تناكر منها اختلف وهذا واضح لان بالتجانس متعارفة وبفقده متناكرة وقد قيل في منثور الحكم الاضداد لا تتفق والاشكال لا تفترق وقال بعض الحكما بحسن تشاكل الاخوان يثبت التواصل وقال بعض الشعرا

فلا تحقرن نفسي وانت خليلها فكل امرئ يصبوا الى من يشاكله

وقال اخر

فقلت اخي قالوا اخ من قرابة فقلت لهم ان الشكول اقارب

نسيبي في رايي وعزمي وهمتي وان فرقتنا في الاصول المناسب

ثم لحدوث التجانس مواصله بين المتجانسين وهي الرتبه الثانيه من رتب الاخا وسبب المواصله بينهما وجود الاتفاق منهما فصارت المواصلة نتيجه التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لان عدم الاتفاق منفر وقد قال الشاعر

الناس ان وافقتهم عذبوا او لا فان جناهم مر

كم من رياض لا انيس بها تركت لان طريقها وعر

ثم تحدث عن المؤانسة رتبة ثالثة وهي المصافاة وسببها الانبساط ثم تحدث عن المصافاة رتبة خامسة وهي المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة هي ادنى الكمال في احوال

الاخا وما قبلها اسباب تقود اليها فان اقترن بها المعاملة فهي الصداقة ثم تحدث عن المودة رتبة سادسة وهي المحبة وسببها الاستحسان فان كان الاستحسان لفضائل النفس حدثت فيه رتبة سابعة وهي الاعظام وان كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت منه رتبة ثامنة وهي العشق وسببه الطمع وقد قال المامون

اول العشق مزاح وولع ثم يزداد اذا زاد الطمع
كل من يهوى وان غالت به رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة هي اخر الرتب المحدودة وليس لمن جاوزها رتبة مقدرة ولا حال محدودة لانها قد تزول الى ممازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضي الى مخالطة الارواح وان تفارقت اجسادها وهذه حال لا يمكن حصر غايتها ولا الوقوف عند نهايتها وقد قال الكندي الصديق انسان هو انت الا انه غيرك ومثل هذا القول يحكى عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه حين اقطع طلحة بن عبيد الله ارضا وكتب له بها كتابا واشهد فيه ناسا منهم عمر رضي الله عنه واتى طلحة بكتابه الى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا الى ابي بكر الصديق رضي الله عنه وقال والله ما ادري انت الخليفة ام عمر فقال بل عمر لكنه انا واما الالتئام بالقصد فلا بد لها من داع يدعو اليها وباعث يبعث عليها وذلك من وجهين رغبة وفاقة فاما الرغبة فهو ان
بظهر من الانسان

86

يظهر من الانسان فضائل تبعث على اخائه وتسوم بجميل يدعوا الى اصطفائه وهذه الحالة اقوى من التي بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها وانما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع لها فليس كل من اظهر الخير كان من اهله ولا كل من تخلق بالحسنى كان من طبعه والمتكلف للشي مناف له الا ان يدوم عليه مستحسنا له في العقل او متدينا به في الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لانه قد تقدم في قول الحكما ليس في الطبع ان يكون ما ليس في الطبع ثم اقول في المتغذي ان تكون اخلاق الفاضل كاملة بالطبع واما الاغلب ان يكون بعض فضايله بالطبع وبعضها بالتطبع الجاري بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به في العادة اغلب عليه مما كان مطبوعا عليه اذ خالف العادة ولذلك قيل العادة طبع وقال ابن الرومي

واعلم بان الناس من طينة يصدق في الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس اخلاقهم اذا لفاح الحما اللازب

واما الفاقة فهو ان يفتقر الانسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته الى اصطفا ما يانس بمواخاته ويثق بنصرته وموالاته وقد قالت الحكما من لم يرغب بثلث بلي بست

من لم يرغب في الاخوان بلي بالعداوة والخذلان
ومن لم يرغب في السلامة بلي بالشدائد والامتهان
ومن لم يرغب في المعروف بلي بالندامة والحرمان ولعمري

ان اخوان الصدق من انفس الذخاير وافضل العدد لانهم سهام النوب واوليا النوايب وقد قالت الحكما رب صديق اود من شقيق وقيل لمعويه اي الناس احب اليك قال صديق يحببني الي الناس وقال الشاعر

لمودة ممن تجد مخلصا خير من الرحم القريب الكاشح

وقال اخر

اخوك ذوا القربي مرارا وربما وفى لك عند العهد من لا تناسبه

فاذا عزم علي اصطفا الاخوان سبر احوالهم قبل اخايهم وكشف عن اخلاقهم قبل اصطفايهم لما تقدم من قول الحكما اشر الظن تخبر ولا يبعثه الوحده علي الاقدام قبل الخبره ولا حسن الظن علي الاغترار بالتصنع فان الملق مصايد العقول والنفاق تدليس الفطن وهما سجية المتصنع وليس في من جون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجي ولا صلاح يومل ولاجل ذلك قالت الحكما اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه لا من لسانه وقال خلد بن صفوان انما نفقت علي اخواني لاني لم استعمل معهم النفاق ولا قصر بهم عن الاستحقاق وقال حماد عجرد

كم من اخ لك لست تحمده ما دمت في دنياك في يسر
متصنع لك في مودته يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذو غير دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض باجمال مودة من يقلي المقل ويعشق المثري
وعليك من حالاه واحده في العسر اما كنت واليسر

على ان الـ

على ان الانسان موسوم بسيما من قارب ومنسوب اليه فاعل عليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من احب وقال علي رضي الله عنه الصاحب يتناسب وقال عبد الله بن مسعود ما شي ادل علي شي ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب وقال بعض الحكما اعرف اخاك باخيك قبلك وقال بعض الادبا يظن بالمرء ما يظن بقرينه وقال عدي بن زيد

عن المرء لا تسال وسل عن قرينه فان القرين بالمقارن يقتدي

فلزم من هذا الوجه ايضا ان يتحرز من دخلا السو ومجانب صحبة اهل الريب ليكون موفور العرض سليم العيب فلا يلام بلايمة غيره وهذا قبل التثبت والارتيا ومداومة الاختبار والابتلا مسفر بل معوز وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالما فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال

الم تر ان الما يخبث طعمه وان كان لون الما ابيض صافيا

ونظر بعض الحكما الي رجل سو حسن الوجه فقال اما البيت فحسن واما الساكن فردي فاخذ محمد هذا المعنى فقال

رب مثل اين الناس فيه منزل عامر وعقل خراب

وانشدني بعض اهل الادب

لا تركنن الى ذي منظر حسن فرب رايقة قد ساء مخبرها
ما كل اصفر دينار لصفرته صفر العقارب ارداها واخطرها

ثم قد تقدم من قول الحكما من لم يقدم الامتحان قبل

اصل هذا المثل ان ذا الرمة كان يشبب بمية ولم يرها فلما بلغه وقع قاراد ان ينظر الى وجهها فقالت منشدا جزاء الله البرقع خيرا من القيان بر اما تقيت بواري الملاح فلا يواريا وتخفي القباح فيزدهيها قد رفعت البرقع عن وجهها وكانت ذات جمال وحسن فلما راها فلما يقول على وجه مية مسحة من ملاحة وتحت الثياب الشين لو كان باديا فقامت عريانة فلما راى جسمها وقامت عريانة فقالت اتراك انت ما تقول الم تر ان الما البيت فقالت يسمع ذو ذوق المرى قبل ان يذوق

الثقة والثقة قبل الانس ائمر مودة ثم تدوم وقال
بعض البلغا مصارمة قبل اختبار افضل من مواخاة
على اغترار وقال بعض الادبا لا تثق بالصديق قبل
الخبرة ولا توقع بالعدو قبل القدرة وقال بعض الشعرا

لا تحمدن امرا من غير تجربة ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء ما لم تبله خطاء وذمك المرء بعد الحمد تكذيب

واذا قد لزم من هذين الوجهين سبر الاخوان قبل
اخائهم وخبرة اخلاقهم قبل اصطفائهم فالخصال
المعتبرة في اخائهم بعد المجانسة التي هي اصل الاتفاق
اربع خصال فالخصلة الاولى عقل موفور يهدي الى
مراشد الامور فان الحمق لا تثبت معه مودة ولا يدوم
لصاحبه استقامة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال الدالوم ومصاحبة الاحمق شوم وقال
بعض الحكما عداوة العاقل اقل ضررا من مودة الاحمق
لان الاحمق ربما ضر وهو يقدر ان ينفع والعاقل لا
يتجاوز الحد في مضرته فمضرته لها حد يقف عليه
العقل ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود
اقل ضررا من غير المحدود وقال المنصور للمسيب
بن زهير ما مادة العقل قال مجالسة العقلا وقال
بعض البلغا من الجهل صحبة ذوي الجهل ومن
المحال مجادلة ذوي المحال وقال بعض الادبا

من اشار عليك باصطناع جاهل او عاجز لم يخل ان يكون
صديقا جاهلا او عدوا عاقلا لانه يشير بما يضرك
ويحتال فيما ينفع منك وقال بعض الشعراء

اذا ما كنت متخذا خليلا فلا تثقن بكل اخي اخاء
فان خيرت بينهم فالصق باهل العقل منهم والحياء
فان العقل ليس له اذا ما تفاضلت الفضائل من كفاء

والخصلة الثانية الدين الواقف بصاحبه على الخيرات
فان تارك الدين عدو لنفسه وكيف يرجى منه مودة غيره
وقد قال بعض الحكما اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب
والراي والادب فانه رد لك عند حاجتك ويد عند
نائبتك وانس عند وحشتك وزين عند عافيتك
وقال حسان بن ثابت

اخلاء الرجال هم كثير ولكن في البلاء لهم قليل
فلا تغررك خلة من تؤاخي فما لك عند نائبة خليل
وكل اخ يقول انا وفي ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خل له حسب ودين فذاك لما يقول هو الفعول

وقال اخر

من لم يكن في الله خلته فخليله منه على خطر

والخصلة الثالثة ان يكون محمود الاخلاق مرضي الافعال
مؤثرا للخير امرا به كارها للشر ناهيا عنه وان
مودة الشرير تكسب الاعدا وتفسد الاخلاق

ولا خير في مودة تجلب عداوة وتورث مذمة فان المتبوع
شانه صاحبه وقد قال عبد الله بن المعتز اخوان السوء
كشجر النار يحرق بعضها بعضا وقال بعض الحكما
مخالطة الاشرار على خطر والصبر على صحبتهم كركوب
البحر الذي من سلم ببدنه من التلف فيه لم يسلم من الحذر
منه وقال بعض الادبا صحبة الاشرار تورث
سوء الظن بالاخيار وقال بعض البلغا ان من خير
الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار صحبة
الاشرار وقال بعض الشعرا

مجالسة السفيه سفاه راي ومن عقل مجالسة الحكيم
فانك والقرين معا سواء كما قد الاديم من الاديم

والخصلة الرابعة ان يكون من كل واحد منهما ميل
الى صاحبه ورغبة في مواخاته فان ذلك اوكد
لحال المواخاة وامد لاسباب المصافاة اذ ليس
كل مطلوب اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب
ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب الى زاهد فيه
كان فيه معنى طايبا كما قال البحتري

وطلبت منك مودة لم اعطها ان المعنى طالب لا يظفر

وقال العباس بن الاحنف

فان كان لا يدنيك الا شفاعة فلا خير في ود يكون بشافع
فاقسم ما تركي عتابك عن قلى ولكن لعلمي انه غير نافع

واني اذا الزم الصبر طايعا فلابد منه مكرها غير طايع

فاذا استكملت هذه الخصال في انسان وجب اخاوه وتعين
اصطفاوه وبحسب وفور هذه الخصال فيه يجب ان يكون الميل اليه
والثقة به وبحسب ما يرى من غلبة احدها عليه يجعله
مستعملا في الخلق الغالب عليه فان الاخوان على طبقات
مختلفة وانحا متشعبة ولكل واحد منهم حال يختص
بها في المشاركة وثلمة يسدها في الموازرة والمضافرة
وليس يتفق احوال جميعهم على حد واحد لان التباين في الناس
غالب والاختلاف فيهم في الشيم ظاهر وقد قال
بعض الحكما الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره
مختلف فاخذ هذا المعنى منصور بن اسمعيل الفقيه فقال

بنو ادم كالنبت ونبت الارض الوان
فمنه شجر الصندل والكافور والبان
ومنه شجر افضل ما يحمل قطران

ومن رام اخوانا يتفق احوال جميعهم رام امرا متعذرا بل
لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل في نظامه اذ ليس
الواحد من الاخوان يمكن الاستعانة به في كل حال
ولا المجبولون على الخلق الواحد يمكن ان يتصرفوا في
جميع الاعمال وانما بالاختلاف يكون الايتلاف
وقد قال بعض الحكما ليس بلبيب من لم يعاشر
بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدا وقال

المأمون الاخوان ثلث طبقات طبقة كالغذاء لا
يستغنى عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه احيانا
وطبقة كالداء لا يحتاج اليه ابدا ولعمري ان
الناس على ما وصفهم من الاخوان وليس من كان منهم
كالداء من الاخوان المعدودين بل هم من الاعداء
المحذورين وانما يداجون بالمودة استكفافا لشرهم
وحذرا من مكاشفتهم فدخلوا في عداد الاخوان
بالمظاهرة والمساترة في الاعداء عند المكاشفة
والمجاهرة وقد قال بعض الحكماء مثل العدو الضاحك
كالحنظلة الخضرة اوراقها القاتل مذاقها وقيل في
حكم الفرس لا تغترن بمقاربة العدو فانه كالماء
ان اطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفائها وقال
يزيد بن الحكم الثقفي

تكاشرني كرها كانك ناصح ... وعينك تبدي ان صدرك لي
دوي

لسانك معسول ونفسك علقم ... وشرك مبسوط وخيرك
ملتوي

فليت كفافا كان خيرك كله ... وشرك عني ما ارتوى الماء
مرتوي

فاذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان
هم الصنفان الاخران من كان منهم كالغذاء والدواء لان

الغذاء قوام النفس والدواء علاجها وصلاحها
وافضلهما من كان كالغذاء لان الحاجة اليه اعم
واذا تميز الاخوان وجب ان ينزل كل واحد منهم حيث
نزلت به احواله واستقرت خلاله وخصاله عليه
فمن قويت اسبابه قويت الثقة به وبحسب الثقة
به يكون الركون اليه والتعويل عليه قال الشاعر

مددت بالسبب الضعيف وانما ... نجح الامور بقوة الاسباب
فاليوم حاجتنا اليك وانما ... يدعى الطبيب لحدة الاوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس في اتخاذ الاخوان
فمنهم من يرى ان الاستكثار منهم اولى ليكونوا
اقوى منعة وايدا واوفر حسا وتوددا واكثر
تعاونا وتفقدا وقيل لبعض الحكماء ما الغنى
فقال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان
وقيل حلية المرء كثرة اخوانه ومنهم من يرى ان
الاقلال منهم اولى لانه اخف اثقالا وكلفا واقل
تنازعا وخلفا وقال الاسكندر المكثر من الاخوان
من غير اختبار كالمستوقر من الحجارة والمقل من
الاخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر وقال
عمرو بن العاص من كثر اخوانه كثر غرماؤه
وقال ابرهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليلها
متاع وكثيرها بوار ولقد احسن ابن الرومي في هذا

المعنى وبنه على العلة حيث يقول

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير ... يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات ... وتلقى الري في النطف العذاب

وقال بعض البلغاء ليكن غرضك في اتخاذ الاخلاء واصطفاء النصحاء تكثير العدة لا تكثير العدد وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل المراد خير من الف تكثر الاعداد واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة واسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضي من حال صاحبه قلة اخوانه لانه يروم مثله ويطلب شكله وامثاله من ذوي العقل والفضل اقل من امثاله من ذوي الحمق والنقص لان الخيار في كل جنس هو الاقل فلذلك ما قل وفور العقل والفضل وقد قال الله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون فقل لهذه العلة اخوان اهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوي النقص والجهل لكثرتهم وقد قال الشاعر

لكل امرئ شكل من الناس مثله ... فاكثرهم شكلا اقلهم عقلا
وكل اناس يألفون لشكلهم ... فاكثرهم عقلا اقلهم شكلا

وقال آخر

واسوا الايام

واسوا ايام الفتى يوم لا يرى ... له احد يزري عليه وينكر

ونظر ان فساد الوقت وتغير اهله يوجب شر من كان شره مقطوعا وان كان خيره ممنوعا كما قال المتنبي

انا لفي زمن ترك القبيح به ... من اكثر الناس احسان واجمال

واما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ومهين مستذل قد قطع عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن وحسبك مهانة برجل يستثقل عند اقلاله ويستقل عند استقلاله فليس لمثله في الاخاء حظ ولا في الوداد نصيب وهو ممن جعله المامون من ذوي الاخوان لا من ذوابهم ومن سهمهم لا من غنائهم وقد قال بعض الحكماء شر ما في الكريم ان يمنعك خيره وخير ما في اللئيم ان يكف عنك شره وقال ابن الرومي

عذرنا النخل في ابداء شوك ... يرد به الانامل عن جناه
فما للعوسج الملعون ابدى ... لنا شوكا بلا ثمر نراه

لا جنا العوسج [illegible] عصاه [illegible] موسى عليه السلام [illegible] عليه [illegible]

واما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع وقد حاز فضيلتي الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقيلا في نائبة ولا يقعد عن نهضة في معونة فهذا اشرف الاخوان نفسا واكرمهم طبعا فينبغي لمن اوجده الزمان مثله وقل ان يكون له مثل لانه البر الكريم والدر اليتيم ان يثني عليه خنصره ويعض عليه ناجذه ويكون به اشد ظنا منه بنفائس امواله وسني ذخائره لان نفع الاخوان عام ونفع الاموال خاص ومن كان اعم نفعا فهو بالادخار احق وقد قال الفرزدق

عصى اخوك فلا تلقى له خلفا والمال بعد ذهابه المال
وقال آخر
لكل شي عدمته عوض وما لفقد الصديق من عوض

ثم لا ينبغي ان يزهد فيه لخلق او خلقين كرههما منه اذا رضي سائر اخلاقه وحمد اكثر شيمه فان اليسير معفو والكمال معوز وقد قال الكندي كيف تريد من صديقك خلقا واحدا وهو ذو طبايع اربع مع ان نفس الانسان التي هي اخص النفوس به ومدبرة باختياره وارادته لا تعطيه قيادها في كل ما يريد ولا تجيبه الى طاعته في كل ما يحب فكيف بنفس غيره وحسبك ان يكون لك من اخيك اكثره وقد قال ابو الدرداء معاتبة الاخ خير من فقده ومن لك باخيك كله فاخذ الشعرا هذا المعنى فقال ابو العتاهية

اخي من لك من عيب الدنيا بكل اخيك من لك
وقال ابو تمام
فاستبق بعضك لا يملك كل من اعطيت كلك
ما غبن المغبون مثل عقله   من لك يوما باخيك كله

وقال بعض الحكما طلب الانصاف من قلة الانصاف
وقال بعض البلغا لا تزهدن في رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله وبطنت عقله عيب خفي يحيط به كثرة فضايله او ذنب صغير تستغفر له قوة وسايله فانك لن تجد ما بقيت مهذبا لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب واعتبر نفسك بعد ان لا تراها بعين الرضا ولا تجري فيها على حكم الهوى فان اعتبارك
فيهما

بهما في اختيارك لها ما يونسك مما تطلب ويعطفك على من يذنب وقال الشاعر

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلا ان تعد معايبه

وقال النابغة الذبياني
ولست بمستبق اخا لا تلمه   على شعث اي الرجال المهذب

وليس ينقض هذا القول ما وصفنا من اختياره واختيار الخصال الاربع فيه لان ما اعوز فيه معفو عنه وهكذا لا ينبغي ان توحشه فترة تجدها منه ولا تسي الظن في نبوة تكون منه ما لم يتحقق تغيره ولم يتيقن تنكره وليصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات الخواطر فان الانسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التي هي اخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منها وقد قيل في منثور الحكم لا يفسدك الظن على صديق قد اصلحك اليقين له وقال محمد بن جعفر لابنه يا بني من غضب من اخوانك ثلث مرات فلم يقل فيك سوا فاتخذه لنفسك خلا وقال الحسن بن وهب من حقوق المودة اخذ عفو الاخوان والاغضا عن تقصير ان كان وقد روي وقد روي عن علي عليه السلام في قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال الرضا بغير عتاب وقال ابن الرومي

هم الناس والدنيا فلا بد من قذى   يلم بعين او يكدر مشربا
ومن قلة الانصاف انك تبتغي   المهذب في الدنيا ولست مهذبا

وقال بعض الشعرا

وانشد الازدي

تواصلنا على الايام باقٍ ولكن هجرنا مطر الربيع
يروعك صوبه لكن تراه على علاته داني النزوع
معاذ الله ان نلقى غضابا سوى دل المطاع على المطيع

لا يؤيسنك من صديقٍ هفوة يجفوا الفتى وهو الجواد الخضرم
فاذا نبا فاستبقه وتانه حتى تفيء به الطباع الاكرم

واما الملول فهو سريع التغير وشيك التنكر فوداده خطر واخاه غرر لانه لا يبقى على حالة ولا يخلوا من استحالة وقد قال ابن الرومي

اذا انت عاتبت الملول فانما تخطط في محو من الماء احرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب الم تكن مودته طبعا فصارت تكلفا

وهو نوعان منهم من يكون ملاله استراحة ثم يعود الى المعهود من اخاه فهذا اسلم الملولين واقرب الرجلين يسامح في وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويثوب الى الاخاء وان تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث يقول

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما عفت منه اثار وجفت مشارعه
فقلت الى ان يرجع الماء عائدا ويعشب شطاه تموت ضفادعه

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمته بالظنون وقد قال الشاعر

اذا ما حال عهد اخيك يوما وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه فان اخا الحفاظ المستديم
فان تكن زلة منه والا فلا تبعد عن الخلق الكريم

ومنهم من يكون ملله تركا واطراحا لا يراجع اخاء ولا ودا ولا يتذكر حفاظا ولا عهدا كما قال اشجع بن عمرو السلمي

اني رايت لها مواصلة كالشمع تفرغه على الشهد
فاذا اخذت بعهد ذمتها لعب الصدود بذلك العهد

وهذا اذم الرجلين حالا لان مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات وليس الا استدراك الحال معه في الاقلاع قبل الخلطة وحسن المتاركة بعد الورطة كما قال العباس بن الاحنف

تداركت نفسي بعزتها وبعضها قبل امالها
وما طابت النفس عن سلوة ولكن حملت عليها اثقالها

وما مثل من هذه حاله الا كما قال ابرهيم بن هرمه

فانك واطراحك وصل سلمى لاخرى في مودتها نكوب
كثاقبة لحلي مستعار باذنيها فشانهما الثقوب
فادت حلي جارتها اليها وقد بقيت باذنيها ندوب

فاذا صفت عنده اخلاق من سبره وتمهدت لديه احوال من خبره واقدم على اصطفائه اخا وعلى الخلطة خدنا لزمته حينئذ حقوقه ووجبت عليه حرماته وقد قال عمرو بن مسعدة العبودية عبودية الاخاء لا عبودية الرق وقال بعض الحكماء من جاد لك بمودته فقد جعلك عديل نفسه فاول حقوقه اعتقاد مودته ثم ايناسه بالانبساط اليه في غير محرم ثم نصحه في السر والعلانية ثم تخفيف الاثقال عنه ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة او يناله من نكبة فان مراقبته في الظاهر نفاق وتركه في الشدة لوم وقد روي عن النبي

صلى الله عليه وسلم انه قال خير اصحابك المعين لك على دهرك
وشرهم من سعى لك بسوق يومه وقيل يا رسول الله اي الاصحاب
خير قال الذي اذا ذكرت اعانك واذا نسيت ذكرك وقال
علي بن ابي طالب عليه السلام خير اخوانك من واساك وخير منه
من كفاك وكان ابو هريرة رضي الله عنه يقول اللهم اني
اعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتي الا بموافقة شهوتي ومن يساعدني
على سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث غدي وقال بعض الحكما
عقود الغادر محلوله وعهوده مدخوله وقال بعض البلغا
ما ودك من اهمل ودك ولا احبك من ابغض حبك وقال بعض الشعرا

وكل اخ عند الهوينا ملاطف ولكنما الاخوان عند الشدايد

وقال صالح بن عبد القدوس

شر الاخلا من كانت مودته مع الزمان اذا ما خاف او رغبا
اذا وترت امرا فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان ابدى مسالمة اذا راى منك يوما فرصة وثبا

وينبغي ان يتوقى الافراط في محبته فان الافراط داع الى التقصير ولان
تكون حاله نامية اولى من ان تكون متناهيه وقد روى بن سيرين
عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال احبب
حبيبك هونا ما عسى ان يكون بغيضك يوما وابغض بغيضك هونا
ما عسى ان يكون حبيبك يوما وقال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقال

ابو الاسود الدولي

ولن معدنا بالخير واصفح عن الاذى فانك راء ما علمت وسامع
واحبب اذا احببت حبا مقاربا فانك لا تدري متى انت نازع
وابغض اذا ابغضت غير مباين فانك لا تدري متى انت راجع

وقال عدي بن زيد

لا تامنن من مبغض قرب داره ولا من محب ان يمل فيبعدا

وانما يلزم من حق الاخا بذل المجهود في النصح والتناهي في رعاية ما
بينهما من الحق فليس في ذلك افراط وان تناهى ولا مجاوزة حد وان
كثر ووفى وتستوي حالاهما في المغيب والمشهد ولا يكون
مغيبهما افضل من مشهدهما اولى فان فضل المشهد على المغيب لوم وفضل
المغيب على المشهد لوم واسوأ منهما حفاظ وقال بعض الشعرا

على الاخوان رقيب من الصفا يبيد الليالي وهو ليس يبيد
يذكرنيهم في مغيب ومشهد وسيان منهم غايب وشهيد
واني لاستحيي اخي ان اراه قريبا وان احفوه وهو بعيد

وهكذا القصد التوسط في زيارته وعيادته غير مقل ولا مكثر
فان قليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال وقد قال
النبي صلى الله عليه وسلم يا ابا هريرة زر غبا تزدد حبا وقال لبيد

توقف عن زيارة كل يوم اذا اكثرت ملك من تزور وقال اخر

اقلل زيارتك الصديق ولا تطل هجرانه فيلج في هجرانه
ان الصديق يلج في غشيانه لصديقه فيمل من غشيانه
حتى تراه بعد طول سروره بمكانه متثاقلا بمكانه
واذا توانى عن صيانة نفسه رجل تنقص واستخف بشانه

ويجتنب ذلك فليكن في عتابه فان كثرة العتاب سبب القطيعة
واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بامر الصديق وقد قيل علة
المعاداة قلة المبالاة بل يتوسط حالتي تركه وعتابه ويسامح بالمتاركة
ويستصلح بالمعاتبة فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما
نفور ولم يبق معهما وجد وقد قال بعض الحكما لا تكثرن معاتبة اخوانك
فيهون عليهم سخطك وقال منصور النمري

اذا انت في كل الامور معاتبا

اذا كنت في كل الامور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
وان انت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت واي الناس تصفو مشاربه
فعش واحدا او صل اخاك فانه مقارف ذنب ومجانبه

ثم حق الاخا ان يغفر هفوته ويستر زلته لان من رام بريا من الهفوات
سليما من الزلات رام امرا معوزا واقترح وصفا معجزا وقد قال
بعض الحكما عالم لا يهفوا وصارم لا ينبوا وجواد لا يكبوا وقالوا من
حاول صديقا يامن زلته ويدوم اغتباطه به كان كضال الطريق
الذي لا يزداد لنفسه اتعابا الا ازداد من غايته بعدا وقيل لخالد
بن صفوان اي اخوانك احب اليك فقال من غفر زللي وقطع عللي
وبلغني املي وقال بعض الشعرا

ما كدت افحص عن اخي ثقة الا ذممت عواقب الفحص

وانشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

احب من الاخوان كل مواتي وكل غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل امر اريده ويحفظني حيا وبعد وفاتي

فمن لي بهذا ليت اني اصبته فقاسمته مالي من الحسنات
تصفحت اخواني فكان اقلهم على كثرة الاخوان اهل ثقاتي

وانشد ثعلب

اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد بكفيك في ادباره متعلقا
اذا انت لم تترك اخاك وزلة اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

وحكى الاصمعي عن بعض الاعراب انه قال تناس مساوي الاخوان يدوم
لك ودهم ووصى بعض الادبا اخاه فقال كن للود حافظا وان
لم تجد محافظا وللخل واصلا وان لم تجد مواصلا وقال
رجل من اياد ليزيد بن المهلب

اذا لم تجاوز عن اخ عند زلة فلست غدا عن عثرتي متجاوزا
وكيف يرجى البعيد لنفعه اذا كان عن مولا الاحرز عاجزا
ظلمت امرا كلفته فوق وسعه وهل كانت الاخلاق الا غرائزا

وقال ابو مسعود كاتب الرضا كنا في مجلس الرضا فشكا رجل
اخاه فانشد الرضا يقول



اعذر اخاك على ذنوبه واستر وغط على عيوبه
واصبر على بهت السفيه وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا وكل الظلوم الى حسيبه
واعلم بان الحلم عند الغي احزم من ركوبه

وحكي عن بنت عبد الله بن مطيع انها قالت لزوجها طلحة بن عبد الله
بن عوف الزهري وكان اجود قريش في زمانه ما رايت قوما
الام من اخوانك قال لها ولم قلت ذلك قالت اراهم اذا ايسرت
لزموك واذا اعسرت تركوك قال هذا والله من كرمهم ياتونا في

حال القوة بناء عليهم ويتركونا في حال الضعف بناء عنهم فانظر كيف
تاول بكرمه هذا التاويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر
غدرهم وفاء وهذا محض الكرم ولباب الفضل وبمثل هذا يلزم ذوو
الفضل ان يتاولوا هفوات اخوانهم وقد قال بعض الشعراء

اذا ما بدت من صاحب لك زلة فكن انت محتالا لزلته عذرا
احب الفتى ينفي الفواحش سمعه كان به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسط اذى ولا مانع خيرا ولا قائل هجرا

والداعي الى هذا التاويل شيئان التغافل الحادث عن فطنة
والتالف الصادر عن الوفا وقال [illegible] من شدد نفر
ومن تراخى تالف والشرف في التغافل وقال شبيب بن شيبة
الاريب العاقل هو الفطن المتغافل وقال بعض الحكما وجدت اكثر
امور الدنيا لا تجوز الا بالتغافل وقال الطائي

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

وقال ابو العتاهية

ان في صحة الاخا من الناس وفي خلة الوفا لقلة
فالبس الناس ما استطعت على النقص والا لم تستتم لك خلة
عش وحيدا ان كنت لا تقبل العذر وان كنت لا تجاوز زلة
من اب واحد وام خلقنا غير انا في المال اولاد علة

ومما يتبع هذا الفضل بالف الاعدا ما يثنيهم عن المعصية ويعطفهم
على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البر ويختلف بحسب
اختلاف الاحوال فان ذلك من سمات الفضل وشرط السود
د فانه ما احد يعدم عدوا ولا يفقد حاسدا وحسب

وفور النعمة

96

وحسب وفور النعمة كثرة الاعداء والحسدة كما قال البحتري

ولن يستبين الدهر موضع نعمة اذا انت لم تدلل عليها بحاسد

فان اغفل وفور الاعدا مع وفور النعمة وظهور الحسد
توالى عليه من مكرهم وبادرة سفههم ما تصير به
النعم غراما والنقم ملاما وروى ابن المسيب عن ابي هريرة
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم راس العقل بعد الايمان
التودد الى الناس وقال سليمان بن داود عليهما السلام
ولا تستكثر ان يكون لك الف صديق والالف قليل ولا تستقل
ان يكون لك عدو واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومي هذا المعنى وقال

تكثر من الاخوان ما استطعت انهم بطون اذا استنجدتهم وظهور
وليس كثيرا الف خل وصاحب وان عدوا واحدا لكثير

وقيل لعبد الملك بن مروان ما الذي فدت في ملكك
قال مودات الرجال وقال بعض الحكما من علامات الاقبال
اصطناع الرجال وقال بعض البلغا من استصلح عدوه زاد
في عدده ومن استفسد صديقه نقص من عدده وقال بعض
الادبا العجز ممن يطرح عاقلا كافيا لما يعمره من عداوته
ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته وهو يقدر
على استصلاح من يعاديه بحسن صنايعه واياديه قال عبد الملك
بن الزبير رحمه الله ابيات جامعة لكل ما قالته العرب وهي للافوه

بلوت الناس قرنا بعد قرن فلم ار غير ختال وقال
ولم ار في الخطوب اشد وقعا واصعب من معاداة الرجال
وذقت مرارة الاشيا جمعا فما طعم امر من السوال

فلم أر في الخطوب أشد هولا وأصعب من معادات الرجال

الق العدو بوجه لا قطوب به يكاد يقطر من ماء البشاشات

فأحزم الناس من يلقى أعاديه في جسم حقد وثوب من مودات

والرفق يمن وخير القول أصدقه وكثرة المزح مفتاح العداوات

وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات

إني أحيي عدوي عند رؤيته كأنما قد حشا قلبي محبات

وأظهر البشر للإنسان أبغضه لأدفع الشر عني بالتحيات

الناس داء ودواء الناس قربهم وفي اعتزالهم قطع المودات

وليس وإن كان تألف الأعداء مأمورا وإلى مفارقتهم مندوبا ما يمنع أن يكون إليهم راكنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على خطر فإن العداوة إذا استحكمت في الطباع صارت طبعا لا يستحيل وجبلة لا تزول وإنما يستكف بالتألف إظهارها ويستدفع به أضرارها كالنار يستدفع بالماء إحراقها ويستفاد به نضجها وإن كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير وقد قال الشاعر

وإذا عجزت عن العدو فداره وامزح له إن المزاح وفاق

فالنار بالماء الذي هو ضدها تعطي النضاج وطبعها الإحراق

فصل

وأما البر وهو الخامس من أسباب الألفة فإنه يوصل إلى القلوب ألطافا ويثنيها محبة وانعطافا ولذلك ندب الله تعالى

الى التعاون

إلى التعاون به وقرنه بالتقوى فقال وتعاونوا على البر والتقوى لأن في التقوى رضى الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته روى الأعمش عن خيثمة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وجبلت القلوب على بغض من أساء إليها وذكر أن الله تعالى أوحى إلى داود وذكر عبادي إحساني إليهم ليحبوني فإن عبادي لا يحبون إلا من أحسن إليهم وأنشد أبو الحسن

الناس كلهم عيال الله تحت ظلاله فأحبهم طرا إليه أبرهم لعياله

والبر نوعان صلة ومعروف فأما الصلة فهي التبرع ببذل المال في جهات محمودة بغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفوس وسخاؤها ويمنع منه شحها وإباؤها قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وروى محمد بن إبراهيم عن عروة ابن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار وقال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم رفع الله عن أبيك العذاب الشديد بسخاء نفسه وبلغه عن الزبير إمساك فجذبه إليه أنا رسول الله إليك وإلى غيرك يقول الله أنفق أنفق عليك ولا توك فأوك عليك وروى أبو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ما من يوم غربت فيه شمسه الا وملكان يناديان اللهم اعط
منفقا خلفا وممسكا تلفا وانزل في ذلك قرانا فاما من اعطى واتقى
وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب
بالحسنى فسنيسره للعسرى قال ابن عباس يعني
من اعطى فيما امر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعني الخلف من
عطايه فعند هذا قال ابن عباس سادة الناس في الدنيا الاسخيا
وفي الاخرة الاتقيا وقيل في منثور الحكم الجود عن موجود وقيل خ الانبيا
في المثل سودد بلا جود كملك بلا جنود وقال بعض الحكما
الجود حارس الاعراض وقال بعض الحكما من جاد ساد ومن اضعف
ازداد وقال بعض البلغا جود الرجل يحببه الى اضداده وبخله
يبغضه الى اولاده وقال بعض الفصحا خير الاموال ما استرق
حرا وخير الاعمال ما استحق شكرا وقال صالح بن عبد القدوس

ويظهر عيب المرء في الناس بخله وويستره عنهم جميعا سخاوه
تغط باثواب السخا فانني ارى كل عيب فالسخا غطاوه

وحد السخا بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وان يوصل الى مستحقه
بقدر الطاقه وقد قيل ان ذلك مستضعف ولعل بعض من تحتث
ان ينسب الى الكرم ينكر حد السخا ويجعل تقدير العطية فيه نوعا
من البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضي الى الجهل بحدود
الفضايل ولو كان حد الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضعا
ولا للتبذير موقعا وقد ورد الكتاب بذمهما وجاءت السنة
بالنهي عنهما واذا كان السخا محدودا فمن وقف على حده سمي كريما وكان

وكان للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا
قال الله تعالى ولا يحسبن الذين يبخلون بما اتاهم الله من فضله
هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وروي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقسم الله عز وجل بعزته لا
يجاوره بخيل وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال طعام الاجواد
دوا وطعام البخيل دا وسمع صلى الله عليه وسلم رجلا يقول الشحيح
اعذر من الظالم فقال لعن الله الشحيح ولعن الظالم قال
بعض الحكما البخل جلباب المسكنه وقال بعض الادبا البخيل
ليس له خليل وقال بعض البلغا البخيل حارس نعمته وخازن
ورثته وقال بعض الشعرا

اذا انت جمعت المال ممسكا فانت عليه خازن وامين
تؤديه مذموما الى غير حامد فياكله عفوا وانت دفين

ونظاهر بعض ذوي النباهة بحب الثنا مع امساك فيه فقال بعض الشعرا

اذا لم تومل حسن الثنا لم يرزق الله ذا البخيلا
وكيف يسود اخو بطنه يمن كثيرا ويعطي قليلا

وقد سلب حب الثنا وحب المال لان حب الثنا يبعث على البذل وحب
المال يمنع منه فان ظهرا كان حب الثنا اذما وقال بعض الشعرا

جمعت امرين ضاع الحزم بينهما تيه الملوك واخلاق المماليك
لزدت شكرا بلا بر ولا صلة لقد سلكت طريقا غير مسلوك
ظننت عرضك لم يقرع بقارعة وما اراك على حال بمتروك
لئن سبقت الى مال حظيت به فما سبقت الى شي سوى النوك

وقد يحدث عن البخل والاخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل مذمة اربعة اخلاق ناهيك بها ذما وهي الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق فاما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف في الطلب واما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا فرق ما بين الحرص والشره وقد روى العلا بن جرير عن ابيه عن سالم بن مسروق قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا تجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يغنيه وقال بعض الحكما الشره من غرائز اللوم واما سو الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها اهل فان كانت بالخالق كان شكا يوول الى ضلال وان كانت بالمخلوق كانت استخانة يصير بها مختانا وخوانا لان ظن الانسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فان وجد فيها خيرا ظنه بغيره وان راى فيها سوا اعتقده في الناس وقد قال المثل كل انا ينضح بما فيه فان قيل فقد تقدم من قول الحكما ان من الحزم سو الظن قيل اوله قلة الاسترسال اليهم لا اعتقاد السو فيهم واما منع الحقوق فان نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد الى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولا تجيب الى انصاف واذا آل البخيل الى ما وصفنا من هذه الاخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجو ولا صلاح مامول وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من سيدكم قالوا الحر بن قيس على بخل فيه

فقال

فقال صلى الله عليه وسلم واي دا ادوى من البخل قالوا وكيف ذاك يا رسول الله قال ان قوما نزلوا بساحل البحر فكرهوا لبخلهم نزول الاضياف فقالوا ليبعد الرجال منا عن النسا حتى يعتذر الرجال الى الاضياف ببعد النسا وتعتذر النسا ببعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال واشتغل النسا بالنسا واما السرف والتبذير فان من زاد على حد السخا فهو مسرف ومبذر وهو الذي جاء قال الله تعالى ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما عال مقتصد وقال المامون لا خير في الاسراف ولا سرف في الخير وقال بعض الحكما صديق الرجل قصده وعدوه سرفه وقال بعض البلغا لا كثير مع اسراف ولا قليل مع اقتراف واعلم ان السرف والتبذير قد يفترق معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم وذم التبذير اعظم لان المسرف يخطي في الزيادة والمبذر يخطي في الجهل ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله واخطاهما فهو كمن جهلها بفعاله وتعداها كما انه مبذر قد يضع الشي في غير مواضعه فهذا تبذير يعدل به عن موضعه لان المال اقل من ان يوضع في كل موضع من حق وغير حق وقد قال معويه ما [illegible] جانبه حق مضيع وقال بعض الحكما الخطا في اعطا ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد

احتراف

قال سفيان الثوري الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم
الشيء يبذل ما في يده حتى يسخو نفسا عما في يد غيره فلا يميل
الى طلب ولا يهف عزيمة له وقد حكي ان الله تعالى اوحى الى ابراهيم
الخليل عليه السلام تدري لم اتخذتك خليلا قال لا يا رب
قال لاني رايتك تحب ان تعطي ولا تحب ان تاخذ وروي
سهل بن سعد الساعدي قال اتى رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال يا رسول الله دلني على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد
فيما في ايدي الناس يحبك الناس وقال ايوب السختياني لا ينبل
الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن اموال الناس والتجاوز
عنهم وقيل لسفيان ما الزهد في الدنيا قال الزهد في الناس
وكتب كسرى الى ابنه هرمز يا بني استكثر استقلل الكثير مما تعطي
واستكثر القليل مما تاخذ فان قرة عين الكرام في الاعطا
وسرور اللئام في الاخذ ولا تعد الشحيح امينا ولا الكذاب
حرا فانه لا عفة مع الشح ولا مروة مع الكذب وقال بعض الحكما
السخا سخاءان سخاء نفسك بما في يدك وسخاء عما بيد غيرك وقال بعض
البلغا السخا ان تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا
وقال بعض العلما الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود
وقال بعض الشعرا اذا لم تكن نفس الشريف شريفة وان كان ذا قدر فليس له شرف
والبذل على وجهين احدهما ما ابتدا به الانسان من غير سوال
والثاني ما كان عن طلب وسوال فاما المبتدا به فهو اطبعهما سخا
واشرفهما عطا

واشرفهما عطا سئل علي رضي الله عنه عن السخا فقال ما كان منه
ابتدا فاما ما كان عن مسالة فحيا وتكرم وقال بعض الحكما
اجل النوال ما وصل قبل السوال وقال بعض الشعرا
وفتى خلا من ماله ومن المروة غير خال اعطاك قبل سواله فكفاك مكروه السوال
وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة اسباب فالسبب
الاول ان يرى خلة يقدر على سدها وفاقة يمكن من ازالتها
فلا يدعه الكرم او التدين الا ان يكون زعيم صلاحها واهل
حاجتها رغبة في الاجر ان تدين او في الشكر ان تكرم
وقال ابو العتاهية ما الناس الا انه معتمله للخير والشر جميعا فعله
والسبب الثاني ان يرى في ماله فضلا عن حاجته وفي يده زيادة
عن نفقته فيرى انتهاز الفرصة بها فيضعها حيث تكون له ذخرا
معدا او غنما مستجدا قال الحسن البصري ما انصفك من كلفك
اجلاله ومنعك ماله وقيل لهند بنت الخس ما اعظم الناس في عينك
قالت من كانت لي اليه حاجة وقال الشاعر
وما ضاع مال ورث الحمد اهله ولكن اموال البخيل تضيع
والسبب الثالث ان يكون لتعريض ينبه عليه او فطنة
واشارة يستدل عليها بكرمه فلا يدعه الكرم ان يغفل
ولا الحيا ان يكف كالذي حكي ان رجلا سال بعض الولاة
فقال ما اهزل برذونك فقال بيده مع ايدينا فوصله اكتفا
بهذا التعريض الذي بلغ ما لا يبلغه صريح السوال ولذلك
قال اكثم بن صيفي السخا حسن الفطنة واللوم سوء التغافل

وحكي ان عبيد الله بن سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب
اليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

ايادينا اسعافنا في نفوسنا واسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقل له نعماك فيهم اتمها ودع امرنا ان المهم مقدم

فقال عبيد الله ما احسن ما شكا امره بين اسعاف مدحه وقضى
حاجاته ولذلك قال بعض الشعرا

ومن لا يرى من نفسه ثمن الها راي طلب المستنجحين ثقيلا

والسبب الرابع ان يكون ذلك يرعاه لبدا دخرا على صنيعة
فيرى تاديه احق عليه طوعا اما انفه واما شكرا لكون
من اشد الامتنان طليقا ومن رق الاحسان عتيقا فقد قال
بعض الحكما الاحسان رق والمكافاه عتق وقال ابو القاسم

ولست ابادي الناس عندي غنيمه ورب يد عندي اشد من الاسر

والسبب الخامس ان يوثر الادعان سقد به والاقرار تعظيمه
توطيدا للرياسة هولها محب وعلى طلبها محث وقال الشاعر

حب الرياسة دا لا دوا له وقل ما تجد الراضين بالقسم

تستصعب عليه اجابه النفوس له طوعا الا الاستعطاف
وادعانها الا الرغبة والاسعاف فقد قال بعض الادباء
بالاحسان يرتبط الانسان وقال بعض البلغا من بدل ماله
ادل اماله وقال بعض الشعراء

اترجوا ان تسود ولا تعني وكيف يسود ذو الدعة البخل ۵

والسبب السادس ان يندفع به سطوه اعداه او يستكف به نفار
خصما

خصما التبصير والله تجد الخصومة اعوانا وبعد العداوه اخوانا اما
لصيانة عرض او لحراسة مجد وقد قال ابو تمام الطاي

لم يجتمع شرف وعز لقاصد ولا المجد في كف امري والدراهم
وامر كالمعروف تزعج حقوقه مغارم في الاقوام وهي مغانم

وقال بعض الادبا من عظمت مرافقه اعظمه مرافقه ۵
والسبب السابع ان يرب بذلك سالف صنيعة اولاها ويراعي
به قدم نعمة اسداها لئلا يبس ما ابتداه او يضاع ما اولاه فان منقطع
للصنايع ومهمل الاحسان ضال وقد قال الشاعر

وسمت امرا ابا العرف ثم اطرحته ومن افضل الاسباب رب الصنايع

وقال محمد بن داود الاصبهاني

بدات بنعمي اوجبت لي حرمة عليك فعد بالفضل فالعود احمد

والسبب الثامن المحبة التي يوثرها المحبوب على ماله ولا يضن عليه
بموهوب ولا ينفس عليه بمطلوب اللذة التي هي عنده احظى والى
نفسه اشهى لان النفس الى محبوبها اشوق والى ما ملكته اسرق وقد قال الشاعر

وما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى الى حيث يهوى القلب تهوي به الرجل

وهذا وان دخل في اقسام العطا فخارج عن حد السخا وهكذا
الخامس والسادس من هذه الاسباب وانما ذكرناها لتحول لنا ربع
اقسام العطا والسبب التاسع وليس بسبب ان يفعل ذلك
لغير مناسب وانما هي من سجيه قد فطر عليها وشيمة قد طبع بها فلا
يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال بشار

ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف ولكن يلذ طعم العطاء

وقد اختلف الناس في مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخا فيحمد او
خارجا عنه فيذم فقال قوم هذا هو السخي طبعا والجواد كرما وهو
احق من كان به ممدوحا واليه منسوبا والتمييز شرط البخل والبذل
لسبب الحاوضروة وقال ابو تمام
من غير ما سبب يدني كفى سببا للحر ان يجتدي حرا بلا سبب
وقال الحسن بن سهل اذا لم اعط الا مستحقا فكاني اعطيت غريما
وقال الشرف في السرف فقيل له لا خير في السرف فقال لا
سرف في الخير وقال الفضل بن سهل العجب لمن يرجو من فوقه
وايف يحرم من دونه وقال بشار
وما الناس الا صاحبان فمنهم سخي ومطول اليدين من البخل
فسامح بدا اما امسكت فانها تقل في ثري والعواذل في شغل
وقال اخرون هذا خارج من السخا المحمود الى السرف والبذل المذموم
لان العطا اذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب لان المال يقل عن
الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا اعطي غير مستحق فقد منع مستحقا
وما يناله من الذم بمنع المستحق اكثر مما يناله من الحمد بعطاء غير المستحق
وحسبك ذما من كانت افعاله تصدر عن غير تمييز وتوجد لغير علة
وقد قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل
البسط فتقعد ملوما محسورا فنهى عن بسطها سرفا كما نهى عن
قبضها بخلا فدل على استوا الامرين ذما وعلى انفاقهما لوما وقد قال الشاعر
وكان المال يايتنا فكنا نبذره وليس لنا عقول
فلما ان تولى المال عنا عقلنا حين ليس لنا فضول

102
قالوا ولان العطا والمنع اذا كانا لغير علة افضيا الى ذم الممنوع وقلة
شكر المعطا اما الممنوع فقد فضل عليه من ساواه واما المعطى فلانه وجد
ذلك اتفاقا وربما امل بالاتفاق اضعافا فصار ذلك مفضيا الى اخلاف
الذم واحباط الشكر وليس فيما افضى الى واحد منهما خير يرجى وهو جدير
ان يكون شرا يتقي ولمثل ذلك قيل منع الجميع ارضا للجميع وعطا يكون
المنع ارضى منه خسران مبين فاما اذا كان البذل والعطا عن سوال
وطلب فشروطه معتبرة من وجهين احدهما في السايل والثاني في
المسول فاما ما كان معتبرا في السايل فثلثة شروط فالشرط
الاول ان يكون السوال لسبب والطلب لموجب فان كان
لضرورة ارتفع عنه الحرج وسقط عنه اللوم وقد قال بعض
الحكما الضرورة توح الضرورة وقال بعض الشعرا
الا قبح الله الضرورة انها تكلف اعلى الخلق ادنى الخلايق
ولله در الاحنف فانه بيين فضل السبق من غير سابق وقال الكميت
اذا لم يكن الا الاسنة مركب فلا راي للمضطر الا ركوبها
فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو اولى الامرين ان يكون
وان جاز ان لا يكون فالنفس المسامحة تغلب الحاجة وتسمح في الطلب
وتراعي ما استقام به الحال وانتظم به الامر وان نالت مذلة وحف
وهن ويتاول لصاحبها قول البحتري وربما كان مكروه الامور
الى محبوبها سبب ما مثله سبب والنفس الشريفة تغلب الصيانة وتراعي
النزاهة وتحمل من العز ما احتملت ومن الشدة ما اطاقت فيبقى تحملها ويدوم
تصونها فتكون كما قال الشاعر

وقد بكتني الى حز الشباب ومن دونها حاله مصنه
حما يكسى خده حمرة وعليها ورمز في الريبه

ولا يرى ان يدنس بمطالب الشوم ومطامع اللوم فان من البهايم الوحشيه ما يابى ذلك ويانف منه قال الشاعر

وليس الليث من جوع بغادٍ على جيف تحيط بها الكلاب

فكيف بالانسان الفاضل الذي هو اكرم الحيوان جنسا واشرفه نفسا هل يحسن ان يرى لوحشي البهايم عليه فضلا وقد قال الشاعر

على كل حال ياكل المرزاده على البوس والضر واكرثان

والفضل في مثل هذا ما قال لبعض الزهاد لو سالت جارك لاعطاك فقال والله ما اسال الدنيا من يملكها فكيف من لا يملكها ووصف بعض الشعرا قوما فقال اذا افتقروا عضوا على الصبر خشيه وان ايسروا عادوا سراعا الى الفقر فاما ان يسال من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صريح اللوم ومحض الدنياه وقل ما يجد مثله ملحوفا او مولا يحظوظا لان الحرمان قاده الى اضيق للارزاق واللوم سابقه الى اخبث المطاعم فلم يسق لوجهه ما الا اراقه ولا ذلا الا اذاقه كما قال عبد الصمد بن المعذل لابي تمام الطايي

انت بين اثنتين تظهر للناس وكلتاهما بوجه مذال
لست تنفك طالبا لوصال من حبيب او طالبا لنوال
اي ما كر وجهك يبقي بعد ذل الهوى وذل السوال

ولو استقبح العار وانف من الذل لوجد غير السوال مكسبا يمونه ولقدم على ما يهلكه ويصونه وقد قال الشاعر

لا تطلبن معيشة بمذلة فليا بنينك رزقك المقدور

واعلم بانك اخذ كل الذي هو في الكتاب مجبر مسطور له

والشرط الثاني من شروط السوال ان تضيق الزمان عن اجابه ويقصر الوقت عن ابطايه فلا يجد لنفسه في التاخر فسحة ولا في التمادي مهلة تنصيره من المعذورين وداخلا في اعداد المضطرين فاما والوقت متسع والزمان ممتد فتعجيل السوال لوم وقنوط وقال الشاعر

اني لي اعطا الكفوف على الغدي يغني الاعسر الا مفرج
الا ربما ضاق الفضا باهله وامكن من بين الاسنة مخرج

والشرط الثالث اختبار المسول ان يكون مرجوا للاجابه مامول النجح اما لرحمة السايل او كرم من المسول فان سال لييما لا يرعى حرمة ولا يولي مكرمة فهو في اختياره ملوم وفي سواله محروم وقال بعض الحكما المحدود من كانت له الى اللييام حاجة وقال بعض البلغا اذل من اللييم سايله واقل من البخيل نايله وقال بعض الشعرا

من كان يامل ان يرى من ساقط نيلا اصبنا
فلقد رجا ان يجتني من عوسج رطبا جنيا

واما الشرط المعتبرة في المسول مسالته فالشرط الاول ان يكتفي بالتعريض ولا يلحى الى السوال الصريح ليصون السايل عن ذل الطلب فان الحال ناطقة والتعريض كاف وقد قال الشاعر

اقول وستر الدجى مسبل كما قال حين تشكى الصفدع
كلامي ان قلته ضايري وفي الصمت حتفي فما اصنع

وربما فهم المسول لا اشارة فالحى الى التصريح بالعبارة تهجنا للسايل ليحل فيمسك ويستحي فيكف فيكون كما قال ابو تمام الطايي

من كان مفقودا احيا فوجهه من غير ثواب له ثوابا

والشرط الثاني ان يتلقى بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا ان اعطى ومعذورا ان منع وقد قال بعض الحكماء الق صاحب الحاجة بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره وحكي ان ابا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء في حاجة فلم يقضها وظهر له منه ضجر فقال

لا تدخلنك ضجرة من سائل فلخير دهرك ان ترى مسؤولا
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك ان ترى مأمولا
تلقى الكريم فتستدل ببشره وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بانك عن قليل صائر خبرا فكن خبرا يروق جميلا

والشرط الثالث تصديق الامل فيه وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال سائله فانهما لا يخلوان من اربعة احوال فالحالة الاولى ان يكون السائل مستوجبا والمسؤول متمكنا فالاجابة هاهنا تستحق كرما وتلزم مروءة وليس الى الرد سبيل الا لمن استولى عليه البخل وهان عليه الذم فيكون كما قال فيه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت

اني رايت من المكارم حسبكم ان تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فاذا تذكرت المكارم مرة في مجلس انتم به فتقنعوا

ونعوذ بالله ممن حرم ثروة المال ومع حسن حاله ان يكون ممنوعا في صنيع مشكور وبر مدخور وقيل للبخيل لم حبست مالك قال للنوائب قيل فقد نزلت بك وقال بعض الشعراء

ما لك من مالك الا الذي قدمت فابذل طائعا مالكا
تعول اعمالي ولو فتشوا ارايت اعمالك اعمالكا

ثم قد اسقط حق نفسه ورفع اسباب شكره فصار بان لا حول له مذموما لا مشكورا وماثوما لا ماجورا قال ابو العتاهية

جزى البخيل علي صالحة ادم بنقل بره ظهري
ما فاتني خير امرئ وضعت عني يداه مؤونة الشكر

فان لم يكن الى الرد في هذه الحالة سبيل نظر فان رأى التاخير مضرا عجل رده وقطع مطله وكانت اجابته فعلا او قوله عملا وقد قال بعض الحكماء من مروءة المطلوب اليه ان لا يحوج الى الالحاح عليه وقال محمد بن حازم

ومنتظر سؤالك بالعطايا واشرف من عطاياه السؤال
اذا لم ياتك المعروف طوعا فدعه فالتنزه عنه مال

وان كان في الوقت مهلة وفي التاخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه فذهب بعضهم الى ان الاولى تعجيل الوعد قولا ثم تعقبه الانجاز فعلا ليكون السائل مسرورا بتعاجيل الوعد ثم باجل الانجاز ويكون المسؤول مرهونا بالكرم ملحوظا بالوفا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العدة عطية وقال الفضل بن سهل لرجل ساله حاجة اعدك اليوم واحبوك غدا بالانجاز ليذوق حلاوة الامل وانتظر حسن الوفا ووعد يحيى بن خالد رجلا حاجة ساله اياها فقيل له بعد الانفاذ فقال ان الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبها نجحه لم يجد سرورها لان الوعد طعم والانجاز طعام وليس من جاءه طعام كمن يجد رائحته ويتطعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه وقال بعض البلغاء اذا احسنت القول فاحسن الفعل ليجتمع لك ثمرة اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل ما لا تفعل فانك اذا

خلوا من ذلك من ذنب يكسبه او عجز يلتزمه ومنهم من ذهب الى ان تعجيل البذل فعلا احسن من وعد ووعد اولى وتقدمه من غير ترقب ولا انتظار اهنى وانما تقدم الوعد واحد من رجلين اما معوز ينتظر جدة واما شحيح يروض نفسه توطية وليس الوعد في غيرهما من الحالين وجه يصح ولا راي يصح مع ما يجري الليل والنهار ويتقلب به الحال من يسار واعسار وقد قال بعض الشعرا

يا ايها الملك المقدم امره شرقا وغربا
امنن بحكم صحيفتي ما دام هذا الطين رطبا
واعلم بان جفافه مما يعيد السهل صعبا

قالوا ولان في الرجوع عنه من الانكار وفي توقع الوعد من مرارة الانتظار وفي المعود اليه من بذله الاقتصار وذلك لا يجدى اما يكدر بره ويوهن شكره وقد قال الشاعر له

ان الحوايج ربما ازرى بها عند الذي تقضى له تطويلها
فاذا ضمنت لصاحب الحاجة فاعلم بان تمامها تعجيلها

والحالة الثانية ان يكون السايل غير مستوجب والمسول غير ممكن ففي الرد فسحة وفي المنع عذر غير انه يلين عند الرد لينا ينفيه الذم ويظهر عذرا يدفع عنه اللوم فليس كل مقل يعرف ولا كل معدم ينصف وقد قال

يا رب ان الناس لا ينصفونني فكيف وان انصفتهم ظلموني
وان كان لي شي تصدوا لاخذه وان جئت ابغي شيهم منعوني
وان نالهم بذل فلا شكر عندهم وان انا لم ابذل لهم شتموني
سامنع قلبي ان يحن اليهم واحجب عنهم ناظري وجفوني
وان طرقتني نكبة فكهوا بها وان صحبتني نعمة حسدوني
واقطع ايامي بيوم سهولة اقضي به عمري ويوم حزوني

الا ان اصفى العيش ما طاب غبه وما نالته في لذة وسكوني

والحالة الثالثة ان يكون السايل مستوجبا والمسول غير ممكن فيلاين بالحمل على النفس ما امكن من تيسير بسد خلته وبدفع مذمة او يوضح من اعذار المعوزين ويوجع المتاملين ما يجعله في المنع معذورا وبالتوجع مشكورا كما قال ابو النضر العتبي

الله يعلم انني لست ذا بخل ولست ملتمسا في البخل لي عللا
لكن طاقة مثلي غير خافية والنمل يعذر في القدر الذي حملا

وربما حسن حدوث العجز بعد تقدم القدرة على فوت الصنيعة وزوال العادة حتى صار اتضاجة (?) وان يذكر ما حالا قال بعض الشعرا

فكنت كبازي السوء قص جناحه يرى حسرات كلما طار طاير
يرى طايرات الجو يخفقن حوله فيذكر اذ ريش الجناحين وافر

والحالة الرابعة ان يكون السايل غير مستوجب والمسول منه ممكنا وعلى البذل قادرا فينظر فان خاف بالرد قدح عرض او قبح هجا فمن كان بالبذل مصونا فانه صيانة لا جود فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما وقى المرء به عرضه فهو صدقة وان امن من ذلك وسلم منه فمن الناس من غلب الملة وامر بالبذل لان لا تقابل الرجا بالخيبة ولا الامل بالاياس ثم لما فيه من اعتياد الرد واستسهال المنع مفضى الى الشح واسند الاصمعي عن الكسائي

كانك في الكتاب وجدت لا مخرمة عليك فلا تخل
فما تدري اذا اعطيت مالا ايكثر من سماحك ام يقل
اذا حضر الشتاء فانت شمس وان حضر المصيف فانت ظل

ومن الناس من اعتبر له الاسباب وغلّب حالة السايل ونَدَب الى المنع اذ
كان العطا في غير حق ليقوى على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز عنها اذا
لزمت وتعينت وقد قال بعض الشعرا

لا تجد بالعطا في غير حق ليس في منع غير ذي الحق بخل
انما الجود ان تجود على من هو للجود والندى منك اهل

فاما من اجاب السوال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهونا وصار
وفاوه بالوعد مفروضا ولا اعتبار باستحقاق السايل فمقت الغادر وهجنة
الكذوب ثم لا سبيل الى مطله بعد الوعد لما في المطل من تكدير
الصنيع ومحق الشكر والعرب تقول في امثالها المطل احد المنعين
واليأس احد النجحين وقال بشار بن برد

اظلت علينا منك يوما غمامة اضات لنا برقا وابطا رشاشها
فلا غيمها يجلي فييأس طامع ولا غيثها ياتي فيروي عطاشها

ثم اذا انجز وعده واوفى عهده لم يتبع نفسه ما اعطى وسره ان كانت
يده العليا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد
السفلى وقال الشاعر

وانك لا تدري اذا جا سايل اانت بما تعطيه ام هو اسعد
عسى سايل ذو حاجة ان منعته من اليوم سولا ان يكون له غد

وليكن من سروره اذا كانت له ارزاق متغلاة ان يكون على يده جارية
ومن جهته واصلة لا ينقل عنه بمنع ولا يتحول عنه بإياس حكي ان رجلا
شكى كثرة عياله الى بعض الزهاد فقال انظر ما كان منهم ليس رزقه على
الله فحوله الى منزلي وقال محمد بن سيرين لرجل كان ياتيه على دابة

106

نفقة الدابة ما فعل برذونك فقال اسندت على مونته فبعته فقال
افتراه خلف رزقه عندك وقال بن الرومي

ان لله غير من عال من عايل تعيبه وغير ما بك عالا
ان لله بالبرية لطفا سبق الامهات والاباء

ثم ليكن غالب عطايه لله تعالى واكثر قصده ابتغا ما عند الله كالذي
حكاه ابو بكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان اعرابيا اتاه فقال

يا عمر الخير جزيت الجنه اكس بنياتي وامهنه
وكن لنا من الزمان جنه اقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر رضي الله عنه ان لم افعل يكون ماذا قال

اذا ابا حفص لاذهبنه قال فاذا ذهبت يكون ماذا

قال

يكون عن حالي لتسالنه يوم تكون الاعطيات هنه
وموقف المسول بينهنه اما الى نار واما جنه

فبكى عمر رضي الله عنه حتى اخضلت لحيته ثم قال يا غلام اعطه قميصي هذا
لذلك اليوم لا لشعره اما والله لا املك غيره واذا كان العطا على
هذا الوجه خلا من طلب جزا وشكر وعري من امتنان ونشر وكان
ذلك اشرف للباذل واهنى للقابل واما المعطي اذا التمس
بعطايه الحمد او طلب به الشكر والثنا فخارج لعطايه عن حكم السخا
وان طلب به الجزا كان تاجرا متربحا لا يستحق حمدا ولا مدحا وقد
قال بن عباس في تاويل قوله تعالى ولا تمنن تستكثر انه الذي
يعطي عطية يلتمس بها افضل منها وكان الحسن البصري يقول في
تاويل ذلك ولا تمنن بعملك تستكثر على ربك وقال ابو العتاهية

وليست باولاها بغبنة اذا انت تبغي ان تعد لها شكرا
غنى المرء ما يكفيه من سد حاجة وان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

واعلم ان الكريم يجتذب بالكرامة واللطف واللئيم يجتذب بالمهانة والعنف فلا تجود الا خوفا ولا تجيب الا عنفا كما قال الشاعر

رايتك مثل الجوز يمنع لبه صحيحا ويعطي خيره حين يكسر

فاحذر ان يكون للمهانة طريق الى اجتذابك وللخوف سبيل الى اعطائك فتجر عليك سفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما نادرا عفوا ولا لوما ورهبا كيلا يكون مع الوجه كما قال الاحنف

صرت كاني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق

واما النوع الثاني من البر فهو المعروف ويتنوع ايضا نوعين قولا وعملا فاما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب ان يكون محدودا كالسخاء فانه ان اسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسطه واقتصد فيه كان معروفا وبرا محمودا وقد قال ابن عباس رضي الله عنه في تاويل قوله تعالى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا انها الكلام الطيب وقال سعيد بن جبير هي الصلوات الخمس وروى ابو عبيد عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انكم لن تسعوا الناس باموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم انشد عنده قول الاعرابي

وحي ذوي الاضغان تسب قلوبهم تحيتك الحسنى فقد يرقع النغل
فان دحسوا بالمكر فاعف تكرما وان خنسوا عنك الحديث فلا تسل

فان الذي يؤذيك منه سماعه وان الذي قالوا وراءك لم يقل

وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكما وان من البيان لسحرا وقيل للعتابي انك تلقى العامة ببشر وتقريب فقال دفع ضغينة بايسر مؤونة واكتساب اخوان باهون مبذول وقيل في منثور الحكم من قل حياؤه قل احباؤه وقال بعض الشعراء

بني ان البر شيء هين وجه طليق وكلام لين

وانشدني بعض اهل العلم

المرء لا يعرف مقداره ما لم تبين للناس افعاله
وكل من يمنعني بشره فقل ما ينفعني ماله

واما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمعونة في النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وايثار الصلاح لهم وليس في هذه الامور سرف ولا لغايتها حد بخلاف النوع الاول لانها وان كثرت فهي افعال خير تعود بنفعين نفع على فاعلها في اكتساب الاجر وجميل الذكر ونفع على المعان بها في التخفيف عنه والمساعدة له وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل معروف صدقة وقال النبي صلى الله عليه وسلم المعروف كاسمه واول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف واهله وقال الامام علي بن ابي طالب عليه السلام لا يزهدنك في المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر باضعاف جحود الكافر وقال الحطيئة

من يفعل الخير لم يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وانشد الرياشي ره

يد المعروف غنم حيث كانت تحملها كفور او شكور
ففي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما كفر الكفور

ليس

فينبغي لمن قدر على اسدا المعروف ان يعجله حذر فواته ويبادر به
خيفة عجزه وليعلم انه من فرص زمانه وغنايم امكانه ولا يهمله ثقة
بالقدرة عليه فكم من واثق بقدرة فاتت فاعقبت ندما ومعول على
مكنة زالت فاورثت خجلا كما قال الشاعر

ما زلت اسمع كم من واثق بخجل حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا

ولو فطن لنوايب دهره وتحفظ لعواقب مكره لكانت مغانمه مذكورة
ومغارمه محبورة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكل
شي ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح وقيل لانوشروان ما اعظم
المصايب عندكم فقال ان نقدر على المعروف فلا نصطنعه حتى يفوت
وقال عبد الحميد من اضاع الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة
من فوتها وقال بعض الشعرا

اذا هبت رياحك فاغتنمها فان لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها فما تدري السكون متى يكون

وحكي ان بعض ولد بني العباس مطل اعرابيا في عمل يستكفيه
اياه فكتب اليه بعد طول المطل

اتانى بعول طول الصبر مني على استيناف منفعتي وشغلي
وعلمك ان ذا السلطان غاد على خطر بين موت وعزل
وانك ان تركت قضا حقي الى وقت التفرغ والتخلي
ستصبح نادما اسفا معنى على فوت الصنيعة عند مثلي
وانت بعمر ذي الحرمان اولى فقر في رعاية حرمته
اعلى الصراط تريد رعية حرمتي ام في الحساب تمن بالانعام

للنفع في الدنيا اريك فانتبه لحوايجي من رقدة النوام

وكتب ابو علي البصير الى بعض الوزرا وقد اعتذر اليه بكثرة الاشغال

لنا كل يوم نوبة قد نسوها وليس لنا رزق ولا عند نافضل
فان تعتذر بالشغل عنا فانما تناط بك الامال ما اتصل الشغل

واعلم ان للمعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فلذلك ستره
عن اذاعة تستطيلها واخفاوه من اشاعة تستذل بها فقد قال
بعض الحكما اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا اصطنع اليك فانشره قال دعبل الخزاعي

اذا انتقصوا اعلنوا امرهم وان انعموا انعموا باكتتام
يقوم القعود اذا اقبلوا وتقعد هيبتهم بالقيام

على ان ستر المعروف من اقوى اسباب ظهوره وابلغ دواعي نشره لما جبلت
عليه النفوس من اظهار ما اخفي واعلان ما كتم وقد قال سهل بن هرون

خل اذا جيته يوما لتساله اعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفي صنايعه والله يظهرها ان الجميل اذا اخفيته ظهرا

ومن شروط المعروف تصغيره عن ان يراه مستكثرا وتقليله عن ان يكون
مستكثرا ليلا يصير مدلا بطرا او مستطيلا اشرا قال العباس بن عبد المطلب
رضي الله عنه لا يتم المعروف الا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وستره
فاذا عجلته هنيته واذا صغرته عظمته واذا سترته تممته وقال بعض الشعرا

زاد معروفك عندي عظما انه عندك مستور حقير
تتناساه كان لم تاته وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفعله
لما فيهما من اسقاط الشكر واحباط الاجر وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم

انه قال اياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الاجر ثم تلا
لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل
فعلت اليك وفعلت فقال ابن سيرين اسكت فلا خير في المعروف
اذا احصي وقال بعض الحكما المن مفسدة الصنيعة وقال بعض الادبا
كدر معروفا امتنان وضيع حسبا امتهان وقال بعض البلغا من من
بمعروفه سقط شكره ومن اعجب بعمله حبط اجره وقال
بعض الفصحا قوة المنن من ضعف المنن وقال بعض الشعرا
افسدت بالمن ما اسديت من حسن ليس الكريم اذا اسدى بمنان
وقال ابو نواس فامض لا تمنن على يدا منك المعروف من كدره
وانشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه
لا تحملن لمن يمن عليك من الانام منه واختر لنفسك حظها واصبر فان الصبر جنة
منن الرجال على القلوب اشد من وقع الاسنة
ومن شروط المعروف ان لا يحتقر يسيرا وان كان قليلا نزرا اذا كان
الكثير معوزا او كان عنه عاجزا فان من حقر يسيره منع منه اعجزه
كثيره فامتنع منه وفعل قليل الخير افضل من تركه وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تمنعكم من معروف صغره
وقال عبد الله بن جعفر لا تستحيي من القليل فان البخل اقل منه
ولا تجبن عن الكثير فانك اكثر منه وقال الشاعر
اعمل الخير ما استطعت وان كان يسيرا فلن تحيط بكله
ومتى تفعل الكثير من الخير اذا انت تاركا لاقله
على ان من المعروف ما لا كلفة على موليه ولا مشقة على مسديه وانما

هو جاه يستظل به الادنى وينتفع به التابع وقد قال الشاعر
ظل الفتى يرفع من دونه وما له في ظله حظ
واعلم انك لن تستطيع ان توسع جميع الناس معروفك ولا ان تولهم احسانك
فاعتمد بذلك اهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوي الرغابة والود
ليكون معروفك فيهم ناميا وصنيعك زاكيا وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال لا ينفع الصنيعة الا عند ذي حسب ودين
وقال النبي صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد خيرا جعل صنايعه
في اهل الحفاظ وقال حسان بن ثابت
ان الصنيعة لا تكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع
فاذا صنعت صنيعة فاعمل بها لله او لذوي القرابة او دع
وقيل في منثور الحكم لا اجر في معروف الى غير عروف وقد ضرب به
الشاعر مثلا فقال كحمار السوء ان اشبعته رمح الناس وان جاع نهق
وقال بعض الحكما على قدر المغارس يكون اجتنا الغارس
فاخذه بعض الشعرا فقال
لعمرك ما المعروف في غير اهله وفي اهله الا كبعض الودايع
فمستودع ضاع الذي كان عنده ومستودع ما عنده غير ضايع
وما الناس في شكر الصنيعة عندهم وفي كفرها الا كبعض المزارع
فمزرعة طابت واضعف نبتها ومزرعة اكدت على كل زارع
فاما من اسدى اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد صار باسد
المعروف موثوقا وفي ملكة الاحسان مرقوقا ولزمه ان كان من
اهل المكافاة ان يكافي عليها وان لم يكن من اهلها ان يقابل المعروف

بنشره ويقابل الفاعل بشكره فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال من اودع معروفا فلينشره فان نشره فقد شكره وان كتمه
فقد كفره وروى ابن الزهري عن عروة عن عايشه رضي الله عنها
قالت دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا اتمثل بهذين البيتين

ارفع ضعيفك لا يحل بك ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نمى
يجزيك او يثني عليك وان من اثنى عليك بما فعلت فقد جزا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردي علي قول اليهودي قاتله الله
لقد اتاني جبريل برسالة من ربي تعالى ايما رجل صنع الى اخيه
صنيعة فلم يجد لها جزا الا الدعا والثنا فقد كافاه وقيل في منثور
الحكم الشكر قيد النعم وقال عبد الحميد من لم يشكر الانعام
فاعدده من الانعام وقيل في منثور الحكم فيه كل نعمة شكرها
وقال بعض الحكما كفر النعم من علامات البطر واسباب
الغير وقال بعض البلغا لا زوال للنعمة مع الشكر ولا بقا لها
مع الكفر وقال بعض الادبا شكر الاله بطول الثنا وشكر
الولاة بصدق الولا وشكر النظير بحسن الجزا وشكر من دونك بسيب
العطا وقال بعض الشعرا

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد لعزة ملك او علو مكان
لما امر الله العباد بشكره فقال اشكروا لي ايها الثقلان

وان شكر معروف من احسن اليه ونشر انعام فضال من انعم عليه
فقد ادى حق النعمة وقضى موجب الصنيعة ولم يبق عليه الا استدامة
ذلك انما لشكره ليكون للمزيد مستحقا ولمتابعة الاحسان

110

مستوجبا حكي ان الحجاج اتي بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له
فامر بقتلهم الا ذلك الصديق فانه عفى عنه واطلقه ووصله فرجع
الرجل الى قطري وكان من اصحابه فقال له عد الى قتال عدو الله
الحجاج فقال هيهات غل يدا مطلقها واسترق رقبة معتقها وانشا يقول

أأقاتل الحجاج في سلطانه بيد تقر بانها مولاته
اني اذا لاخو الدناة والذي شهدت باقبح فعله غدراته
ماذا اقول اذا وقفت ازاءه في الصف واحتجت له فعلاته
اقول جار علي لا اني اذا لاحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الاقوام ان صنايعا غرست لدي فحنظلت نخلاته

وقيل في منثور الحكم المعروف رق والمكافاة عتق ومن اسلم الناس الذي يقول

لاشكرنك معروفا هممت به ان اهتمامك بالمعروف معروف
ولا الومك ان لم يمضه قدر فالشي بالقدر المحتوم مصروف

وهذا النوع من الشكر الذي يتعجل ويتقدم البر فقد يكون على وجوه
ويكون تارة من حسن الثقة بالمشكور في وصول بره واسد لعرفه
ولا راي لمن حسنت به ظن شاكر ان يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال الغساني

فلا ورقت فيك امالي بوعدك لي ولست في ورق الامال لي ثمر

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجي وحسن مكافاة للامال
فلا يرضى لنفسه الاستعجال الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف
لمعروفه معدنا زاكيا ومغرسا ناميا ان يفوت نفسه غنمها ولا يحرمها
نتاجها فهذا وجه ثان وقد يكون تارة ارهابا للمامول وحثا للمسول وبحسب
ما اسلف من الشكر يكون الذم عند الاياس قال بعض حكما المتقدمين

من شكر على معروف لم يشده اليه تعاجله بالبر ولا الا انعكس فصار
دما وقال ابن الرومي

وما الحقد الا توم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذي اساءة فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الارض ادت ريع ما انت زارع من البذر فيها فهي ناهيك من ارض

فاما من سئم معروف المنعم ولم يشكر على ما اولاه من نعم فقد كفر النعمة وجحد الصنيعة واتى ذم الخلائق وسوء الطرائق ما يستوجب به قبح الرد وسوء المنع فقد روى ابو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يشكر الله من لا يشكر الناس وقال بعض الناس من لم يشكر لمنعمه استحق قطع النعمة وقال بعض الفصحاء من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد وقال بعض الادباء من انكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة وانشدني بعض الادباء ما ذكر انه لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه

من جاور النعمة بالشكر لم تخش على النعمة مغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لازيدنكم لكنما كفرها غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى زوالها والشكر ابقى لها

وهذا اخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من اسباب الالفة الجامعة

فاما القاعدة الثالثة فهي المادة الكافية لان حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر قال الله تعالى وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين واذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم تستقم له دنيا واذا تعذر شيء منها عليه لحقه

من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة اليها اعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب واسباب المواد مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلافها في اسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها لئلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون ويشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون ثم هداهم اليها بعقولهم وارشدهم اليها بطاعتهم حتى لا يتكلفوا ابتغائها في المعايش المختلفة فيعجزوا ولا يبعد عنهم تقلدهم موادهم بالمكاسب المتشعبة فيخلوا احكم منه اطلع بها على عواقب الامور وقد ابان الله تعالى في كتابه اخبارا واذكارا بقوله سبحانه فقال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى فاختلف المفسرون في تاويل ذلك فقال معناه اعطى كل شيء خلقه ثم هداه له وقال مجاهد اعطى كل شيء صورته ثم هداه لمكان معيشته وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا يعني معايشهم متى يزرعون ومتى يغرسون وهم عن الاخرة هم غافلون وقال تعالى وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين قال عكرمة قدر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد وقال الحسن البصري وعبد الرحمن بن زيد قدر ارزاق اهلها سواء للسائلين الزيادة في ارزاقهم ان الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وارشدهم اليه من معايشهم دينا لهم يكون حكما

همم وشتتها عليهم فيما ليصلوا الى موادهم بتقديره ويطلبوا اسباب
مكاسبهم بتدبيره حتى لا ينفردوا بارادتهم فيتغالبوا فتستولي
عليهم اهواهم فيتقاطعوا قال الله تعالى ولو اتبع الحق اهواهم لفسدت
السموات والارض قال المفسرون الحق في هذا الموضع هو الله جل وعلا
ولاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالالهام حتى جعل العقل هاديا
اليها والدين قاضيا عليها ليتم السعادة وتعم المصلحة ثم انه جلت
عظمته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين بمادة
وكسب فاما المادة فهي حادثة عن اقتنا اصول نامية بذواتها وهي شيئان
نبت نام وحيوان متناسل قال الله تعالى وانه هو اغنى واقنى
قال ابو صالح اغنى خلقه بالمال واقنى جعل لهم قنية هي اصول
الاموال واما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف
المودي الى الحاجة وذلك من وجهين احدهما تقلب في تجارة والثاني
تصرف في صناعة وهذان الوجهان هما فرع لوجهي المادة فصارت
اسباب المواد المالوفة وجهات المكاسب المعروفة من اربعة اوجه
نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة وقد حكى الحسن بن
رجا نحو ذلك عن المامون قال سمعته يقول الناس على اربعة اقسام
زراعة وصناعة وتجارة وامارة فمن خرج منها كان كلا عليها
واذ قد تقررت اسباب المواد بما ذكرنا فسنصف حال كل واحد
منها بقول موجز اما الاول من اسبابها وهي الزراعة فهي مادة اهل
الحضر وسكان الامصار والمدن والاستمداد بها اشد نفعا واوفر فرعا
ولذلك ضرب الله به المثل فقال مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل

عف

الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف
لمن يشاء وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال عين ساهرة
لعين نائمة وقال النبي صلى الله عليه وسلم نعمت لكم النخلة تشرب
من عين خرارة وتغرس في ارض خوارة وقال صلى الله عليه وسلم
في النخل هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل وقال بعض السلف
خير المال عين خرارة في ارض خوارة تسهر لها اذا نمت
وتشهد اذا غبت وتكون عقبا اذا مت وروي هشام بن عروة
عن عايشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق
في خبايا الارض يعني الزرع وحكي عن المعتضد انه قال رايت
علي بن ابي طالب عليه السلام في المنام فناولني مسحاة وقال خذها فانها
مفاتيح خزاين الارض وقال كسرى للموبذ ما فيه تاج هذا
فاطرق ساعة ثم قال ما اعرف له فيه الا ان يكون مطرة
في نيسان فانها اصلح معايش الرعية ما يكون فيه مثل مقدار تاج الملك
ولقي عبد الله بن عبد الملك لابن شهاب الزهري فقال ادللني على مال
اعالجه فانشا ابن شهاب يقول

تتبع خبان الارض وادع مليكها لعلك يوما ان تجاب فترزقا
فيوتيك مالا واسعا ذا مثابة اذا ما مياه الارض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما لم يتسع كتابنا هذا لبسط
القول فيه غير ان من فضل الزرع فلقرب مداه وفور حصاده ومن
فضل الشجر فلثبوت اصله وتوالي ثمرته واما الثاني من اسبابها وهو
نتاج الحيوان فهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لانهم لما لم يستقر

بهم دار ولم تضمهم امصار افتقروا الى الاموال المتنقلة وما لا ينقطع
نماوه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لانه ينتقل في النقلة ويستغني
في العلوفة برعيته ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناوه على اهل
الخيام ايسر لقلة مونته وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه الى
لوفور نسله واتساع رسله الهاما من الله تعالى الخليقة في تعديل
المصالح فيهم وارشاد العباد في قسمة المنافع بينهم وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال مهرة مامورة وسكة
مابورة ومعنى قوله مهرة مامورة اي كثيرة النسل ومنه ما تاول
الحسن وقتادة قوله تعالى امرنا مترفيها ففسقوا فيها اي اكثرنا عددهم
واما السكة المابورة فهي النخلة الموبرة الحمل وروي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال في الغنم سمنها معاش وصوفها رياش وروي
عن ابي ظبيان قال قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما لك يا ابا
ظبيان قال قلت عطائي الفان قال اتخذ من هذا الحرث والسيابا
قبل ان يليك غلمة من قريش لا تعد العطا معهم مالا والسيابا النتاج
وروي ان امراة اتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله اني
اتخذت غنما ابتغي نسلها ورسلها ولبنها وانها لا تنمي فقال لها النبي صلى
الله عليه وسلم ما الوانها قالت سود فقال عفري اه وهذا مثل
قوله في مناكح الادميين اغتربوا لا تضووا اه واما الثالث من اسبابها
وهو التجارة فهي فرع لمادتي الزرع والنتاج وقد روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال تسعة اعشار الرزق في التجارة والجزء الباقي في السيابا
وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واحتكار

قد رغب عنه اولو الاقدار وزهد فيه ذوو الاخطار والثاني تقلب
المال بالاسفار ونقله الى الامصار فهذا اليق باهل المروة واعم جدوى
ومنفعة غير انه اكثر خطرا واعظم غررا وقد روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال ان المسافر وماله لعلى قلت الا ما وقى الله يعني على
خطر وقيل في التوراة يا ابن ادم احدث سفرا احدث لك رزقا واما
الرابع من اسبابها وهو الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الاسباب
الثلاثة وينقسم اقساما ثلاثة صناعة فكر وصناعة عمل وصنا عة
مشتركة بين فكر وعمل لان الناس الان الصناعات واشرفهم
نفسا من لا يشرف فيها حسا كما ان ارذلهم نفسا من لا يرذلها حسا لان
الطبع يدلك سعي على ما لائمه ويدعوا الى ما جانسه حكي ان الاسكندر
لما اراد الخروج الى اقاصي الارض قال لارسطاطاليس اخرج معي قال قد
نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا تزعجني قال فما اصنع في عمالي
خاصة قال انظر من كان له عبيد فاحسن سياستهم فوله الجند
ومن له ضيعة فاحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطبايع على ما اعتبا
من الخبرة واشرف الصناعات صناعة الفكر وارذلها صناعة العمل لان
العمل نتيجة الفكر وهو مدبر به فاما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين
احدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الارا الصحيحة
لسياسة الناس وتدبير البلاد وقد افردنا للسياسة كتابا اختصا فيه من
جملها ما ليس يحتمل هذا الكتاب وزيادة عليه والثاني ما اردت الى
المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وقد مضى في العلم من كتابنا
هذا اغنى ما فيه عن زيادة قول فيه واما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين

عمل صناعي وعمل بهيمي فالعمل الصناعي عملي اعلاهما رتبة لانه يحتاج الى معاطاة
في تعلمه ومعاناة في تصوره فصار اخذ الحظ من المعلومات الفكرية
والاخر فاما هو صناعة عملية رواه مهنة وهي الصناعة التي تقصر عليها
النفوس الذلة وتنفر عنها الطباع الكاسية كما قال اكثم بن صيفي
اكل ساوطة لا وطئة وقد قال المتلمس

ولا يقيم على ضيم يراد به الا الاذلان عير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثي له احد

واما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين احدهما
ان يكون صناعة الفكر اغلب والعمل تبعا كالكتابة والثاني
ان يكون صناعة العمل اغلب والفكر تبعا كالبناء واعلاهما رتبة ما
كان الفكر اغلب عليها والعمل تبعا لها فهذه احوال الخلق التي
ركبهم الله تعالى عليها في ارتياد موادهم وكلهم الى فطرهم
في طلب مكاسبهم وفرق في التماسها بين هممهم ليكون ذلك
سببا لائتلافهم فسبحان من تفرد فيها بلطف حكمته والطف
لفطنتنا عن ادراك قدرته واذ قد وضح القول في اسباب المواد
وجهات المكاسب فليس يخلو حال الانسان فيها من ثلاثة
امور احدها ان يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته
من غير ان يتعدى الى زيادة عليها او يقتصر على نقصان منها
فهذه اعدل احوال الطالبين واعدل مراتب المقتصدين وقد
روى قتادة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال
اوحى الله تعالى الي كلمات فدخلن في اذني ووقرن في قلبي من اعطى

فضل ماله

فضل ماله فهو خير له ومن امسك فهو شر له ولا يلوم الله على كفاف
وروى حميد عن معاوية بن جندة قال قلت يا رسول الله ما يكفيني
من الدنيا قال ما سد جوعتك وستر عورتك فان كان لك دار فذاك
وان كان لك حمار فبخ بخ فلق من خبز وجر من ماء وانت مسؤول عما فوق
الازار وقد حكي عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى اذ جعل فيكم
انبياء وجعلكم ملوكا ان كل من ملك بيتا وزوجة وخادما
فهو ملك وروى زيد بن اسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم من كان له بيت وخادم فهو ملك وليس على من طلب قدر
الكفاية ولم يتجاوز وتجنب الزيادة الا ان يتوخى الحلال منه واجمال
الطلب فيه ومجانبة الشبهة المازجة له فقد روى نافع عن ابن عمر
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام
بين فدع ما يريبك الى ما لا يريبك فلن تجد فقد شيء تركته لله
وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال
اما انه ليس باضاعة المال ولا تحريم الحلال ولكن ان تكون بما في يد الله
اوثق منك بما في يدك وان تكون ثواب المصيبة ارجح عندك
من بقائها وحكى عبد الله بن المبارك قال كتب عمر بن عبد
العزيز رضي الله عنه الى الجراح بن عبد الله الحكمي ان استطعت
ان تدع مما احل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام
فافعل فانه من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام
وقد اختلف اهل التاويل في قوله تعالى فان له معيشة ضنكا
فقال عكرمة يعني كسبا حراما وقال ابن عباس هو الانفاق

ما الا بوقن باكلف وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقرب فان حسنت
رقيتها والا فلا تقربها وقيل من قل توقيه كثرت مساويه
وقال بعض البلغا خير الاموال ما اخذته من الحلال وصرفته
في النوال وشر الاموال ما اخذته من الحرام وصرفته في الاثام وكان
الاوزاعي الفقيه كثيرا ما يتمثل بهذه الابيات

المال ينفد حله وحرامه يوما ويبقى بعده اثامه
ليس التقي المتقي لالهه حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يحوي ويكسب اهله ويطيب من لفظ الحديث كلامه

حكي عن بن المعتمر السلمي انه قال الناس ثلاثة اصناف
اغنيا وفقرا واوساط فالفقرا موتى الا من اغناه الله بعز القناعه
والاغنيا سكارى الا من عصمه الله بتوقع الغير واكثر الخير
مع اكثر الاوساط واكثر الشر مع اكثر الفقرا والاغنيا لسخف
الفقر وبطر الغني والحاله الثانيه ان يقصر عن طلب كفايته
ويزهد في التماس مادته وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة
اوجه فيكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا وتقنعا
فان كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح الاغتباط
فلن يعدم ان يكون ممضيا او صابحا شقيا وروي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كاد الحسد ان يغلب القدر
وكاد الفقر ان يكون كفرا وقال بزرجمهر ان كان
شي فوق الحياة فالصحه وان كان شي مثلها فالغني وان كان
شي فوق المرض وان كان شي مثله فالفقر وقيل في منثور الموت

الحكم

الحكم القبر خير من الفقر ووجد في نيل مصر مكتوب على حجر
عاقبة الصبر نجاح وغنى وورد الفقر من نسج الكسل
وقال بعض الشعرا

اعوذ بك اللهم من بطر الغني ومن نكبة البلوى ومن ذلة الفقر
ومن امل يعتد في كل شارق ويرجعني منه بخط يد صفر
اذا لم تدنسني الذنوب بعارها فلست ابالي ما تشعب من امري

وان كان تقصيره لتوكل فذاك عجز قد اعذر به نفسه وترك
حزم قد غير اسمه لان الله تعالى انما امر بالتوكل عند انقطاع
الحيل والتسليم الى القضا بعد الاعذار وقد روى معمر عن ايوب
عن ابي قلابة قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فذكر
فيه خير قالوا يا رسول الله خرج معنا حاجا فاذا نزلنا
منزلا لم يزل يصلي حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله حتى
نزل قال فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا
كلنا قال فكلكم خير منه وقال بعض الحكما من توكل
المرء ضاعة للحزم ولا من الحزم اضاعة نصيبه من التوكل وان
كان تقصيره لزهد وتقنع فهذه حال من علم محاسبة نفسه
تبعات الغنى والثروة وخاف عليها بوايق الهوى والقدره
فاثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى وقد
روي عن ابي الدردا انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما من يوم طلعت فيه شمسه الا وجنبتها ملكان يناديان يسمعه
الله الخلق كلهم الا الثقلين يا ايها الناس هلموا الى ربكم ان ما قل وكفى

خير مما اكثر والهى وقد روى زيد بن علي بن الحسين عن ابيه عن جده
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج من الله بالصبر
عبادة ومن رضي بالقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل من العمل وقد
روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال من مثل الفقر
انك لا تجد احدا يعصي الله ليفتقر فاخذه محمود الوراق

يا عائب الفقر الا ازدجر عيب الغنى اكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى ان صح منك النظر
انك تعصي لتنال الغنى ولست تعصي الله كي تفتقر
ذلك ان الفقر خير من الغنى وان القليل المال خير من المثر — وقال بن المقفع
لقاؤك مخلوقا عصى الله بالغنى ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر

وهذه الحال انما تصح لمن نصح نفسه فاطاعته وصدقها فاجابته
حتى لان قيادها وهان عنادها وعلمت ان من لم يقنع بالقليل
لم ينتفع بالكثير كتب الحسن البصري الى عمر بن عبد العزيز رضي الله
عنه يا اخي من استغنى بالله اكتفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان
من قليل الدنيا لا يشبع لم يغنه منها كثرة ما يجمع فعليك بالكفاف
والزم نفسك العفاف واياك وجمع الفضول فان حسابه يطول
وقال بعض الحكماء هيهات مثل الغنى ان لم يقنعك ما حويت
فاما من عزفت نفسه عن قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهده
فليس الى اكراهها سبيل ولا الى الحمل عليها وجه الا بالرياضة والمروة
وان يستنزلها عن السبوري الذي لا ينفر عنه واذا استنفرت عليه
استنزلها المطلق به وتستقر بالرياضة والمرون على الحالة المحبوبة — بنظر

116

فقد تقدم قول الحكماء ان المكره شبيها بالمرون فهذا حكم ما في الحالة
الثانية من المقصر عن طلب الكفاية فاما الحالة الثالثة فهو ان لا
يقتنع بالكفاية ويطلب الكثرة والزيادة فقد يدعو الى ذلك اربعة
اسباب احدها منازعة الشهوات التي لا تنال الا بزيادة المال وكثرة
المادة فاذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله اليها وليس للشهوات
حد متناه فيصير ذلك ذريعة الى ان ما يطلبه من الزيادة غير متناه ومن
لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه ومن استدام الكد والتعب
لم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده واتعابه
مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب
التبعات حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها الى ما يدعوا اليه شهوتها
فلا ينزجر عنه لعقل ولا ينكف عنه بقناعة وقد روي عن علي بن ابي طالب
عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من اراد الله
به تعالى خيرا حال بينه وبين شهوته وحال بينه وبين قلبه واذا اراد
الله به شرا وكله الى نفسه وقد قال الشاعر

وانك ان اعطيت بطنك همه وفرجك نالا منتهى الذم اجمعا

والسبب الثاني ان يطلب الزيادة ويلتمس الكثرة ليصرفها في وجوه الخير
ويتقرب بها في جهات البر ويصطنع بها المعروف ويغيث بها الملهوف
فهذا اعذر وهو بالحمد احرى واجدر اذا انفرقت عنه تبعات المطالب
وتوقى شبهات المكاسب ولحسن التقدير في حالتي فائدته
وافادته على قدر الزمان وبقدر الامكان لان المال آلة المكارم
وعون على الدين ومتالف للاخوان ومن فقده من ابناء الدنيا فان الرغبة

فيه والرهبة منه ومن لم يكن منهم موضع رهبة ولا رغبة استهانوا
به وقد روى عبد الله بن بريدة عن ابيه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ان احساب اهل الدنيا هذا المال وقال مجاهد الخير في القران
كله المال انه لحب الخير لشديد يعني المال واحببت حب الخير عن
ذكر ربي يعني المال وكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا يعني مالا وقال
شعيب اني اراكم بخير يعني الغنا والمال وانما سمى الله تعالى المال خيرا
اذا كان في الخير مصروفا لان ما ادى الى الخير فهو في نفسه خير
وقد اختلف اهل التاويل في قوله تعالى ومنهم من يقول ربنا اتنا في
الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار قال السدي
وعبد الرحمن بن زيد الحسنة في الدنيا المال وفي الاخرة الجنة وقال
الحسن البصري وسفيان الثوري الحسنة في الدنيا العلم والعبادة
وفي الاخرة الجنة وقال عبد الله بن عباس الدراهم والدنانير خواتيم
الله في الارض لا توكل ولا تشرب حيث قصدت بها قضيت حاجتك وقال
قيس بن سعد اللهم ارزقني حمدا ومجدا فانه لا حمد الا بفعال
ولا مجد الا بمال وقيل لابي الزناد لم تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا
فقال هي وان ادنتني منها فقد صانتني عنها وقال بعض الحكما
من اصلح ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض وقيل في منثور
الحكم من استغنى كرم على اهله ومر رجل من ارباب الاموال
ببعض العلما فتحرك له واكرمه فقيل له بعد ذلك الك اليه حاجة
قال لا ولكني رايت ذا المال مهيبا وسال رجل محمد بن عمير
بن عطارد وعتاب بن ورقا في عشر ديات فقال محمد علي دية وقال

وقال عتاب والباقي علي فقال محمد نعم العون اليسار على المجد
وكان يقال الدراهم مراهم لانها تداوي كل جرح وتطيب بها كل صلح
وقيل في منثور الحكم الفقر المخذلة والغنى مجدلة والبوس مرذلة والمسـ لـ
مبذلة وقال اوس بن حجر اقيم

اقيم بدار الحزم ما دام حزمها ... واحر اذا حالت بان اتحولا
فاني وجدت الناس الا اقلهم ... خفاف العهود يكثرون التنقلا
بني ام ذي المال الكثير يرونه ... وان كان عبدا سيد الامر جحفلا
وهم لمقل المال اولاد علة ... وان كان محضا في العمومة مخولا

وقال اخر

اجلك قوم حين صرت الى الغنى ... وكل غني في العيون جليل
وليس غنى الا غنى زين الفتى ... عشية يقري او غداه ينيل

وقد اختلف اقوال الناس في الفقر والغنى مع اتفاقهم انما احوج من
الفقر مكروه وما ابطر من الغنى مذموم فذهب قوم الى تفضيل الغنى
على الفقر لان الغني مقتدر والفقير عاجز والقدرة افضل من
العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب اخرون
الى تفضيل الفقر على الغنى لان الفقير تارك والغني ملابس وترك الدنيا
افضل من ملابستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة وذهب
اخرون الى تفضيل التوسط بين الامرين بان يخرج عن حد الفقر
الى ادنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة الحالين
وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وان خيار الامور اوسا طها
وقد مضى من شواهد كل فريق في موضعه ما اغنى عن اعادته له
والسبب الثالث ان يطلب الزيادة ويقتني الاموال ليدخرها لولده

وبخلها على وارثه مع شدة ظنته على نفسه وكفه عن صرف ذلك
في حقه اشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب وهذا
شقي بجمعها مأخوذ بوزرها قد استحق اللوم واستوجب الذم من
وجوه لا تخفى على ذي لب منها سوء ظنه بخالقه في انه لا يرزقهم
الا من جهته ومنها قيل القنوط صاحبه وفي حسن الظن بالله
تعالى راحة القلوب وقال عبد الحميد كيف تبقى على حالتك والدهر
على احالتك ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده من نوائب الزمان
ومصائبه وقد قيل الدهر حسود لا يأتي على شيء الا غيره وقد قيل في
منثور الحكم المال ملول وقال بعض الحكماء الدنيا ان بقيت
لك لم تبق لها ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله وقد
قيل انما مالك لك او للوارث او للجائحة فلا تكن اشقى الثلاثة وقال
عبد الحميد اطرح كواذب امالك ولن وارث مالك ومنها ما لحقه من شقاء
جمعه وناله من عنائه حتى صار ساعيا محروما وجاهلا مذموما
وقد قيل رب مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه

وقال الشاعر

ومن كلفته النفس فوق كفافها فما ينقضي حتى الممات عناؤه

ومنها ما يؤاخذ به من وزره وآثامه وكاسب عليه من تبعاته واجرامه
كما حكي ان هشام بن عبد الملك لما ثقل بكى عليه ولده فقال لهم
جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما كسب
وتركتم عليه ما اكتسب ما اسوأ حال هشام ان لم يغفر الله له فاخذ هذا
المعنى محمود الوراق فقال

تمتع بمالك قبل الممات والا فلا مال ان انت متا

شقيت به ثم خلفته لغيرك بعدا وسحقا ومقتا
فجادوا عليك بزور البكا وجدت لهم بالذي جمعتا
وارهنتهم كل ما في يديك وخلوك رهنا بما قد كسبتا

وقد روي ان العباس بن عبد المطلب جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال يا رسول الله ولني فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا عباس
يا عم النبي قليل يكفيك خير من كثير يوديك يا عباس يا عم النبي
نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها يا عباس يا عم النبي ان الامارة اولها
ندامة واوسطها ملامة واخرها خزي يوم القيامة فقال يا رسول
الله الا من عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف يعدل وان
مع الاقارب وقال رجل للحسن البصري لم اخاف الموت واكرهه
فقال انك خلفت مالك ولو قدمته لسرك اللحاق به وقيل في
منثور الحكم لذة مال الميت يعزي ودينه عنه فاخذ هذا المعنى ابن الرومي

ابقيت مالك ميراثا لوارثه فليت شعري ما ابقى لك المال
القوم بعدك في حال تسرهم فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء فما يبكيك من احد واستحكم القول في الميراث والقال
واثنتهم عنك دنيا اقبلت لهم وادبرت عنك والايام احوال

والسبب الرابع ان يجمع المال ويطلب المكاثرة استحلاء لجمعه وشغفا
باحتجانه فهذا اسوأ الناس حالا فيه واشدهم حرمانا له قد توجهت
اليه سائر الملاوم حتى صار وبالا عليه ومذاما له وفي مثله قال
الله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في
سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم وقال النبي صلى الله عليه وسلم

تبا للذهب تبا للفضة قال فشق ذلك على اصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقالوا فاي مال نتخذ قال عمر انا اعلم لكم ذلك فقال
يا رسول الله ان اصحابك شق عليهم وقالوا فاي مال نتخذ فقال
لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مومنة تعين احدكم على دينه
وروي شهر بن حوشب عن ابي امامة قال مات رجل من اهل
الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي صلى الله عليه وسلم كية
ثم مات اخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي صلى الله عليه وسلم
كيتان وانما ذكر ذلك فيهما وان كان قد مات على عهده
من ترك اموالا جمة واحوالا ضخمة فلم يكن منه ما كان منه في
هذين لانهما ظاهرا بالقناعة واحتجنا ما لم يلجئهما اليه حاجة
فصار ما احتجنا وزرا عليهما وعقابا لهما وقد قال الشاعر

اذا لك ذا مال ولم تك ذا ندى فانت اذا والمقترون سوا
على ان في الاموال يوما تباعة على اهلها والمقترون برا

وانشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

ان الذي رزق اليسار فلم يصب حمدا ولا اجرا لغير موفق
والجد يدني كل شي شاسع والجد يفتح كل باب مغلق
واحق خلق الله بالهم امرو ذو همة يبلى بعيش ضيق
ومن الدليل على القضا وكونه بوس اللبيب وطيب عيش الاحمق

وانه من بلي بالجمع والاستكثار ومني بالامساك والادخار حتى انصرف
عن رشده بغويه وانحرف عن سنن قصده فهوى ان يستولي عليه
حب المال على الحرص في طلبه ويدعوه بعد الامل الى الشح به والشح والحرص

اصل كل ذم وسبب كل لوم لان الشح يمنع اداء الحقوق ويبعث
على القطيعة والعقوق ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر
ما اعطي المرء شح هالع وجبن خالع وقال بعض الحكما الغني البخيل
كالقوي الجبان واما الحرص فيسلب فضايل النفس لاستيلايه
عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط
في الشبهات لقلة تحرزه منها وهذه ثلاث خلال جامعات للرذايل
وسالبات الفضايل مع ان الحريص لا يزيد بحرصه زيادة على الرزق
سوى اذلال نفسه واسخاط خالقه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال الحريص الجاهل والقنع الزاهد يستوفيان اكلهما غير
منتقص منه شيا فعلام التهافت في النار وقال بعض الحكما
الحرص مفسدة للدين والمروة والله ما عرفت في وجه رجل حرص
فرايت ان فيه مصطنعا وقال اخر الحريص اسير مهانة لا يفك
اسره وقال بعض البلغا المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة
والارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمكالبة فذلل للمقادير
نفسك واعلم انك غير نايل بالحرص الا حظك وقال بعض الادبا
رب حظ ادركه غير طالبه ودر احرزه غير جالبه وانشدني بعض اهل
الادب لمحمد بن ابي حازم

يا اسير الطمع الكاذب في غل الهوان ان عز الياس خير لك من ذل الاماني
سلم الدهر اذا عز وخذ صفو الزمان ربما عاد ذوو الحرص واثرى ذو التواني

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها
لانه ان وصل بالحرص الى ما امل اغراه ذلك بزيادة الحرص والامل وان لم

بجمل رأي اضاعة الغنا يوما والصبر عليه حزما وصار بما سلف من تجاربه
اقوى رجاء وابسط املا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
يشيب ابن ادم ويبقى معه خصلتان الحرص والامل وقيل للمسيح عليه
السلام ما بال المشايخ احرص على الدنيا من الشباب قال لانهم ذاقوا
من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب ولو صدق الحريص نفسه واستنصح
عقله لعلم ان من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضا بالقضا والقدر
والقناعة بالقسم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقتصدوا
في الطلب فان ما لم تعطوه اشد طلبا لاحدكم منكم له وما حرمتموه فلن تنالوه
ولو حرصتم وروي ان جبريل عليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وسلم
فقال ان الله تعالى يقرا عليك السلام ويقول اقرا بسم الله الرحمن الرحيم
لا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه
ورزق ربك خير وابقى فامر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا ينادي من
لم يتادب بادب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات وقيل
مكتوب في بعض الكتب ردوا ابصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا
وقال مجاهد في تاويل قوله تعالى فلنحيينه حياة طيبة
قال بالقناعة وقال اكثم بن صيفي من باع الحرص بالقناعة ظفر
بالغنى والثروة وقال بعض السلف قد يخيب الجاهد الساعي ويظفر
الوادع الهادي فاخذه البحتري فقال

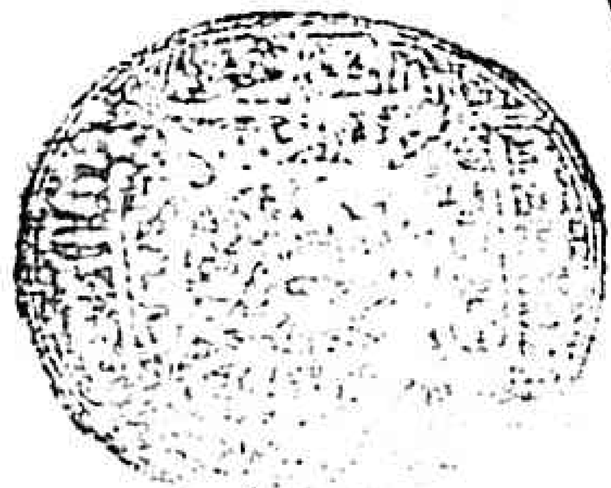
لم الق مقدورا على استحقاقه في الحظ اما ناقصا او زايدا
وعجبت للمحدود يحرم ناصبا طلقا وللمجدود يغنم قاعدا
ما خطب من حرم الارادة وادعي خطب الذي حرم المراده

جاهدا

وقال بعض الحكما من قنع كان غنيا وان كان فقيرا ومن لم
يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغا اذا طلبت
العز فاطلبه بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن اطاع الله
عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره وقال بعض الادبا القناعة
عز المعسر والصدقة حرز الموسر وقال بعض الشعرا

اني ارى من له قنوع يدرك ما نال او تمنا
والرزق ياتي بلا عنا وربما فات من تعنا

والقناعة قد تكون على ثلاثة اوجه فالوجه الاول يقنع بالبلغة من
دنياه ويصرف نفسه عن المتعرض لما سواه وهذا اعلا منازل اهل القناعة
وقيل اذا شئت ان تحيا غنيا فلا تكن على حالة الا رضيت بدونها وقال
مالك بن دينار ازهد الناس من لم تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته
وقال بعض الحكما الرضا بالكفاف يودي الى العفاف
وقال بعض الادبا يا رب ضيق افضل من سعة وعنا خير من دعة
وانشد بعض اهل الادب وذكرها لعلي بن ابي طالب عليه السلام



افادتني القناعة اي عز واي غنى اعز من القناعه
فصيرها لنفسك راس مال وصير بعدها التقوى بضاعه
تحوز ربحا وتغنى عن بخيل وتنعم في الجنان بصبر ساعه

والوجه الثاني ان تنتهي به القناعة الى الكفاية وحذف الفضول
الزايدة وهذه اوساط احوال المقتنع وقد روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال ما من عبد الا بينه وبين رزقه حجاب فان قنع
فان قنع واقتصد اتاه رزقه وان هتك الحجاب لم يزد في رزقه وقال

بعض الحكما طلب ما كان فوق الكفاف اسراف وقال
بعض البلغا من رضي بالمقدور قنع بالميسور وقال البحتري

تطلب الاكثر في الدنيا وقد تبلغ الحاجة منها بالاقل

وانشدت لابراهيم بن المدبر ان القناعة والعفاف ليغنيان عن الغنى
فاذا صبرت عن المنى فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث ان ينتهي به القناعة الي الوقوف على ما سنح فلا يكره ما
اتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرا وهذه الحالة
ادنى منازل اهل القناعة لانها مشتركة بين رغبة ورهبة اما الرغبة
فلانه لا يكره الزيادة على الكفاية اذا سنحت واما الرهبة فلانه لا
يطلب المتعذر عن نقصان المادة اذا تعذر وفي مثله قال ذا النون
من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة وقد روى الحسين بن
علي عن ابيه عن جده عليهم السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم الدنيا دول فما كان منها لك اتاك على ضعفك وما كان منها
عليك لم تدفعه بقوتك ومن قطع رجاوه مما فات استراح بدنه ومن
رضي بما رزقه الله تعالى قرت عينه وقال ابو حازم الاعرج
وجدت الدنيا شيئا هو لي لن اعجله قبل اجله لو طلبته بقوة السموات
والارض وشيئا هو لغيري وذلك ما لم انله فيما مضى ولا اناله فيما بقي
منع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني ففي اي هذين افني عمري
واهلك نفسي وقال ابو تمام الطائي

لا تاخذيني بالزمان فليس لي تبعا ولست على الزمان كفيلا
من كان مرعى عزمه وهمومه روض الاماني لم يزل مهزولا

لو جار سلطان القنوع وحكمه في الخلق ما كان القليل قليلا
الرزق لا تكمد عليه فانه ياتي ولم يبعث اليه رسولا

وانشدني بعض اهل الادب لابن الرومي

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك ان تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

ونحن نسال الله تعالى اكرم مسؤول وافضل مامول ان يحسن لنا التوفيق
بما سنح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفافا لتبعات النزوع وموبقات
الشهوة وروى شريك عن ابي تميم عن ابن ابي الجدعا عن اعمامه واجداده
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال خيار امتي الذين لم
يعطوا حتى يبطروا ولم يقتر عليهم حتى يسالوا قال ابو تمام

عندي من الايام ما لو انه اضحى بشارب مرقد ما غمضا
لا تطلبن الرزق بعد شماسه وترومه سبعا اذا ما غيضا
ما عوض الصبر امرء الا اتى ما فاته دون الذي قد عوضا

باب ادب النفس

اعلم ان النفس مجبولة على شيم مهملة واخلاق مرسلة ولا يستغني محمودها
عن التادب ولا تكتفي بالمرضي منها عن التهذيب لان لمحمودها
اضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان اغفل تاديبها
تفويضا الي العقل او توكلا على ان تنقاد الي الاحسن بالطبع اعدمه
التفويض درك المجتهدين واعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الادب
عاطلا وفي صورة الجهل داخلا لان الادب مكتسب بالتجربة
ومستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وكل ذلك لا ينال بتوقيف

ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة
والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وفي الطبع اليه سلما ولو كان العقل
مغنيا عن الادب لكان انبيا الله عن ادبه مستغنيين وبعقولهم
مستكفيين وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
اني بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام من ادبك
فقال ما ادبني احد ولكني رايت جهل الجاهل فاجتنبته
وقال علي بن ابي طالب عليه السلام ان الله تعالى جعل مكارم
الاخلاق ومحاسنها وصلا بينكم وبينه فحسب الرجل ان يتصل من
الله بخلق منها وقال اردشير بن بابك من فضيلة الادب انه ممدوح
بكل لسان ومتزين به في كل مكان وباق ذكره على ايام الزمان
وقال مهبود بن سنه العالم الشريف العديم الادب بالبنيان
الخراب الذي كلما اعلا سمكه كان اشد لوحشته وبالنهر اليابس الذي
كلما كان اعرض واعمق كان اشد لوعورته وبالارض الجيدة المعطلة
التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافا وصار للهوام
مسكنا وقال ابن المقفع ما نحن الى ما يقوي به حواسنا
من المطعم والمشرب باحوج منا الى الادب الذي هو لقاح عقولنا
فان الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر ان تطلع زهرتها ونضارتها الا بالما
الذي يعود اليها من مستودعها وحكى الاصمعي ان اعرابيا قال لابنه
يا بني الادب دعامة ايد الله تعالى بها الالباب وحلية زين الله
تعالى بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغني وان صح غريزته
عن الادب المخرج زهرته كالارض لا يستغني وان عذبت تربتها عن

الما المخرج ثمرتها وقال بعض الحكما الادب صورة العقل فصور
عقلك كيف شئت وقال اخر العقل بلا ادب كالشجر العاقر ومع الادب
كالشجر المثمر وقيل الادب احد المنصبين وقال بعض الادبا الفضل
بالعقل والادب لا بالاصل والنسب لان من سا ادبه ضاع نسبه ومن
قل عقله ضل اصله وقال بعض الادبا ذك قلبك بالادب كما تذكا
النار بالحطب واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرجوك راغب
ويخاف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويرجا عدلك وقال بعض العلما
الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة وقال
بعض الفصحا الادب يستر قبح النسب وقال بعض الشعرا

فما خلق الله مثل العقول ولا اكتسب الناس مثل الادب
وما كرم المرء الا التقى ولا حسب المرء الا النسب
وفي الحلم زين لاهل الحجى وافة ذي الحلم طيش الغضب
انى ذا ائتما كالما مختلطا بالترب تبطن عنه زهرة العشب

وانشده ابن الاصمعي

ارى العقل مولودا فلست ارى ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب
وكل من اخطاه في مواليده غريزة العقل حاكى البهم في الحسب

والتادب يلزم من وجهين احدهما ما لزم الوالد للولد في صغره
والثاني ما يلزم الانسان في نشوه وكبره فاما التادب اللازم للاب
فهو ان ياخذ ولده بمبادي الادب ليانس بها وينشو عليها ويسهل عليه
قبولها عند الكبر لاستيناسه بمبادئها في الصغر لان نشو الصغير
على الشي يجعله متطبعا به ومن اغفل في الصغر كان تادبه في الكبر
عسيرا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما نحل والد ولده

لحاله افضل من ادب حسن يفيده اياه او جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه
وقال بعض الحكما بادروا بتاديب الاطفال قبل تراكم الاشغال
وتفرق البال وقال بعض الشعرا

قد ينفع الادب الاحداث في صغر   وليس ينفع عند الشيبة الادب
ان الغصون اذا قومتها اعتدلت   ولن يلين اذا قومته الخشب

وقال اخر
ينشو الصغير على ما كان والده   ان العروق عليها ينبت الشجر

واما الادب اللازم للانسان عند نشوه وكبره فادبان ادب مواضعة واصطلاح وادب رياضة واستصلاح فاما ادب المواضعة والاصطلاح فيوخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلا واتفق عليه استحسان الادبا وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل يستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل يوجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيات اللباس حتى ان الانسان الان اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا للادب مستوجبا للذم لان فراق المالوف في العادة ومجانبة ما صار متفقا عليه بالمواضعة مفض في استحقاق الذم لان تحجر بالعقل ما لم يكن لمخالفته علة ظاهرة وفي حادث وقد كان جايزا في العقل ان يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسنا ويرون ما سواه قبيحا فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفا له من حيث انه كان جايزا في العقل ان يوضع على خلافه واما ادب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان جايزا محمولا على حال لا يجوز في العقل ان يكون بخلافها ولا ان تختلف العقلا في صلاحها وفسادها وما كان كذلك

فتعليله

فتعليله بالعقل مستنبط ووجوب صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما تاتي من ذلك شاهد الهمها الله ارشادا لها قال الله تعالى فالهمها فجورها وتقواها قال ابن عباس لها ما تاتي من الخير وتذر من الشر وسنذكر تعليل كل شي في موضعه فانه اولى واحق

فاول مقدمات ادب الرياضة والاستصلاح ان لا يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفي عنه مذموم شيمه ومساوي اخلاقه لان النفوس بالشهوات امرة وعن الرشد زاجرة وكذا قال الله تعالى ان النفس لامارة بالسو وقال النبي صلى الله عليه وسلم اعدا عدوك نفسك التي بين جنبيك ثم اهلك ثم عيالك ودعت اعرابية لرجل فقالت كبت الله كل عدو لك الا نفسك فاخذه بعض الشعرا فقال

قلبي الي ما ضرني داعي   يكثر اسقامي واوجاعي
كيف احترازي من عدوي اذا   كان عدوي بين اضلاعي

واذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها داع الى تحكيمها وتحكيمها داع الى سلاطتها وفساد الاخلاق بها واذا صرف حسن الظن بها عنها توسمها بما هي عليه من التسويف والمكر فانبطا عنها الجار عن معصيتها فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه العاجز من عجز عن سياسة نفسه وقال بعض الحكما من ساس نفسه ساد ناسه فاما سو الظن بها فقد اختلف الناس فيه فمنهم من قال كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد مناصحتها فان النفس وان كان لها مكر يردي فلها نصح يهدي فلما كان حسن الظن بها يعمي عن مساويها كان سو الظن بها يعمي عن محاسنها ومن عمي عن محاسن نفسه كان كمن

عمي عن مساويها لم ينف عنها شيئا ولم يعد إليها حسنا وقد قال
الجاحظ في كتاب البيان يجب أن يكون في التهمة لنفسه معتدل الحال
وفي حسن الظن بها مقتصدا فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها
فأودعها ذلة المظلومين وإن تجاوز بها الحق في مقدار حسن الظن
أودعها تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل
مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الوهن وقال الأحنف بن
قيس من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ومن هدم دينه كان لمجده أهدم
وذهب قوم إلى أن سوء الظن بها أبلغ في صلاحها وأوفر في اجتهادها
لأن للنفس جورا لا يملك إلا بالمنع وغرورا لا ينكشف إلا بالتهمة
لها لأنها محبوبة تجود إذا لا وتعرف مكرا فإن لم يسئ الظن بها غلب عليه
جورها وتموه عليه غرورها فصار بسيئها محسنا وبإساءته من أفعالها
راضيا وقد قال بعض الحكماء من رضي عن نفسه سخط عليه الناس وقال الشاعر

لم أرض عن نفسي مخافة سخطها ... ورضى الفتى عن نفسه إغضابها
ولو أنني عنها رضيت لقصرت ... عما تريد بمثله آدابها
وتبينت آثار ذاك فأكثرت ... عذلي عليه وطال فيه عتابها

وقد استحسن قول أبي تمام الطائي

ويسيء بالإحسان ظنا لا كمن ... هو بابنه وبشعره مفتون

فلم يروا إساءة ظنه بالإحسان ذما ولا استقلال عمله لوما لما أداه ذلك إلى
في الفضل وابعث على الازدياد وإذا عرف من نفسه ما تجن وتصون منها ما
يكن ولم يرطا وعما فيها نجى إذا كان غيا ولا صرف عنها ما يكره إذا
كان رشدا وقد ملكها بعد أن كان في ملكتها وعلتها بعد أن

كان في غلبتها وقد روى أبو حازم عن أبي هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشديد من غلب نفسه
وقال عون بن عبد الله إذا عصتك نفسك فيما كرهت فلا
تطعها فيما أحببت ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك وقال بعض العلماء
من قوي على نفسه تناهى في القوة ومن صبر عن شهوته بالغ في المروة
فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما اكتسب وجرم ما اجتنب بتقويم
عوجها وإصلاح فاسدها وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها
قالت يا رسول الله متى يعرف الإنسان ربه قال إذا عرف
نفسه ثم يراعي منها ما صلح واستقام من زيغ حدث عن إغفال
أو ميل يكون عن إهمال ليتم له الصلاح ويستديم له الاستقامة
فإن المغفل بعد المعاناة ضائع والمهمل بعد المراعاة زائغ وسنذكر
من أحوال أدب الرياضة والاستصلاح فصولا تحوي جل ما ألم مراعاته
من الأخلاق وتجب معاناته من الآداب وهي ستة فصول

الفصل الأول منها في مجانبة الكبر والإعجاب

لأنهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا عليه إصغاء
لنصح ولا قبول لتأديب لأن الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة
فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة
المتأدبين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بإبانة ما يكسبان من ذم ويوجبان
من لوم فنقول أما الكبر فيكسب المقت ويلهي عن التآلف ويوغر صدور
الإخوان وحسبك بذلك سوءا عن استقصاء ذمه ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس أنهاك عن الشرك بالله والكبر فإن

فان الله يكشف عنهما وقال اردشير بن بابك ما الكبر الا فضل حمق لم يدر
صاحبه اين يذهب به فيصرفه الى الكبر وما اشبه ما قال بالحق
وحكي ان مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب ابن ابي صفرة وعليه
حلة يسحبها ويمشي الخيلا فقال يا ابا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها
الله ورسوله فقال المهلب اوما تعرفني فقال بلى اعرفك اولك نطفه
مذرة واخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فاخذ
ابن عون هذا الكلام فنظمه شعرا فقال

عجبت من معجب بصورته وكان بالامس نطفة مذره
وفي غد بعد حسن صورته يصير في اللحد جيفة قذره
وهو على تيهه ونخوته ما بين ثوبيه يحمل العذره

وقد كان المهلب افضل من ان يخدع نفسه بهذا الجواب ولكنها زلة من
زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال فاما الحمق الصريح
والجهل القبيح فهو ما حكي عن نافع بن جبير بن مطعم انه جلس حلقة العلا
بن عبد الرحمن الحرقي وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال اتدرون
لم جلست اليكم قالوا جلست تسمع قال لا ولكني اردت ان اتواضع
لله بالجلوس اليكم فهل يرجى من مثل هذا فضل او ينفع فيه عذل وقد
قال ابن المعتز لما عرف اهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا
بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل واما الاعجاب
فيخفي المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام ويصد عن الفضائل وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل
النار الحطب وقال علي بن ابي طالب عليه السلام الاعجاب ضد الصواب

وآفة الالباب

وآفة الالباب وقال بزرجمهر النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع
والبلاء الذي لا يرحم صاحبه منه العجب وقال بعض الحكماء عجب المرء
بنفسه احد حساد عقله وليس لما يكسبه الكبر من المقت حد ولا لما ينتهي
اليه العجب من الجهل غاية حتى انه ليطمس من المحاسن ما انتشر ويسلب
من الفضائل ما اشتهر وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة
تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد وحكي
عمر بن حفص قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق
قال خير منزل لو كان الله تعالى بلغني اربعة فتقربت اليه بدمائهم
قيل ومن هم فقال مقاتل بن مسمع ولي سجستان فاتاه الناس فاعطاهم
الاموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط له الناس ارديتهم فمشى عليها
وقال لرجل يماشيه لمثل هذا فليعمل العاملون وعبيد الله بن زياد
بن ظبيان التيمي خوف اهل البصرة امر فخطب خطبة اوجز فيها فنادى
الناس من اعراض المسجد اكثر الله فينا امثالك فقال لقد كلفتم الله
شططا ومعبد بن زرارة كان ذات يوم جالسا في طريق فمرت به
امراة فقالت يا عبد الله كيف الطريق الى موضع كذا فقال يا هناه مثلي يكون
من عبيد الله وابو سماك الاسدي اضل راحلته فالتمسها الناس فلم يجدوها
فقالوا له قد رد الله عليك راحلتك فصل فقال علم ان يميني يمين مصر انظر
الى هؤلاء كيف افضى بهم العجب الى حمق صاروا به نكالا في الاولين ومثلا
في الاخرين ولو تصور المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة وبلي به
من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوه وسكونا من
نفوره قال الاحنف بن قيس عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين

كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعراء الانسان فقال

يا مظهر الكبر اعجابا بصورته انظر خلاك فان النتن تثريب

لو فكر الناس فيما في بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

هل في ابن ادم مثل الراس مكرمة وهو بخمس من الاقذار مضروب

انف يسيل واذن ريحها سهك والعين مرفضة والثغر ملعوب

يا ابن التراب وماكول التراب غدا اقصر فانك ماكول ومشروب

واحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل في الدنيا قدره وعظم فيها خطره لانه قد يستقل بعالي همته كل كثير ويستصغر معها كل كبير وقد قال محمد بن علي لا ينبغي للشريف ان يرى شيا من الدنيا لنفسه خطرا فيكون بها تائها قال ابن السماك لعيسى بن موسى تواضعك في شرفك اشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان متضادان بمعنى واحد التواضع والشرف وللكبر اسباب فمن اقوى اسبابه علو اليد ونفوذ الامر وقلة مخالطة الاكفاء على ان قوما مشوا خلف علي بن ابي طالب صلوات الله عليه فقال علي ابعدوا عني فانها مفسدة لقلوب ولاة الرجال ومشوا خلف ابن مسعود فقال ارجعوا فانها ذلة للتابع وفتنة للمتبوع وروى قيس بن ابي حازم ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فاصابته رعدة فقال النبي صلى الله عليه وسلم هون عليك فانما انا ابن امراة كانت تاكل القديد وانما قال ذلك حسما لمواد الكبر وقطعا لذرائع الاعجاب وكسرا لاشر النفس وتذليلا لسطوة الاستعلاء ومثل ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله واثنى

وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال ايها الناس لقد رايتني ارعى على خالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب فاظل اليوم واي يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف والله يا امير المومنين ما زدت على ان قصرت بنفسك فقال له عمر ويحك يا ابن عوف اني خلوت بنفسي فحدثتني فقالت انت امير المومنين فمن ذا افضل منك فاردت ان اعرفها نفسها وللاعجاب اسباب فمن اقوى اسبابه كثرة مديح المتقربين واطراء المتملقين الذين قد جعلوا النفاق عادة ومكسبا والتملق خديعة وملعبا واذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة اغروا اربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة الى الاستهزاء بهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه سمع رجلا يزكي رجلا فقال له قطعت مطاه لو سمعها ما افلح بعدها وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدح ذبح وقال ابن المقفع قابل المدح كمادح لنفسه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والتمادح فانه الذبح ان كان احدكم مادحا اخاه لا محالة فليقل احسب ولا ازكي على الله احدا وقال بعض الحكماء من رضي ان يمدح بما ليس فيه فقد امكن الساخر منه وقيل فيما انزل الله من الكتب السالفة عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجب لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب وقال بعض الشعراء

يا جاهلا غره افراط مادحه لا يغلبن جهل من اطراك علمك بك

اثنى وقال بلا علم احاط به وانت اعلم بالمحصول من نسبك

وهذا امر ينبغي للعاقل ان يضبط نفسه عن ان يستفزها ويمنعها من

تصديق المدح لها فان النفس ميلا الى حسن الثنا وسماع المدح قال الشاعر
يهوى الثنا مبرز ومقصر حب الثنا طبيعة الانسان
واذا سامح نفسه في هذه الصورة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن
الفضايل الممدوحة ولها بها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر
من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون
الصدق والذم الزم وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها
مميز ولتعلم ان التقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الرد فلا
يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو اعرف بحقيقته ولتكن التهمة
للمادح اغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثنا كان كله
حقا ولذلك كره اهل الفضل ان يطلقوا السنتهم بالثنا والمدح
تحرزا من التجوز فيه وتنزها عن التملق وقد روي عن مكحول قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا عيابين ولا تكونوا
لعانين ولا متمادحين ولا متماوتين وحكي ان الاصمعي ان ابا بكر كان
اذا كان مدح قال اللهم انت اعلم بي من نفسي وانا اعلم بنفسي منهم
اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تواخذني
بما يقولون ٥ وقال بعض الشعرا
اذا المرء لم يمدحه حسن فعاله فمادحه يهذي وان كان مفصحا
وربما الجى حب المدح لصاحبه الى ان يصير مادح نفسه اما لتوهمه ان
الناس قد غفلوا عن فضله واخلوا بحقه واما ليخدعهم بتدليسه
بالمدح والاطرا فيعتقدوا ان قوله حق متبع وصدق مستمع واما
لتلذذ بسماع الثنا وسرور نفسه بالمدح والاطرا كما يتغنا لنفسه طربا اذا لم

يسمع صوتا مطربا ولا غنا ممتعا ولاي ذلك كان فهو الجهل الصريح
والنقص الفاضح وقال بعض الشعراء

وما شرف ان يمدح المر نفسه ولكن اعمالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المر ظنه ولا كل اصحاب التجارة يربح
ولا كل من يرجو الغبي صالحا فقطا ولا كل من ضم الوديعة يصلح

وينبغي للعاقل ان يسترشد اخوان الصدق الذين هم اصفيا القلوب
ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهون عليه من مساويه التي صرفه
حسن الظن عنها فانهم امكن نظرا واسلم فكرا ويجعلون ما ينبهون
عليه من مساويه عونا على تصديق المدح فيه وقد روي انس بن مالك
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المومن مراة المومن اذا راى
فيه عيبا اصلحه وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول رحم الله امرا
اهدى الينا مساوينا وقال بعض الحكما اتحب ان يهدي اليك عيوبك
قال نعم من ناصح ومما يقارب معنى هذا القول ما روي عن عمر انه
قال لابن عباس من ترى ان نوليه حمص فقال رجلا صحيحا
لك قال فلان انت ذلك الرجل فقال لا ينتفع بي مع سو ظني بك
وسو ظنك بي وقد قيل في منثور الحكم من اظهر عيب نفسه فقد
زكاها واذا قطع اسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبر
تواضعا وبالعجب توددا وذلك ادعى اسباب الكراهة واوجب
مواد النعم وابلغ شافع الى القلوب يعطفها الى المحبة ويثنيها عن
البغضة وقد قال بعض الحكما من برى من ثلاث نال ثلاثا
من برى من الشر نال العز ومن برى من البخل نال الشرف ومن برى

من الكبر نال الكرامة وقال مصعب بن الزبير التواضع مصايد
الشرف وقيل في منثور الحكم من دام تواضعه كثر صديقه وقد تحدث
المنازل والولايات لقوم اخلاقا مذمومة يظهرها سوء طباعهم
ولآخرين فضايل محمودة يبعث عليها زكي شيمهم لان لتقلب الاحوال
سكرة تظهر من الاخلاق مكنونها ومن السراير مخزونها لا سيما
اذا هجمت لغير تدريج وطرقت من غير تاهب وقد قال بعض
الحكما في تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال وقال الفضل بن
سهل من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته
دون قدره تواضع لها وقال بعض البلغا الناس في الولاية رجلان
رجل يجل عن العمل لفضله ومروته ورجل يجل بالعمل لنقصه ودناته
فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا ومن جل عن عمله لبس به تجبرا
وكبرا

الفصل الثاني في حسن الخلق

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى اختار
الاسلام دينا فاكرموه بحسن الخلق والسخا فانه لا يكمل الا بهما وقال
الاحنف بن قيس الا اخبركم بادوا الدا قالوا بلى قال الخلق الدني
واللسان البذي وقال بعض الحكما من سا خلقه ضاق رزقه
وعلة هذا القول ظاهرة وقال بعض البلغا الحسن الخلق من نفسه
في راحة والناس منه في سلامة والسيي الخلق الناس منه في بلا وهو
من نفسه في عنا وقال بعض الادبا عاشر اهلك باحسن اخلاقك
فان الثوا فيهم قليل وقال بعض الشعرا

اذا لم تتسع اخلاق قوم تضيق بهم الفسيح من البلاد
اذا ما المرء لم يخلق لبيبا فليس اللب عن قدم الولاد

واذا حسنت اخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت
عليه الامور الصعاب ولانت له القلوب الغضاب وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال حسن الخلق وحسن الجوار
يعمران الديار ويزيدان في الاعمار وقال بعض الحكما في سعة
الاخلاق كنوز الارزاق وسبب ذلك ما ذكرناه من كثرة الاصفيا
المسعدين وقلة الاعدا المجحفين ولذلك قال النبي صلى الله عليه
وسلم احبكم الي احسنكم اخلاقا الموطون اكنافا الذين
يالفون ويولفون وحسن الخلق ان يكون سهل العريكة لين الجانب
طلق الوجه قليل النفور طيب الكلمة وقد نعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم بهذه الاوصاف فقال اهل الجنة كل هين
صح لين سهل طلق ولما ذكرنا من هذه الاوصاف حدود مقدرة ومواضع
مستحقة كما قال الشاعر

اصفح واكدر احيانا لمختبر وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد الكدر الذي هو البذا وشراسة الاخلاق فان ذلك مذموم
لا يستحسن وعيب لا يرتضى وانما يريد الكف والانقباض
في موضع يلام فيه المساعد ويذم فيه الموافق واذا كانت
المحاسن للاخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوزها
احد صارت ملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق
ذل والنفاق لوم وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا اثر مشكور

وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم شر الناس ذو الوجهين الذي ياتي هؤلاء بوجه وهؤلاء
بوجه وروى مكحول عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لا ينبغي لذي الوجهين ان يكون وجيها عند الله ٥
وقال سعيد بن ابي عروبة لئن يكون لي نصف وجه ونصف لسان
على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر احب الي من ان اكون ذا وجهين
وذا لسانين وذا قولين مختلفين وقال الشاعر

خل النفاق لأهله وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك ان ترى الا عدوا او صديقا — وقال ابراهيم بن محمد
وكم من صديق وده بلسانه خؤون بظهر الغيب لا يتذمم
لذالك والوجهين يرضيك شاهدا وفي غيبه ان غاب صاب وعلقم

ومما يغير حسن الخلق والوطاء الشراسة وبذاء الاسباب عارضة
وامور طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوسا
فمن اسباب ذلك الولاية التي تحدث في الاخلاق تغيرا وعلى الخلطاء
تنكرا اما من لؤم طبع واما من ضيق صدر وقد قيل من تاه في ولايته
ذل في عزله وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية ومنها العزل
فقد يسوء به الخلق ويضيق به الصدر اما لشدة اسف او لقلة صبر
حكى حميد الطويل عن عمار بن ياسر رحمه الله عزل عن ولاية فاشتد
ذلك عليه فقال اني وجدتها حلوة الرضاع مرة الفطام ومنها الغنى
فقد تتغير به اخلاق اللئيم بطرا وتسوء طرائقه اشرا ولذلك قيل
من نال استطال وانشد الرياشي ٥

وقال بعض الشعرا

غضبان يعلم ان المال ساقه ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسألني فاكرم الناس من كانت له ورق
فان تكن الدنيا انالتك ثروة فاصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء منك خلائقا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما افسده الغنى كذلك مصلحه الفقر ٥ كتب قتيبة بن مسلم الى
الحجاج ان اهل الشام قد التاثوا عليه وكتب اليه ان اقطع عنهم الرزق
ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه وقالوا اقلنا وكتب الى الحجاج فيهم
فكتب اليه ان كنت انست منهم رشدا فاجر عليهم ما كنت تجري واعلم
ان الفقر جند الله الاكبر يذل كل جبار متكبر ٥ وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال لولا ان الله تعالى اذل ابن ادم بثلاث
ما طاطا راسه لشيء الموت والمرض والفقر ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق
اما انفة من ذل الاستكانة او اسفا على فائت الغنى ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم كاد الفقر ان يكون كفرا وكاد الحسد ان يغلب القدر

وقال ابو تمام

والرحالات بن ادم خلقه بطر اذا فكرت في كنهها الفكر
فيفرح بالشيء القليل بقاؤه ويجزع لما صار وهو له ذخر

وربما تسلى من هذه حاله بالاماني وان قل صدقها فقد قيل قل ما تصدق
الامنية لكن قد يستعاض بها سلوة من هم ومسرة برجاء وقد قال ابو العتاهية
حرك منال اذا اغتممت فانهن مراوح   وقال اخر
اذا تمنيت بت الليل مغتبطا ان المنى راس اموال المفاليس
ومنها الهموم التي تذهل العقل وتشغل القلب فلا تتسع لاحتمال ولا تقوى
على صبر فقد قيل الهم كالسم وقال بعض الادباء الحزن كالداء المخزون في

فؤاد المحزون وقال بعض الشعراء

همومك بالعيش مقرونة فما تقطع العيش الا بهم
اذا كنت في نعمة فارعها فان المعاصي تزيل النعم
حلاوة دنياك مسمومة فما تأكل الشهد الا بسم
اذا تم امر بدا نقصه توقع زوالا اذا قيل تم
فكم قدر دب في مهلة فلم يعلم الناس حتى هجم

ومنها الامراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الاخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال وقد قال المتنبي

آلة العيش صحة وشباب فاذا وليا عن المرء ولى
ابدا تسترد ما تهب الدنيا فيا ليت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدوث الهرم لتأثيره في آلة الجسد كذلك يكون تأثيره في اخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من الاثقال فكذلك تعجز النفس عن ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق وضيق الشقاق وكذلك وما ضاهاه قال منصور النمري

ما كنت اوفي شبابي كنه عزته حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
اصبحت لم تطعمي ثكل الشباب فلم تشجي بغصته فالعذر لا يقع
ما كان اقصر ايام الشباب وما احلى حلاوة ذكراه الذي يدع
ما واجه الشيب من عين ولا نقصت الا له سوه عنه ومس ندع
قد كدت اقضي على فوت الشباب اسى لولا اعزيك ان المنقطع

فهذه سبعة اسباب ان احدثت سوء الخلق كان عاما وها هنا سبب خاص قد يحدث سوء الخلق خاصة دون غيره واذا كان سوء الخلق حادثا لسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

الفصل الثالث في الحيا

ان الخير والشر معان كامنة تعرف بسمات دالة كما قالت العرب في امثالها تخبر عن مجهوله مرآته وكما قال عمر بن سلمة الشاعر

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد من الخبر

فسمة الخير الدعة والحيا وسمة الشر القحة والبذا وكفى بالحيا خيرا ان يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذا شرا ان يكونا الى الشر سبيلا وقد روى حسان بن عطية عن ابي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحيا والعي شعبتان من الايمان والبذا شعبة من النفاق ويشبه ان يكون العي في معنى الصمت والبيان والبذا في معنى التشدق كما جا في الحديث ان ابغضكم الي الثرثارون المتفيهقون المتشدقون وروى ابو سلمة عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحيا من الايمان والايمان في الجنة والبذا من الجفا والجفا في النار وقال بعض الحكما من كساه الحيا ثوبه لم ير الناس عيبه وقال بعض البلغا حياة الوجه بحيائه كما ان حياة الغرس بمائه وقال بعض الادبا يا عجبا كيف لا تستحي من كثرة ما لا تستحي وتتقي من طول ما لا تتقي وقال بعض الشعرا وهو صالح بن عبد القدوس

اذا قل ما الوجه قل حياؤه فلا خير في وجه اذا قل ماؤه
حياك فاحفظه عليك فانما يدل على فعل الكريم حياؤه

وليس لمن سلب الحيا صاد عن قبيح ولا زاجر عن محظور فقد يقدم على
ما يشا ويأتي على ما يهوي فبذلك جا الخبر روى سعيد عن منصور بن ربعي
عن ابي مسعود البدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان مما ادرك الناس من كلام النبوة الاولى يا ابن ادم اذا لم تستحي
فاصنع ما شيت وليس هذا القول منه امرا بفعل المعاصي عند قلة الحيا
كما توهمه بعض من جهل معاني الكلام ومواضعات الخطاب
وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر

اذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا اذا ذهب الحيا

واختلف اهل العلم في معنى الخبر فقال ابو بكر محمد بن علي الشاشي
في اصول الفقه معنى هذا الخبر ان من لم يستحي دعاه ترك الحيا الى ان
يعمل ما يشا لا يردعه عنه رادع فليستحي المرء فان الحيا يردعه
وسمعت من يحكي عن ابي بكر الرازي من اصحاب ابي حنيفة رضي الله عنه
ان المعنى فيه اذا عرضت عليك افعالك التي هممت بفعلها فلم تستحي منها
لحسنها وجمالها فاصنع ما شيت منها فجعل الحيا حكما على افعاله وكلا
القولين حسن والاول اشبه لان الكلام خرج من النبي صلى الله عليه وسلم
مخرج الذم لا مخرج الامر لكن قد جا الحديث بما يضاهي القول الثاني
وهو قوله صلى الله عليه وسلم ما احببت ان تسمعه اذناك فاته وما كرهت
ان تسمعه اذناك فاجتنبه ويجوز ان يحمل هذا الحديث على المعنى الصحيح
فيه ويكون التاويل الاول في الحديث المتقدم اصح اذ ليس يلزم ان تكون
احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم متفقة المعاني بل اختلاف

معانيها

معانيها ادخل في الحكمة وابلغ في الفصاحة اذا لم يبلغ بعضها بعضا
واعلم ان الحيا قد يكون في الانسان من ثلاثة اوجه احدها حياوه
من الله والثاني حياوه من الناس والثالث حياوه من نفسه فاما
حياوه من الله تعالى فيكون بامتثال اوامره والكف عن زواجره
روى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استحيوا من الله
تعالى حق الحيا قيل يا رسول الله كيف نستحي من الله حق الحيا
قال من حفظ الراس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة
الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيا من الله حق الحيا وهذا الحديث
من ابلغ الوصايا قال اقضى القضاة مصنف الكتاب ابو الحسن
علي الماوردي رحمه الله رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ذات
ليلة فقلت يا رسول الله اوصني فقال استحي من الله حق الحيا
ثم قال تغير الناس قلت وكيف يا رسول الله قال قد كنت انظر
الى وجه الصبي فارى من وجهه البشر والحيا وانا انظر اليوم اليه فلا
ارى ذلك في وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصورتها
فاذهلني السرور عن حفظها ووددت ان اكون حفظتها فلم يبد صلى
الله عليه وسلم بشي قبل الوصية بالحيا من الله تعالى وجعل ما سلب الصبي
من البشر والحيا سببا لتغير الناس وخص الصبي لان ما ياتيه بالطبع
عن غير تكلف فصلى الله عليه من هادي امة تابع انذارها وقطع اعذا رها
وواصل تاديبها وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حظا من زواجره
ولصبيانا من اوامره اعان الله على قبولها العقل وعلى استدامتها التوفيق
وقد روي ان علقمة ابن علاثة قال يا رسول الله عظني فقال

النبي صلى الله عليه وسلم استحي من الله استحياءك من ذوي الهيبة من قومك
وهذا النوع من الحياء من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم قلة الحياء كفر من الله تعالى لما فيه من مخالفة اوامره
وقال النبي صلى الله عليه وسلم الحياء نظام الايمان فاذا انحل نظام
الشيء تبدد ما فيه وتفرق واما حياؤه من الناس فقد يكون بكف الاذى
وترك المجاهرة بالقبح وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
من تقوى الله اتقاء الناس وروي ان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه
اتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس وقال لا خير
فيمن لا يستحي من الناس وقال بشار بن برد

ولقد اصرف الفؤاد عن الشيء حياء وحبه في السواد
امسك النفس بالعفاف وامشي ذاك الى غد حدث الاعادي

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب الثناء وقد قال
النبي صلى الله عليه وسلم من القى جلباب الحياء فلا غيبة له يعني والله اعلم لقلة مروته
وظهور شهوته وروى الحسن عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم من مروة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه والفه وحليته وقال
بعض الشعرا   ورب قبيحة ما حال بيني وبينها الا الحياء

اذا رزق الفتى وجها وقاحا تقلب في الامور كما يشاء   وقال اخر

اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا وتستحي مخلوقا فما شئت فاصنع

واما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات وقد قال بعض
الحكما ليكن استحياؤك من نفسك اكثر من استحيائك من غيرك وقال بعض
الادبا من عمل في السر عملا يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر

دعا قوم رجلا كان يألف عشرتهم فلم يجبهم وقال اني دخلت البارحة
في الاربعين وانا استحي من سني وقال بعض الشعراء

سري واعلاني وتلك خليقتي وظلمة ليلي مثل ضوء نهاري

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فمتى
كمل حياء الانسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه اسباب الخير وانتفت
عنه اسباب الشر وصار بالفضل مشهورا وبالجميل مذكورا وقال بعض الشعرا

واني ليثنيني عن الجهل والخنا وعن شتم ذي القربى خلائق اربع
حياء واسلام وتقوى وانني كريم ومثلي من يضر وينفع

وان اخل باحد وجوه الحياء لحقه من النقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل
بكماله وقد قال الرياشي ويقال ان ابا بكر كان يتمثل بهذا الشعر

وحاجة دون اخرى قد سنحت لها جعلتها للتي اخفيت عنوانا
واني لارى من لا حياء له ولا امانة وسط الناس عريانا

الفصل الرابع في الحلم والغضب

روى محمود بن حارث الهلالي ان جبريل عليه السلام نزل على النبي صلى
الله عليه وسلم فقال يا محمد اني اتيتك بمكارم الاخلاق في الدنيا
والاخرة خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين وروى
سفيان بن عيينة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال حين نزلت هذه
الاية خذ العفو وامر بالعرف يا جبريل ما هذا قال ما ادري حتى اسأل
العالم ثم عاد جبريل وقال يا محمد ان ربك يامرك ان تصل من قطعك وتعطي
من حرمك وتعفو عن من ظلمك وروى هشام عن الحسن ان النبي صلى الله

عليه وسلم انه قال ايعجز احدكم ان يكون كابي ضمضم كان اذا خرج
من منزله قال اللهم اني تصدقت بعرضي على عبادك وروي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى يحب الحليم الحيي ويبغض
الفاحش البذي وقال علي بن ابي طالب عليه السلام من حلم ساد
ومن تفهم ازداد وقال بعض الادبا من غرس شجرة الحلم اجتنى
ثمرة السلم وقال بعض البلغا ما ذب عن الاعراض مثل الصفح
والاعراض وقال بعض الشعرا

احب مكارم الاخلاق جهدي واكره ان اعيب وان اعابا
واصفح عن سباب الناس حلما وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من اشرف الاخلاق واحقها بذوي الالباب لما فيه من سلامة
العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد وقال علي بن ابي طالب
عليه السلام اول عوض الحليم عن حلمه ان الناس انصاره وحد الحلم
ضبط النفس عن هيجان الغضب وهذا يكون لباعث وسبب
واسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة احدها الرحمة وذلك من
خير يوافق رقة وقد قيل في منثور الحكم من اوكد الحلم رحمة الجهال
وقد قال ابو الدردا لرجل اسمعه كلاما يا هذا لا تغرقن سبا
ودع للصلح موضعا فانا لا نكافي من عصى الله فينا باكثر من ان نطيع
الله فيه وشتم رجل الشعبي فقال ان كنت كما قلت فغفر الله لي
وان لم اكن كما قلت فغفر الله لك واغتاظت عايشه رضي الله عنها
على خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت لله در التقوى ما تركت

لذي غيظ شفا وشتم معاوية قطيفا فاعطا شيخا من اهل دمشق
قطيفة فلم تعجبه فحلف الله ليضربن بها راس معاوية فاتاه فاخبره
فقال له معاوية اوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ
والثاني من اسبابه القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن
الثقة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا
قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا لله للقدرة عليه
وقال بعض الحكما ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا
من السطوة وقال بعض البلغا احسن المكارم عفو المقتدر
وجود المفتقر والثالث من اسبابه الترفع عن السباب وذلك
من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكما شرف ان تحمل المكاره
كما تحمل المكارم وقد قيل ان الله تعالى سمى يحيى سيدا لحلمه وقال الشاعر

لن يبلغ المجد اقوام وان شرفوا حتى يذلوا وان عزوا لاقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة لا صفح ذل ولكن صفح احلام

والرابع من اسبابه الاستهانة بالسباب وذلك عن ضرب من الكبر
والاعجاب كما حكي عن مصعب بن الزبير انه لما ولي
امر العراق جلس يوما لعطا الجند امر مناديه فنادى اين عمرو بن
جرموز وهو الذي قتل اباه الزبير فقيل له ايها الامير انه قد تباعد
في الارض فقال اويظن الجاهل اني اقيده بابي عبد الله
فليظهر امنا وليأخذ عطاه مسلما فعد الناس ذلك من مستحسن
الكبر ومثل ذلك قول بعض الزعما في شعره
اوكلما طن الذباب طردته ان الذباب اذي على كريم

واكثر رجل من سب الاحنف وهو لا يجيبه فقال والله ما منعه من
جوابي الا هواني عليه وفي مثله يقول الشاعر

نجا بك لومك منجى الذباب حمته مقاذيره ان ينالا

واسمع رجل ابن هبيرة فاعرض عنه فقال له الرجل اياك اعني فقال
وعنك اعرض وفي مثله يقول الشاعر

فاذهب فانت طليق عرضك انه عرض عززت به وانت ذليل

وقال عمر بن علي

اذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من اجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن اني عييت عن الجواب وما عييت

والخامس من اسبابه الاستحيا من جزا الجواب وهذا يكون من صيانة
النفس وكمال المروة وقد قال بعض الحكما احتمال السفيه ايسر من
التحلي بصورته والاغضا عن الجاهل خير من مشاكلته وقال
بعض الادبا ما افحش حليم ولا اوحش كريم وقال لقيط بن زرارة

وقل لبني سعد فما لي وما لكم ترقون مني ما استطعتم واعنق
اغركم اني باحسن شيمة بصير واني بالفواحش اخرق
وانك قد ساببتني فقهرتني هنيئا مريئا انت بالسب احذق

والسادس من اسبابه التفضل على السباب وهذا يكون من الكرم
وحب التالف كما قيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينتقصانك
ويثلبانك فلو عاقبتهما فقال هما بعد العقوبة اعذر في
تنقصي وثلبي فكان هذا تفضلا منه وتالفا وحكي عن الاحنف
بن قيس انه قال ما عاداني احد قط الا اخذت في امره باحدى

ثلاث

ثلاث خصال ان كان اعلا مني عرفت له قدره وان كان دوني
رفعت قدري عنه وان كان نظيري تفضلت عليه فاخذ الخليل فنظمه شعرا

سالزم نفسي الصفح عن كل مذنب وان عظمت منه الي الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذي فوقي فاعرف قدره واتبع فيه الحق والحق لازم
واما الذي دوني فاحلم دائبا اصون به عرضي وان لام لائم
واما الذي مثلي فان زل او هفا تفضلت ان الفضل بالعز حاكم

والسابع من اسبابه استكفاف السباب وقطع السباب وهذا
يلزم من الحزم كما حكي ان رجلا قال لضرار بن القعقاع والله لو قلت
واحدة لسمعت عشرا فقال ضرار والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة
وحكي ان علي بن ابي طالب عليه السلام قال لعامر بن مرة الزهري
من احمق الناس قال من ظن انه اعقل الناس قال صدقت
فمن اعقل الناس قال من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهال وقال
الشعبي ما ادركت امي فابرها ولكن لا اسب احدا فيسبها وقال
بعض الحكما في اعراضك صون اعراضك وقال بعض الشعرا

وفي الحلم ردع للسفيه عن الاذى وفي الخرق اغرا فلا تك اخرقا
فتندم اذ لا تنفعنك ندامة كما ندم المغبون لما تفرقا

وقال اخر

قل ما بدا لك من زور ومن كذب حلمي اصم واذني عنك صما

والثامن من اسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون
من ضعف النفس وربما اوجبه الراي واقتضاه الحزم وقد قيل في منثور
الحكم الحلم حجاب الافات وقال الشاعر

ارفق اذا خفت من ذي هفوة خرقا ليس الحليم كمن في امره خرق
والتاسع من اسبابه الرغبة لبذ بسفالة او حرمة لازمة وهذا يكون في
الوفا وحسن العهد وقد قيل في منثور الحكم اكرم الشيم ارعاها للذمم
وقال الشاعر
ان الوفا على الكرام فريضة واللوم مقرون بذي الاخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفا وترى اللئيم مجانبا للانصاف
والعاشر من اسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدها
وقد قيل في منثور الحكم من ظهر غضبه قل كيده وقال بعض الادبا
غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله وقال بعض الحكما
اذا سكت عن الجاهل فقد اوسعته جوابا واوجعته عقابا وقال الناس
وقال بعض الشعرا بن قتادة وانيا
نعاقب ايدينا ونحلم رأينا ونشتم بالافعال لا بالتكلم
وللكف عن شتم اللئيم تكرما اضر له من شتمه حين يشتم
فهذه عشرة اسباب تدعو الى الحلم وبعض الاسباب افضل من بعض
وليس اذا كان بعض اسبابه مفضولا ما يقتضي ان يكون نتيجة من الحلم
مذموما وانما الاولى بالانسان ان يدعوه الى الحلم افضل اسبابه وان
كان الحلم كله فضلا فان عري عن احد هذه الاسباب كان ذلا ولم
يكن حلما لانا قد ذكرنا في حد الحلم انه ضبط النفس عن هيجان فاذا
فقد الغضب لسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية
ولذلك قالت الحكما لا يعرفون الا في ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد
الا في العسرة والشجاع الا في الحرب والحليم الا في الغضب
وقال الشاعر
ليست الاحلام في حال الرضا انما الاحلام في حال الغضب
من يدعي الحلم اغضبه لتعرفه لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب

وانشد النابغة الجعدي بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولا خير في حلم اذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه ان يكدرا
ولا خير في جهل اذا لم يكن له حليم اذا ما اورد الامر اصدرا
فلم ينكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه ومن فقد الغضب في الاشيا
المغضبة حتى استوت حالتاه قبل الاغضاب وبعده فقد عدم من
فضايل النفس الشجاعة والانفة والحمية والغيرة والدفاع
والاخذ بالثار لانها خصال مركبة من الغضب فاذا عدمها
الانسان هان بها ولم يكن لباقي فضايله في النفوس موضعا
ولا لوفور حلمه في القلوب موقعا وقد قال المنصور اذا
كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة وقال بعض الحكما
العفو يفسد من اللئيم بقدر اصلاحه من الكريم وقال
عمرو بن العاص اكرموا سفهاءكم فانهم يكفونكم العار
والشنار وقال مصعب بن الزبير ما قل سفهاء قوم الا ذلوا
وقال ابو تمام الطائي
والحرب تركب رأسها في مشهد عدل السفيه به بألف حليم
وليس هذا القول اغراء بالغضب والانقياد اليه عند
حدوث ما يغضب فيكتسب بالانقياد للغضب من الرذائل
اكثر مما يكتسبه بعدم الغضب من الفضائل ولكن اذا
ثار به الغضب عند هجوم ما يغضب كف سورته
بحلمه واطفا ثائرته بحلمه ووكل من استحق المقابلة الى
غيره فلن يعدم مسيئا مكافيا بما جنى لن يعدم محسن مجازيا

والعرب تقول دخلتنا فاخرج منه اى ان خرج منه خيرا
دخله خير وان خرج منه شر دخله شر وانشد ابن دريد عن ابي حاتم

اذا امن الجهال حلمك مرة فعرضك للجهال غنم من الغنم
فعم عليه الحلم والجهل والقه بمنزلة بين العداوة والسلم
اذا انت جازيت السفيه كما جرى فانت سفيه مثله غير ذي حلم
ولا تغضبن عرض السفيه وداره بحلم فان اعيا عليك فبالصرم
فيرجوك احيانا ويخشاك تارة وياخذ فيما بين ذلك بالحزم
فان لم تجد بدا من الجرم فاستعن عليه بجهال فذاك من العزم

وهذه من احكم ابيات وجدتها في تدبير الحلم والغضب وهذا
التدبير انما يستعمل فيمن لا يجد الانسان بدا من مقاربته ولا
سبيلا الى اطراحه ومتاركته اما لخوف شره او للزوم
امره واما من امكن اطراحه ولم يضره ابعاده فالاهوان
به اولى والاعراض عنه اصوب فاذا دان على ما وصفت
استفاد بتحريك الغضب فضايله وامن بكف نفسه عن
الانقياد له رذايله وصار الحلم مدبرا للامور المغضبة
بقدر لا يعتوره نقص بعدم الغضب ولا يلحقه زيادة
بفقد الحلم ولو عزب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ضل عنه
وجه الصواب فيه وضعف رايه عن خبرة اسبابه ودواعيه
حتى يصير بليد الراي مغمور الروية مقطوع الحجة مسلوب
العزا قليل الحيلة مع ما يناله من اثر ذلك في نفسه وجسده
حتى يصير اضر مما عليه مما غضب له وقد قال بعض الحكما

من كثر

شططه كثر غلطه وروى ان سلمان قال لعلي بن ابي طالب
عليه السلم ما الذي يباعدني من غضب الله تعالى قال لا تغضب
وقال بعض السلف اقرب ما يكون العبد من غضب الله اذا غضب
وقال بعض البلغا من رد غضبه هد من اغضبه وقال بعض
الادبا ما هيج جاشك كغيض اجاشك وقال رجل لبعض الحكما
عظني فقال لا تغضب فينبغي لذي اللب السوي والحزم
القوي ان يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها ويقابل دواعي
شرته بحزمه فيردها فيحظى باجل الخيرة ويسعد بحميد
العاقبة من اعطائك راحة اعصابك وسبب الغضب هجوم
ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم ما تكرهه
النفس ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد الى خارجه
والحزن يتحرك من خارج الجسد الى داخله ولذلك قتل الحزن
ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن وصار
الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه والحادث
عن الحزن المرض والسقم لكمونه ومن اجل ذلك افضى الحزن الى
الموت ولم يفض اليه الغضب فهذا فرق ما بين الحزن والغضب
واعلم ان لتسكين الغضب اسبابا يشتغله بها عن الحلم
منها ان يذكر الله تعالى فيدعوه ذكره الى الخوف منه
ويبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع الى ادبه وياخذ
بندبه فعند ذلك يزول الغضب قال الله تعالى واذكر ربك
اذا نسيت قال عكرمة يعني اذا غضبت وقال الله تعالى واما

واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ومعنى قوله ينزغنك
اي يغضبك فاستعذ به انه هو السميع العليم يعني سميعا بجهل من
جهل عليما بما يذهب عنك الغضب وذكر ان في التوراه مكتوبا
ابن آدم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب فلا امحقك
فيمن امحق وحكي ان بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى
وزيره وقال له اذا غضبت فناولنيه وكان فيه مكتوب
ما لك والغضب انما انت بشر ارحم من في الارض يرحمك
من في السما وقال بعض الحكما من ذكر قدرة الله تعالى لم
يستعمل قدرته في ظلم عباد الله وقال عبد الله بن مسلم بن محارب
لهرون الرشيد يا امير المومنين اسالك بالذي انت بين يديه اذل
مني بين يديك وبالذي هو اقدر على عقابك اقدر منك على
عقابي لما عفوت عني فعفا عنه لما ذكره قدرة الله
تعالى عليه وروي ان رجلا شكا الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم القسوه فقال اطلع في القبور واعتبر بالنشور
وكان بعض ملوك الطوايف اذا غضب القى عنده مفاتيح
ترب الملوك فيزول غضبه ولذلك قال عمر رضي الله عنه
من اكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسيره ومنها
ان ينتقل من الحاله التي هو فيها الى حالة غيرها فيزول عنه
الغضب بتغير الاحوال والتنقل من حال الى حال وكان هذا
مذهب المامون اذا غضب او شتم وكانت العرب تقول اذا
غضب القايم فليجلس واذا غضب الجالس فليقم ومنها ان يتذكر

ما يوول

ما يوول اليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام وكتب
ابرويز الى ابنه شيرويه ان كلمة منك تسفك دما واخرى
منك تحقن دما وان نفاذ امرك مع ظهور كلامك فاحترس
في غضبك من قولك ان تخطي ومن لونك ان يتغير ومن جسدك
ان يخف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلما وقال بعض الحكما
الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لوم وقال بعض الادبا
اياك وعزة الغضب فانها تفضي بك الى ذلة العذر وقال بعض
واذا ما اعترتك في الغضب العزه فاذكر تذلل الاعتذار
ومنها ان يذكر ثواب العفو وجزا الصفح فيقهر نفسه على
الغضب رغبة في الجزا والثواب وحذرا من استحقاق الذم
والعقاب روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ينادي
مناد يوم القيامة من له اجر على الله فليقم فيقوم العافون
عن الناس ثم تلا فمن عفا واصلح فاجره على الله وقال رجا
لعبد الملك بن مروان في اسارى ابن الاشعث ان الله تعالى
قد اعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله ما يحب من العفو وروي
عن النبي صلى الله عليه وسلم ثلث خصال من كن فيه استكمل
الايمان من اذا رضي لم يخرجه رضاه الى باطل واذا غضب
لم يخرجه غضبه من حق واذا قدر عفا واسمع رجل
كلاما لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقال عمر اردت
ان يستفزني الشيطان بعز السلطان فانال منك اليوم
ما تناله مني غدا انصرف رحمك الله ومنها ان يتذكر

انعطفت القلوب عليه ومال النفوس اليه فلا يرى اضاعة
ذلك بتنفير النفوس عنه فيرغب في التالف وجميل الثنا روى
ابن ابي ليلى عن عطية عن ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ما ازداد احد بعفو الا عزا فاعفوا يعزكم الله
وقال بعض البلغا ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام
ولا من شروط الكرام ازالة النعم وقال المامون لابراهيم
بن المهدي اني شاورت في قتلك فاشاروا علي بقتلك الا اني
قد وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك
فقال يا امير المومنين ان المشير اشار بما جرت به العادة
في السياسة الا انك ابيت ان تطلب النصر الا من حيث عودته
من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وانشا يقول

البر بي منك وطا العذر عندك لي فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
وقام علمك بي فاحتج عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم
ان يحوني معروفا ومننت به اني لفي اللوم احظى منك في الكرم
تعفوا بعدل وتسطوا ان سطوت به فلا عدمناك من عاف ومنتقم

الفصل الخامس في الصدق والكذب

قال الله تعالى وهو اصدق القايلين ثم نبتهل فنجعل
لعنة الله على الكاذبين وقال تعالى انما يفتري الكذب الذين
لا يومنون بايات الله وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال للحسن بن علي عليهما السلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك
فان الكذب ريبة والصدق طمانينة وروي عن النبي صلى الله
عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله امرا اصلح من لسانه
واقصر من عنانه والزم طريق الحق مقوله ولم يعود الخطل مفصله
وروى صفوان بن سليم قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم ايكون
المومن جبانا قال نعم قال ايكون بخيلا قال نعم قال ايكون
كذابا قال لا وقال ابن عباس في قوله تعالى ولا تلبسوا الحق
بالباطل اي لا تخلطوا الصدق بالكذب وقيل في منثور الحكم
الكذاب لص لان اللص يسرق مالك والكذاب يسرق
عقلك وقال بعض الحكما الخرس خير من الكذب وصدق
اللسان اول السعادة وقال بعض البلغا الصادق مصان
جليل والكاذب مهان ذليل وقال بعض الادبا لا سيف
كالحق ولا عون كالصدق وقال بعض الشعرا

وما شي اذا فكرت فيه باذهب للمروة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه وابعد بالبها من الرجال

والكذب جماع كل شر واصل كل ذم لسو عواقبه وخبث
نتايجه لانه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضا والبغضا تول
الى العداوة وليس مع العداوة امن ولا راحة ولذلك
قيل من قل صدقه قل صديقه والصدق والكذب يدخلان
الاخبار الماضية كما ان الوفا والخلف يدخلان المواعيد
المستقبلة والصدق هو الاخبار عن الشي على ما هو عليه
والكذب الاخبار عن الشي بخلاف ما هو عليه ولكل واحد
منهما دواع فدواعي الصدق لازمة ودواعي الكذب عارضة

لأن الصدق يدعوا اليه عقل موجب وشرع مؤكد والكذب
يمنع منه العقل ويصد عنه الشرع ولذلك جاز ان تستفيض
الاخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجز ان تستفيض
الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس في الصدق والكذب انما هو
لاتفاق الدواعي فدواعي الصدق يجب ان يتفق الجمع الكثير
عليها حتى اذا نقلوا خبرا او كانوا عددا ينتفي عن مثلهم المواطاة
وقع في النفس صدقه لان الدواعي اليه نافعة واتفاق الناس
في الدواعي النافعة ممكن ولا يجوز ان يتفق العدد الكثير
الذي لا يمكن مواطاة مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لان الدواعي
اليه غير نافعة وربما كانت ضارة وليس في مجاري العادة
ان يتفق الجمع الكثير على دواع غير نافعة فلذلك جاز اتفاق
الناس على الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجز
ان يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاقهم في دواعيهم
واذا كان للصدق والكذب دواع فلا بد من ذكر ما يستدعيه
الخاطر من دواعيهما اما دواعي الصدق فمنها العقل
لانه موجب لقبح الكذب لا سيما اذا لم يجلب نفعا او يدفع
ضررا والعقل يدعوا الى فعل ما كان مستحسنا حتى صار كذبا
صريحا استحسانا للكذب في العقل كالذي انشدنيه بعض اهل الادب لبعض الشعراء

توهمه فكري واصبح خده وفيه مكان الوهم من نظري اثر
وصافحه كفي فالم كفه فمن لمس كفي في انامله عقر
ومر بقلبي خاطرا فجرحته ولم ار شيا قط يجرحه الفكر

ولقول القائل ... هذه الابيات منقولة عن حماد بن اسحق بن ابراهيم الموصلي واسحق هذا هو اسحق النديم المشهور ... الموصلي ... هرون الرشيد ... نقلها حماد هذا عن ابيه عن جده ... لهم ... ابو الفرج علي بن الحسين الاصفهاني في كتابه الاغاني وهو كتاب ...

ولقول القائل للعباس بن الاحنف وان كان دون هذه المبالغة
يقول وقد كتبت دقيق خطي اليها لم جئت الجليلا
فقلت لها نحلت فصار خطي مساعدة لكاتبه نحيلا
لانه خرج مخرج المبالغة في التشبيه والاقتدار على صنعة الشعر
وان شواهد الحال تخرجه عن لبس الكذب ولذلك ما استحسن
في الصنعة ولم يستقبح في العقل وان كان الكذب مستقبحا فيه
ومنها الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لان الشرع
لا يجوز ان يرد بارخاص ما حظره العقل بل قد جاء الشرع
زائدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لان الشرع ورد
بحظر الكذب وان جر نفعا او دفع ضررا والعقل انما حظر
ما لا يجلب نفعا ولا يدفع ضررا ومنها المروة فانها باعثة
على الصدق لانها تمنع من فعل ما كان مستكرها فاولى ان تمنع
من فعل ما كان مستقبحا ومنها حب الثنا والاشتهار بالصدق
حتى لا يرد عليه قول ولا يلحقه ندم وقد قال بعض البلغا
ليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق اقوى
معين والصدق افضل قرين وقال بعض الشعراء

عود لسانك صدق القول تحظ به ان اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضي ما سننت له فاختر لنفسك وانظر كيف ترتاد

فاما دواعي الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع
الضرر فيرى ان الكذب اسلم واغنم فيرخص لنفسه فيه
اغترارا بالخدع واستشفافا للطمع وربما كان الكذب ابعد

لما يأمل وأقرب لما يخاف لأن القبيح لا يكون حسنا والشر لا يصير
خيرا وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تحروا الصدق وإن رأيتم
فيه الكذب فإن فيه النجاة وتجنبوا الكذب وإن رأيتم أن فيه
النجاة فإن فيه الهلكة وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه
لأن يضعني الصدق وقلما يفعل أحب إلي من أن يرفعني الكذب
وقلما يفعل وقال بعض الحكماء الصدق منجيك وإن خفته والكذب
مرديك وإن أمنته وقال الجاحظ الصدق والوفاء توأمان
والصبر والحلم توأمان فيهن تمام كل دين وصلاح كل دنيا
وأضدادهن سبب كل فرقة وأصل كل فساد ومنها أن يؤثر
أن يكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقا
يعذب ولا حديثا يطرف فيستحلي الكذب الذي ليست غرائبه
معوزة ولا طرائفه معجزة وهذا النوع أسوأ حالا مما قبل
لأنه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة وقال الجاحظ
لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده وقال
ابن المقفع لا تتهاونن بإرسال الكذب من الهزل فإنها تسرع
إلى إبطال الحق ومنها أن يقصد بالكذب التشفي من عدوه
فيسمه بقبائح يخترعها عليه ويصفه بفضائح ينسبها إليه
ويرى أن معرة الكذب غنم وإرسالها في العدو سهم وسم
وهذا أسوأ حالا من النوعين الأولين لأنه قد جمع بين
الكذب المعر والشر المضر ولذلك ورد الشرع
برد

140

برد شهادة العدو على عدوه ومنها أن تكون دواعي الكذب
قد ترادفت عليه حتى ألفها فصار الكذب له عادة ونفسه إليه
منقادة حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه لأن العادة طبع ثان
وقد قالت الحكماء من استحلى الكذب عسر فطامه وقد قيل في منثور
الحكم لا يلزم الكذاب شيئا إلا غلب عليه واعلم أن للكذب قبل
جراءته أمارات دالة عليه منها أنه إذا لقنته الحديث تلقنه
ولم يكن بين ما لقنته وبين ما أورده فرق عنده ومنها أنك
إذا شككته فيه تشكك حتى يكاد أن يرجع فيه ولولا كذبه ما خالجه
الشك فيه ومنها أنك إذا رددت عليه قوله حصر وارتبك ولم
يكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان الصادقين ولذلك قال
علي بن أبي طالب رضي الله عنه الكذاب كالسراب ومنها ما يظهر
عليه من ريبة الكاذبين وينم عليه من ذلة المتهومين لأن هذه أمور لا يمكن
الإنسان دفعها عنه لما في الطبع من آثارها ولذلك قالت
العلماء العينان أنم من اللسان وقال بعض البلغاء الوجوه مرايا
تريك أسرار البرايا وقال بعض الشعراء
تريك أعينهم ما في صدورهم إن العيون يؤدي سرها النظر
وإذا اتسم بالكذب نسبت إليه شوارد الكذب المجهولة
وأضيف إلى أكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب
مكذوبا عليه فيجمع بين معرة الكذب منه ومضرة الكذب عليه وقد قال الشاعر
حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه وإذا سمعت بكذبة من غيره نسبت إليه
ثم إن تحرى الصدق اتهم فإن جاء الكذب أكذب حتى لا يعتقد

بحديث مصدق ولا كذب مستنكر   قال الشاعر

إذا عرف الكذاب بالكذب لم يكد يصدق في شيء وإن كان صادقا
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ إذا كان حاذقا

وقد وردت السنة بإرخاص الكذب في الحرب وإصلاح ذات البين على وجه التورية والتأويل دون التصريح به فإن السنة لا يجوز أن ترد بإباحة الكذب لما فيه من التنفير وإنما ذلك على طريق التورية والتعريض كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرق سردا أو انفرد عن أصحابه فقال له رجل ممن أنت فقال من ماء فورّى عن الإخبار بنسبه بأمر محتمل فظن السائل أنه عنى القبيلة المنسوبة إلى ذلك وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من الماء الذي خلق منه الإنسان فبلغ ما أحب من إخفاء نفسه وصدق في خبره وكذلك روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه فتلقاه العرب وهم يعرفون أبا بكر ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون يا أبا بكر من هذا فيقول يهديني السبيل فيظنون أنه يعني هداية الطريق وهو إنما يريد سبيل الخير فيصدق في قوله فيوري عن مراده وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إن في المعاريض ما يكفي أن يعف الرجل عن الكذب وقال بعض أهل التأويل في قول الله تعالى لا تؤاخذني بما نسيت إنه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام وقال ابن سيرين الكلام أوسع أن يصرح فيه بالكذب

واعلم أن من الصدق ما يقوم مقام الكذب في القبح والمعرة ويزيد عليه في الأذى والمضرة وهو الغيبة والنميمة والسعاية فأما الغيبة فإنها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر قال الله تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا يعني أنه كما لا يحل لحمه ميتا لا تحل غيبته حيا وروي أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا يغتابان الناس فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال صامتا عما أحل لهما وأفطرتا على ما حرم عليهما وروت أسماء بنت يزيد قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقا على الله أن يحرم لحمه على النار وقال عدي بن حاتم الغيبة رعي اللئام وكان الحسن البصري يقول الغيبة فاكهة الفساق وقال رجل لابن سيرين إني اغتبتك فاجعلني في حل فقال ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك وقال ابن السماك لا تعن الناس على عيبك بسوء غيبتك وقال الشاعر

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا فيهتك الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

وربما اعتذر المغتاب لنفسه بأنه يقول حقا ويعلن فسقا ويستشهد بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة الإمام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه ويبعد من الصواب ومجانبة الأدب لأنه وإن كان بالغيبة صادقا فقد هتك سترا كان بصونه أولى وجاهر من استتر وأخفى وربما دعا المغتاب

ذلك إلى إظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان يضمره علم
بعده ذلك إلا فساد أخلاقه من غير أن يكون فيه صلاح لغيره
وقد قيل لانوشروان ما الذي لا خير فيه فقال ما ضرني
ولم ينفع غيري أو ضر غيري ولم ينفعني لا أعلم فيه خيرا ه
وقيل في منثور الحكم لا سلم من العيوب ما ستره علام الغيوب
وقد روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه
قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة هو أن يقول
لأخيك ما فيه فإن كنت صادقا فقد اغتبته وإن كنت كاذبا فقد بهته
وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا
يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم إنه استهزاء المسلم
بمن أعلن بفسقه ه ودخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم استنقصته
فلما خرجت قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله ما أقصرها
فقال مهلا إياك والغيبة قالت يا رسول الله إنما قلت ما فيها فقال
أجل ولولا ذلك كان بهتانا وسئل بعض الأدباء عن اللئيم فقال
اللئيم إذا غاب عاب وإذا حضر اغتاب وأما الخبر المحمول
على الإنكار لا فعالها أولا ولا يكون الإنكار غيبة لأنه
نهي عن منكر وفرق بين إنكار المجاهر وغيبة المساتر ه
وأما النميمة فهي تجمع إلى مذمة الغيبة رداءة وشرا وتضم إلى
لومها دناءة وغدرا ثم تؤول إلى مقاطعة المتواصلين وتباعد
المتقاربين وتباغض المتحابين وقد روى شهر بن حوشب عن
أسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا أخبركم بشراركم
قالوا بلى

قالوا بلى قال من شراركم المشاؤون بالنميمة المفسدون
بين الأحبة الباغون العيوب ه وروى محمد بن عمرو عن أبي
سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون
كل شغّار ملعون كل قتّات ملعون كل منّان الشغار المحرّش
بين الناس يلقي بينهم العداوة والقتات النمام وقيل إن النمام
هو الذي يكون مع القوم يتحدثون فينم حديثهم والقتات
هو الذي يتسمع عليهم وهم لا يعلمون فينم حديثهم والمنان
الذي يعمل الخير ويمن به ه وقيل في منثور الحكم النميمة سيف
قاتل وقال بعض الأدباء لم يمش ماش شر من واش ه وأما
السعاية فهي شر الثلاثة لأنها تجمع إلى مذمة الغيبة ولوم النميمة
التغرير بالنفوس والأموال والقدح في المنازل والأحوال
وروى ابن قتيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة
ديوث ولا قلّاع والديوث الذي يجمع بين الرجال والنساء
وسمي بذلك لأنه يدب بينهم والقلاع هو الساعي الذي يقع
في الناس عند الأمراء سمي قلاعا لأنه يأتي الرجل المتمكن فلا
يزال يقع فيه حتى يقلعه وقال بعض الحكماء الساعي بين منزلتين
قبيحتين إما أن يكون قد صدق فقد خان الأمانة وإما أن يكون
قد كذب فخالف المروءة وقال بعض الحكماء الصدق زين
كل أحد إلا السعاة فإن الساعي أذم وآثم ما يكون إذا صدق
وقال بعض البلغاء النميمة دناءة والسعاية رداءة وهما رأس

العهد وأساس الشر فتجنب سلبهما واجتنب أهلهما . ووقّع
الفضل بن سهل على قصة ساع سعى إليه نحن نرى قبول السعاية
شرا منها لأن السعاية دلالة والقبول إجازة فاتقوا الساعي
فإنه إن كان في سعايته صادقا فإن في صدقه آثما إن لم يحفظ
الحرمة ويستر العورة . وقال الإسكندر لساع سعى إليه
برجل أتحب أن نقبل منك ما تقول فيه على أن نقبل منه ما يقول فيك
قال لا قال فكف عن الشر يكف عنك الشر . وحكي أن الله تعالى
أوحى إلى موسى عليه السلام أن في بطانتك ساعيا ولست أجيب دعوته
فإن صلى قال يا رب دلني عليه حتى أخرجه قال يا موسى أكره النميمة وآمر بها

الفصل السادس في الحسد والمنافسة

إن الحسد خلق ذميم مع إضراره بالبدن وإفساده للدين حتى
لقد أمر الله تعالى بالاستعاذة من شره فقال تعالى ومن شر
حاسد إذا حسد . وناهيك بحال ذلك شرا . وروي عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال دب إليكم داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد
هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذي نفس محمد بيده
لا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا
السلام بينكم . فأخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد وأن التحابب
ينفيه وأن السلام يبعث على التحابب فصار بالسلام إذا نافيا
للحسد . وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول قال الله
تعالى ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه
ولي حميم معناه ادفع بالسلام إساءة المسيء . وقال الشاعر

قد لبث الناس

143

قد لبث الناس حينا ليس بينهم ود فيزرعه التسليم واللطف . ان
وقال بعض السلف الحسد أول ذنب عصي الله تعالى به في السماء
يعني حسد إبليس لآدم عليه السلام وأول ذنب عصي الله تعالى
به في الأرض يعني حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله . وقال بعض
الحكماء من رضي بقضاء الله تعالى لم يسخطه أحد ومن قنع بعطائه
لم يدخله حسد . وقال بعض البلغاء الناس حاسد ومحسود
ولكل نعمة حسود . وقال بعض الأدباء ما رأيت ظالما أشبه
بمظلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم فأخذه بعض الشعراء

إن الحسود الظلوم في كرب يخاله من يراه مظلوما
ذا نفس دائم على نفس يظهر منه ما كان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد إلا أنه خلق دني يتوجه نحو الأكفاء
والأقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة
عنه كرما والسلامة منه مغنما وكيف وهو بالنفس مضر
حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف من غير نكاية في عدو ولا
إضرار بمحسود . وقال معاوية ليس في خصال الشر أعدل
من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود . وقال بعض
الحكماء يكفيك من الحسود أن يغتم في وقت سرورك . وقيل
في منثور الحكم عقوبة الحاسد من نفسه . وقال الأصمعي قلت لأعرابي
ما أطول عمرك فقال تركت الحسد فبقيت . وقال رجل
لشريح القاضي إني لأحسدك على ما أرى من صبرك على الخصوم
ووقوفك على غوامض الحكم فقال ما نفعك الله بذلك ولا ضرني . وقال عبد الله

اصبر على كيد الحسود فان صبرك قاتله   النار تاكل بعضها ان لم تجد ما تاكله

وحقيقة الحسد شدة الاسى على الخيرات تكون للناس الافاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا ان المنافسة في الخير هو الحسد وليس الامر كما ظنوا لان المنافسة طلب التشبه بالافاضل من غير ادخال الضرر على الفاضل والحسد مصروف الى الضرر لان غايته ان يعدم الفاضل فضله من غير ان يصير الفضل له فهذا هو الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة اذا فضيلة لانها داعية الى اكتساب الفضائل والاقتدا باخيار الافاضل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المومن يغبط والمنافق يحسد وقال الشاعر

نافس على الخيرات اهل العلى   فانما الدنيا احاديث

كل امرئ في شانه كادح   فوارث منهم وموروث

واعلم ان دواعي الحسد ثلثة احدها بغض المحسود فياسى عليه بفضيلة تظهر او منقبة تشكر فتثير حسدا قد خامر بغضا وهذا النوع لا يكون عاما وان كان اضرها لانه ليس يبغض كل الناس والثاني ان يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدمه فيه واختصاصه به فيثير ذلك حسدا لولاه لكف وهذا اوسطها لانه لا يحسد الاكفاء من دنا وانما يختص بحسد من علا وقد يمتزج هذا النوع بضرب من المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسدا والثالث ان يكون في الحاسد شح بالفضائل وبخل بالنعم وليست اليه فيمنع منها ولا بيده فيدفع

عنها لانها مواهب

عنها لانها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله تعالى في قضايه ويحسد على ما منح من عطاياه وان كانت نعم الله تعالى عنده اكثر ومنحه عليه اظهر وهذا النوع من الحسد اعمها واخبثها اذ ليس لصاحبه راحة ولا لرضاه غاية فان اقترن بشر وقدرة كان بوارا وانتقاما وان صادف عجزا ومهانة كان حمقا وسقاما وقال عمر الحمية للمحسود من الهم كفناك السم فلا تسري ثمه سري عنه همه واعلم ان بحسب فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له فان كثر فضله كثر حساده وان قل قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد وحدوث النعمة يضاعف الكمد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء الحوائج بسترها فان كل ذي نعمة محسود وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما كانت لله تعالى على احد نعمة الا وجد لها حاسدا ولو كان الرجل اقوم من القدح لما عدم غامزا وقال الشاعر

ان يحسدوني فاني غير لايمهم   قبلي من الناس اهل الفضل قد حسدوا

فدام لي ولهم ما بي وما بهم   ومات اكثرنا غيظا بما يجد

وربما كان الحسد منبها على فضل المحسود ونقص الحسود كما قال ابو تمام

واذا اراد الله نشر فضيلة   طويت اتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت   ما كان يعرف طيب عرف العود

لولا التخوف للعواقب لم يزل   للحاسد النعمى على المحسود

واما ما يستعمله من كان الحسد عليه غالبا وكان طبعه اليه مايلا لينتفي عنه فيلقاه ويسلم من ضرره وعدواه فامور هي له حسم ان صادفها عزم. منها اتباع الدين في اجتنابه والرجوع الى الله تعالى في ادبه وادابه فيقهر نفسه عن مذموم خلقها وينقلها عن ليم طبعها وان كان نقل الطباع عسرا لكن بالرياضة والتدرج يسهل منها ما استصعب ويحبب منه ما اتعب وان تقدم قول القايل من راقب خلقه كيف يخلي حلمه غيره اذا عاناه تهذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق قال ابو تمام

فلم اجد الاخلاق الا تخلقا ولم اجد الافضال الا تفضلا

ومنها العقل الذي يستقبح به من نتايج الحسد ما لا يرضيه ويستنكف من هجنة مساويه فيذل نفسه انفة ويقهرها حمية فيذعن لرشدها ويجيب الى صلاحها وهذا انما يصح لذي النفس الابية والهمة العلية وان كان ذو الهمة يجل عن دناة الحسد وقد قال الشاعر

ابت له نفسان نفس ابية ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس

ومنها ان يستدفع ضرره ويتوقى اثره ويعلم ان نكايته في نفسه ابلغ ومن المحسود ابعد فيستعمل الحزم في دفع ما كره واكره ليكون اطيب نفسا واهنا عيشا وقد قيل العجب لغفلة الحساد عن سلامة الاجساد

بصيرا عقاب الامور كما يرى بصواب الراي ما هو واقع

ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم اما على نفسه من عداوة او على عرضه من ملامة فيتالفهم بمعالجة نفسه ويراهم ان صلاحها اجدى نفعا واخلص ودا وقال ابن العميد

داوي

داوي جوى الحوى وليس بحازم من يستكف النار بالحلفا

وقال المومل بن اميل

لا تحسبوني غنيا عن مودتكم اني اليكم وان ايسرت مفتقر

ومنها ان يساعد القضا ويستسلم للمقدور ولا يرى ان يغالب قضا الله فيرجع مغلوبا ولا ان يعارضه في امره فيرد مسلوبا محروبا وقال اردشير بن بابك اذا لم يساعدنا القضا ساعدناه

وقال محمود الوراق

قدر الله وارد حين يقضي وروده قد مضى فيك علمه وانتهى ما يريده

واخو الحزم حزمه فيما يريده فارد ما يكون ان لم يكن ما تريده

فان ظفرته السعادة باحد هذه الاسباب وهدته المراشد الى استعمال الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا واعتاض من الفضل حمدا ولمن استنزل نفسه عن مذمة وصرفها عن لايمة هو اظهر حزما واقوى عزما ممن كفته النفس جهادها واعطته قيادها ولذلك قال عليه السلام خياركم كل مفتن تواب وان صدته الشهوة عن مراشده واصله الحرمان عن مقاصده فانقاد للطبع اللييم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كمده فقد با باربع مذام احداهن حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرته انتها ولا يومل لسقامه شفا وقد قال ابن المعتز الحسد دا الجسد والثانيه انخفاض المنزلة وانحطاط الرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه وقد قيل في منثور الحكم الحسود لا يسود والثالثة مقت الناس له

حتى لا تجد فيهم محبا وعدا او تحتمله حتى لا ترى فيهم وليا
مصيرا العداوة موتورا والمقت مرجورا ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه والرابعة
اسخاط الله تعالى في معارضته واجتناب الاوزار في مخالفته
اذ ليس يرى قضاء الله عدلا ولا النعم من الناس اهلا ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم ان الحسد ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب
وقال عبد الله بن المعتز الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له بخيل
بما لا يملكه طالب ما لا يجده واذا بلي الانسان بمن هذه حاله
من حساد النعم واعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوقى
مصارع كيده وتحرز من غوائل حسده وبعد من ملابسته
وادناته لعضل دائه واعواز دوائه فقد قيل حاسد النعمة
لا يرضيه الا زوالها وقال بعض الحكماء من ضر بطبعه فلا
تانس بقربه فان قلب الاعيان صعب المرام وقال عبد الحميد
اسد تقارب به خير من حسود ترافقه وقال محمود الوراق

اعطيت كل الناس من نفسي الرضا الا الحسود فانه اعياني
ما ان لي ذنبا علمه الا تظاهر نعمة الرحمان
وابى فما يرضيه الا ذلتي وذهاب اموالي وقطع لساني

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلثة لا يسلم منهن
احد الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا
ظننت فلا تحقق واذا حسدت فلا تبغ واما ادب المواضعة
والاصطلاح فصران احدهما ما يكون المواضعة في فروعه
واصوله

واصوله والعقل موجب لاصوله والثاني ما يكون المواضعة
في فروعه واصوله وذلك منصح في الفصول التي ذكرها اذا بسر

الفصل الاول في الكلام والصمت

اعلم ان الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضماير ويخبر بمكنونات
السرائر لا يمكن استرجاع بوادره ولا يقدر على رد شوارده
فحق على العاقل ان يتحرز من زلله بالامساك عنه او بالاقلال منه
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله امرا قال خيرا
فغنم او سكت فسلم وقال النبي صلى الله عليه وسلم يا معاذ انت
سالم ما سكتت فاذا تكلمت فلك او عليك وقال علي بن ابي طالب
رضي الله عنه اللسان معيار اطاشه الجهل وارجحه
العقل وقال بعض الحكماء الزم الصمت تعد حليما جاهلا كنت
او عليما وقال بعض الادباء سعد من لسانه صموت وكلامه قوت
وقال بعض العلماء اعود ما يتكلم به العاقل ان لا يتكلم الا
لحاجته او لحجته ولا يتفكر الا في عاقبته او اخرته وقال بعض
البلغاء الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ويومنك سوء المغبة
ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مونة الاعتذار وقال بعض
الفصحاء اعقل لسانك الا عن حق توضحه او باطل تدحضه او حكمة
تنشرها او نعمة تشكرها وقال بعض الشعراء

رايت العز في ادب وعقل وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن اذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا ان تراه له وجه وليس له لسان

واعلم ان للكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل الا بها
ولا يعرى من النقص الا بعد ان يستوعبها وهي اربعة
فالشرط الاول ان يكون الكلام لداع يدعوا اليه
اما في اجتلاب نفع او دفع ضرر والشرط الثاني ان
ياتي به في موضعه ويتوخى به اصابة فرصته والشرط الثالث
ان يقتصر منه على قدر حاجته والشرط الرابع ان يتخير
اللفظ الذي يتكلم به فهذه اربعة شروط فمتى اخل المتكلم
بشرط منها فقد اوهن فضيلة ما فيها وسنذكر من تعليل كل
شرط منها ما يبين عن لزومه فاما الشرط الاول وهو الداعي
الى الكلام فلان ما لا داعي اليه هذيان وما لا سبب له هجر
ومن سامح نفسه في الكلام اذا عنّ ولم يراع صحة دواعيه
واصابة معانيه كان قوله مرذولا ورايه معلولا كالذي
حكى ابن عايشه ان شابا كان يجالس الاحنف ويطيل الصمت
فاعجب ذلك الاحنف فخلت الحلقة يوما فقال له الاحنف
تكلم يا ابن اخي فقال يا عم ارايت ان رجلا سقط من شرفة
المسجد كان يضره شي فقال يا ابن اخي ليتنا تركناك مستورا
ثم تمثل الاحنف بقول الاعور الشني

وكاين ترى من صاحب لك معجب زيادته او نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فواده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وكالذي حكي عن ابي يوسف الفقيه ان رجلا كان يجلس اليه ويطيل
الصمت فقال له ابو يوسف الا تسل فقال له بلى متى يفطر
الصايم

الصايم فقال اذا غربت الشمس قال فان لم تغرب الشمس الى نصف
الليل قال فتبسم ابو يوسف وتمثل ببيتي الخطفى جد جرير

عجبت لازرا العيي بنفسه وصمت الذي بالعلم قد كان اعلما
وفي الصمت ستر للعيي وانما صحيفة لب المرء ان يتكلما

ومما اطرفك به عني اني لست يوما في مجلسي بالبصرة وانا مقبل على
تدريس اصحابي اذ دخل شيخ حسن قد ناهز الثمانين او جاوزها
فقال قصدتك بمسئلة اخترتك لها فقلت سل عافاك الله وظننت
انه يسال عن حادثة قد نزلت به فقال اخبرني عن نجم ابليس
وعن نجم ادم ما هو فان هذين لعظيم شانهما لا يسال عنهما
الا علما الدين فعجبت ومن في مجلسي من سواله وبدر اليه
منهم بالانكار قوم فكففتهم وقلت لا يقتنع مع ما ظهر
من حاله الا بجواب مثله فاقبلت عليه وقلت له يا هذا ان
المنجمين يزعمون ان نجوم الناس لا يعرف الا بمعرفة مواليدهم
فان ظفرت بمن يعرف ذلك فاساله فحينيذ اقبل علي وقال
جزاك الله خيرا ثم انصرف مسرورا فلما كان بعد ايام عاد
وقال ما وجدت الى وقتي من يعرف مولد هاذين فانظر
الى هذا وكيف ابان الكلام عن جهلهم واعرب السوال
عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا
به ولو صدر عن روية [illegible] اليه داع ليتلوا من شينه
وبريوا من عيبه ولذلك قال [illegible] الله عليه وسلم
لسان العاقل من ورا قلبه فاذا [illegible] الكلام رجع الى قلبه

فان كان له ان يتكلم وان كان عليه امسك وقلب الجاهل من ورا لسانه يتكلم بكل ما عرض له وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه وقال بعض الحكما عقل المرء مخبوء تحت لسانه وقال بعض البلغا احبس لسانك قبل ان يطيل حبسك او يتلف نفسك فلا شي اولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب وقال ابو تمام الطاي

وما كانت العلما قالت لسان المرء من خدم الفواد

وكان بعض العلما يحسم الرخصة في الكلام ويقول اذا جالست الجهال فانصت لهم واذا جالست العلما فانصت لهم فان في انصاتك للجهال زيادة في الحلم وفي انصاتك للعلما زيادة للعلم واما الشرط الثاني وهو ان ياتي الكلام في موضعه فان الكلام في غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به وما لا ينفع من الكلام فقد تقدم القول فيه بانه هذيان وهجر وان قدم ما يقتضي التاخير كان عجلة وخرقا وان اخر ما يقتضي التقديم كان توانيا وعجزا لان لكل مقام قولا وفي كل زمان عملا وقد قال الشاعر

تضع الحديث على مواضعه وكلامها من بعده نزر

واما الشرط الثالث وهو ان يقتصر منه على قدر حاجته فلان الكلام اذا لم ينحصر بالحاجة ولم يتقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية وما لم يكن من الكلام محصورا كان اما حصرا ان قصر او هذرا ان كثر وروى

اعرابيا

تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطول فقال النبي صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب فقال شفتاي واسناني قال فان الله تعالى يكره الانبعاق في الكلام فنضر الله امرا اوجز في كلامه فاقتصر على حاجته وحكي ان بعض الحكما راى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال ان الله تعالى انما خلق لك اذنين ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به وقال بعض الحكما من كثر كلامه كثرت اثامه وقال ابن مسعود انذركم فضول المنطق وقال بعض البلغا اللسان بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل واياك وما يسخط سلطانك ويوحش اخوانك فمن اسخط سلطانه تعرض للمنية ومن اوحش اخوانه تبرا من الحرية وقال بعض الشعرا

وزن الكلام اذا نطقت فانما يبدي عيوب ذوي العقول المنطق

والمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير يكون هذرا وكلاهما شين وشين الهذر اشنع وربما كان في الغالب اخوف قال النبي صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصايد السنتهم وقال بعض الحكما مقتل الرجل بين فكيه وقال بعض البلغا الحصر خير من الهذر لان الحصر يضعف الحجة والهذر يتلف المهجة وقال بعض الشعرا

رايت اللسان على اهله اذا ساسه الجهل ليثا مغيرا

وقال اخر

يا رب ألسنة كالسيوف تقطع أعناق أصحابها
وشا ينتقص من شباب الرجال يزدي بها والبابها

وقد ذهب بعضهم إلى أن الكلام إذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان صوابا لا يشوبه خطل وسليما لا يعتوره زلل فهو البيان والسحر الحلال وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام في مجلسه كلا إن من تكلم فأحسن قدر على أن يسكت فيحسن وليس كل من سكت فأحسن قدر على أن يتكلم فيحسن ووصف بعضهم الى نب فقال الكاتب إن أخذ شبرا كفاه وإن وجد طومارا أملاه

وأنشد بعضهم في خطباء إياد

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب فقال يا أبه فإن أنا أكثرت وأكثرت يعني كلاما وصوابا فقال يا بني ما رأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك وأنشدني لأبي الفتح البستي

تكلم وسدد ما استطعت فإنما كلامك حي والسكوت جماد
فإن لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السديد سداد

وقيل لإياس بن معاوية ما فيك عيب إلا كثرة كلامك قال أفتسمعون صوابا أم خطأ قالوا لا بل صوابا قال فالزيادة من الخير خير قال أبو عثمان عمرو بن الجاحظ وليس كما قال لأن للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا

الى الاستثقال

ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وصدق أبو عثمان لأن الإكثار منه وإن كان صوابا يمل السامع ويكل الخاطر وهو صادر عن إعجاب به لولا ذلك لاقتصر منه ومن أعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل في كلامه كثير الزلل دائم العثار وقال بعض الحكماء من أعجب بقوله أصيب بعقله وليس للمكثر الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي ضرره لأنه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعه السآمة والملل وليس في مقابلة هذين حاجة داعية ولا نفع مرجو وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أبغضكم إلي المتفيهق المكثار والملح المهذار وسأل رجل حكيما فقال متى أتكلم فقال إذا اشتهيت الصمت قال فمتى أصمت قال إذا اشتهيت الكلام وقال جعفر بن يحيى إذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار عيا وإذا كان الإكثار واجبا كان التقصير عجزا وقيل في منثور الحكم إذا تم العقل نقص الكلام وقال بعض الأدباء من طالت صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره وقال بعض البلغاء صمت تسلم به خير من نطق تندم عليه فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك وإياك وفضوله فإنه يزل القدم ويورث الندم وقال بعض الفصحاء العاقل إذا هم بالكلام أحجم والجاهل مطلق كلما شاء أطلق وقال الشاعر

إن الكلام لثغر القوم كثرته طوته حتى يلج به عي وإكثار

اختيار اللفظ

وأما الشرط الرابع وهو الذي يتكلم به فلأن اللسان عنوان الإنسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فيلزمه أن يكون

بتهذيب الفاظه حريا وبتقويم لسانه مليا. روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال لعمه العباس يعجبني جمالك قال وما جمال الرجل
قال لسانه. وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا اللسان هل
كان الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة. وقال بعض الحكما اللسان
وزن الانسان. وقال بعض الادبا كلام المرء وافد ادبه. وقال
بعض البلغا يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى اصله بفعله. وقال بعض
وان لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل

وليس يصح اختيار الكلام الا لمن اخذ لسانه بالبلاغة وكلفها لزوم
الفصاحة حتى يصير متدربا بها معتادا لها فلا ياتي الكلام مستكره
اللفظ ولا مختل المعنى لان البلاغة ليست على معاني مفردة ولا لالفاظ
عارية وانما البلاغة ان تكون المعاني الصحيحة مستودعة في الفاظ
فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة. وقد
قيل لليوناني ما البلاغة فقال اختيار الكلام وتصحيح الاقسام
وقيل للرومي ما البلاغة فقال حسن الاقتضاب عند البديهة
والغزارة يوم الاطالة. وقيل للهندي فقال معرفة الفصل
من الوصل. وقيل للعربي فقال ما حسن ايجازه وقل مجازه. وقيل
للبدوي فقال ما دون السحر وفوق الشعر يفت الخردل
ويحط الجندل. وقيل للحضري فقال ما كثر اعجازه وتناسبت
صدوره واعجازه. وقال ابن المقفع البلاغة قلة الحصر
والجراة على البشر. وسال الحجاج ابن القبعثري عن الايجاز
فقال ان تقول فلا تبطي وتصيب فلا تخطي ثم قال اقلني قال

قد فعلت

قال قد فعلت قال هو ان لا تبطي ولا تخطي. وقال الشاعر

خير الكلام قليل على كثير دليل   والعي معنى قصير يحويه لفظ طويل
وفي الكلام فضول وفيه قال وقيل

واما صحة المعاني فتكون من ثلثة اوجه احدها ايضاح تفسيرها
حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة والثاني استيفا تقسيمها حتى
لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج عنها ما هو منها والثالث
صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين احدهما مقابلة المعنى
بما يوافقه وحقيقته هذه المقاربة لان المعاني تصير متشاكلة
والثاني مقابلته بما يضاده وهو حقيقة المقابلة وليس المقابلة الا
احد هذين الوجهين الموافقة في الايتلاف والمضادة مع الاختلاف
واما فصاحة الالفاظ فتكون من ثلثة اوجه احدها مجانبة
الغريب الوحشي حتى لا يمجه سمع ولا ينفر منه طبع والثاني
تنكب اللفظ المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل
حتى لا يستسقطه خاصي ولا ينبو عن فهمه عامي كما قال الجاحظ
في كتاب البيان اما انا فلم ار قوما امثل طريقة في البلاغة من الكتاب
وذلك انهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا
ولا ساقطا عاميا والثالث ان تكون الالفاظ كالقوالب
لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها وقد قال بشر بن المعتمر
في وصيته في البلاغة اذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها
ولا صائرة الى مستقرها ولا حالة في مركزها بل وجدتها
قلقة في مكانها نافرة في موضعها فلا تكرهها على القرار في

في غير موضعها فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون
ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك احد
واذا انت تكلفتهما ولم تكن حاذقا فيهما عابك من انت اقل عيبا
منه وازرى عليك من هو دونه واما المناسبة هو ان يكون المعنى
يليق ببعض الالفاظ اما لعرف مستعمل او لاتفاق مستحسن حتى
اذا ذكرت تلك المعاني بغير تلك الالفاظ كانت نافرة عنها
وان كانت افصح واوضح لاعتيادها ما سواها وقد قال بعض
البلغا لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه اسبق الى فهمك
من لفظه الى سمعك فاما معاطاة الاعراب وتجنب اللحن فما هو من
صفات الصواب والبلاغة اعلا منه رتبة منه واشرف منزلة
وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الادب فضلا ان يكون في عداد
البلغا الفصحا واعلم ان للكلام ادابا ان اغفلها المتكلم
اذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولهى الناس عن محاسن الفاظه
بمساوي ادبه وعدلوا عن شريف مناقبه بذكر مثالبه فمن ادابه
ان لا يتجوز في مدح ولا يسرف في ذم وان كانت النزاهة عن
الذم كرما والتجوز في المدح خلو يصدر عن مهانة والسرف
في الذم يصدر عن شر وكلاهما يشين وان سلم من الكذب
روي انه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من تميم سال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن الاهتم عن قيس بن عاصم فمدحه
فقال قيس والله يا رسول الله لقد علم اني خير مما وصف ولكنه
حسدني فذمه عمرو وقال والله يا رسول الله لقد صدقت في
الاولى

وما كذبت في الاخرى لاني رضيت في الاولى فقلت احسن ما علمت
وسخطت في الاخرى فقلت اقبح ما علمت فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا على ان السلامة من الكذب في المدح
والذم متعذرة لا سيما اذا امتدح تقربا وذم تحنقا حكي عن الاحنف
بن قيس انه قال سهرت ليلة افكر في كلمة ارضي بها سلطاني ولا اسخط
بها ربي فما وجدتها وقال عبد الله بن مسعود ان الرجل
ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج وما معه دينه قيل
وكيف ذلك قال يرضيه بما يسخط الله تعالى وسمع ابن الرومي رجلا
يصف رجلا ويبلغ في مدحه فانشا يقول

اذا ما وصفت امرا لامرئ فلا تغل في وصفه واقصد
فانك ان تغل تغل الظنون فيه الى الامل الابعد
فيضال من حيث عظمته بفضل المغيب على المشهد

ومن ادابه ان لا تبعثه الرغبة والرهبة على الاسترسال في
وعد او وعيد يعجز عنهما ولا يقدر على الوفا بهما فان من اطلق
بهما لسانه وارسل فيهما عنانه لم يستثقل من القول ما يستثقله من
العمل صار وعده نكثا ووعيده عجزا وقد حكي ان سليمن
بن داود مر بعصفور يدور حول عصفورة فقال لاصحابه
هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبي الله قال انه يخطبها الى
نفسه ويقول زوجيني نفسك اسكنك اي غرف دمشق شئت
فقال سليمن كذب العصفور غرف دمشق مبنية بالصخر
لا يقدر ان يسكنها هناك ولكن كل خاطب كاذب

ومن ادابه انه اذا قال قولا حققه بفعله واذا تكلم بكلام صدقه بعمله فان ارسال القول اختيار والعمل به اضطرار ولان يفعل ما لا يقول اجمل من ان يقول ما لم يفعل وقد قال بعض الحكما احسن الكلام ما لا يحتاج فيه الى الكلام اي يكتفي بالفعل من القول وقال محمود الوراق

القول ما صدقه الفعل ... والفعل ما وكده العقل

لا يثبت القول اذا لم يكن ... يقله من تحته الاصل

ومن ادابه ان يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده واغراضه فان كان ترغيبا قرنه باللين والعطف وان كان ترهيبا خلطه بالخشونة والعنف فان لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود لهوا وقد قال ابو الاسود الدولي لابنه يا بني اذا كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك ومن ادابه ان لا يرفع بكلامه صوتا مستكرها ولا ينزعج له انزعاجا مستقبحا وليكف عن حركة تكون طيشا وعن حركة تكون عيا فان نقص الطيش اكثر من فضل البلاغة وقد حكي ان الحجاج قال لاعرابي اخطيب انا قال نعم لولا انك تكثر الرد وتشير باليد وتقول اما بعد ومن ادابه ان يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح صريحه ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وادبه مصون وقد قال محمد بن علي في قوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما قال كانوا اذا ذكروا

الفروج كنوا عنها وكما انه يصون لسانه عن ذلك فكذلك يصون سمعه عنه فلا يسمع عيبا ولا يصغي لفحش فان سماع الفحش داع الى اظهاره وذريعة الى انكاره واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان اعراضه احد النكيرين كما ان سماعه احد الباعثين وانشدني ابو الحسن ابن ابي الكاف الهاشمي

تحرّ من الطرق اوساطها ... وعد عن الجانب المشتبه

وسمعك صن عن سماع القبيح ... كصون اللسان عن النطق به

فانك عند استماع القبيح ... شريك لقائله فانتبه

ومما يجري مجرى فحش القول وهجره في وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وان كان عقب التامل سليما وبعد الكشف مستقيما كالذي رواه الازدي عن الصولي لبعض المتكلفين من الشعرا

اني شيخ لابس كافر بالله سيدي ... انت ربي والهي رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر اي لابس لان الكفر التغطية ولذلك سمي الكافر بالله كافرا لانه قد غطى نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سيدي اقسم عليها بالله ان تسير وقوله انت ربي اي ربيت ولدك من التربية والهي رازق الطفل الصغير انه دار في الجلد الكبير فانظر الى هذا التكلف البشع والتعمق الشنيع ما اعتاص من خبث البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الا لوما ان حسن فيه الظن او ذما ان قوي فيه الارتياب فلعل اما يجوز ذلك الامر خليع نطرا ومرتاب اشر فاما الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه

انه قال لا تصلوا على النبي فخارج من هذا النوع من التلبيس
وفي تاويله وجهان احدهما انه اراد النهي عن الصلوة في المكان المرتفع
المحدودب ماخوذ من النبوة والثاني انه اراد الطريق ومنه سموا
رسل الله انبيا لاهتدا الطريق اليه وانما ازال عنه التلبيس اذ قاله النبي
صلى الله عليه وسلم وان كان من قول غيره تلبيسا شنيعا لان موضوع
خطابه وشواهد حاله يصرفان كلامه عن التجوز والاسترسال في
امر او نهي الى ما يجوز ان يرد به شرع وينهى عنه نهي وليس يمتنع ذلك في غيره
ولذلك ما افترق وجوده منه ومن غيره ومن ادابه ان يجتنب
امثال العامة الغوغا ويتخصص بامثال العلما والادبا فان لكل صنف
من الناس امثالا تشاكلهم فلا تجد لساقط الا مثلا ساقطا وتشبيها
مستقبحا وقد قال الصنوبري

وللساقط امثال فمنها مثلهم لذي الشي المريب
اذا ما كنت ذا بول صحيح الا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علتان احداهما ان الامثال من هواجس الهمم وخطرات
النفوس فلم يكن لذي الهمة الساقطة الا مثل مرذول وتشبيه
معلول والثاني ان الامثال مستخرجة من احوال المتمثلين بها فبحسب
ما هم عليه تكون امثالهم فلهاتين العلتين ما وقع الفرق بين امثال الخاصة
والعامة وربما الف المتخصص مثلا عاميا وتشبيها ركيكا لكثرة
ما يطرق سمعه من مخالطة الارذال فيسترسل في ضربه مثلا فيصير
في الناس مثلا كالذي حكي عن الاصمعي ان الرشيد ساله يوما عن
انساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت يا امير المومنين فقال
الربيع

الربيع اسقط الله جنبيك اتخاطب امير المومنين بمثل هذا الخطاب
فكان الربيع مع قلة علمه اعرف بما يستعمل من الكلام في محاورة
الخلفا من الاصمعي الذي هو واحد عصره وفريد دهره وللامثال من
الكلام مواقع في الاسماع وتاثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ
مبلغها ولا يوثر تاثيرها لان المعاني بها لايحة والشواهد بها واضحة
فالنفوس لها واصفة والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة ولذلك
ضرب الله الامثال في كتبه وجعلها من دلايل رسله واوضح بها
الحجة على خلقه لانها في العقول معقولة وفي القلوب مقبولة ولها
اربعة شروط احدها صحة التشبيه واصابة التمثيل
والثاني ان يكون العلم بها سابقا والكل عليه موافقا والثالث ان يسرع
وصولها الى الفهم ويتعجل تصورها في الوهم من غير ارتياب في
استخراجها ولا كد فكر في استنباطها والرابع ان يناسب
حال السامع ليكون ابلغ تاثيرا واحسن موقعا فان اجتمعت الا مثال
المضروبة هذه الشروط الاربعة كانت زينة للكلام وجلا
المعاني وتدبر الافهام

الفصل الثاني في الصبر والجزع

ان من حسن التوفيق وامارات السعادة الصبر في الملمات والرفق
عند النوازل وبذلك نزل الكتاب وجات السنة قال الله
تعالى يا ايها الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله
لعلكم تفلحون يعني اصبروا على ما افترض الله عليكم وصابروا
عدوكم ورابطوا فيه تاويلان رابطوا على الجهاد والثاني

رابطوا على انتظار الصلوات . وروى ابو هريرة قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على ما يحط الله به الخطايا ويرفع به
الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره
وكثرة الخطو الى المساجد وانتظار الصلوة بعد الصلوة فذلكم
الرباط فنزل الكتاب بتاكيد الصبر فيما امر به وندب اليه وجعله
من عزائم التقوى فيما افترضه وحث عليه . وروي ان النبي صلى الله
عليه وسلم الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب وقال
علي بن ابي طالب رضي الله عنه الصبر مطية لا تكبو والقناعة
سيف لا ينبو وقال عمر بن عبد الحميد لم اسمع احسن من قول عمر
بن الخطاب رضي الله عنه لو ان الصبر والشكر بعيران ما باليت
ايهما ركبت وقال عبد الله بن مسعود افضل العدة الصبر على
الشدة . وقيل في منثور الحكم من احب البقاء فليعد للمصائب
قلبا صبورا . وقال بعض الحكماء بالصبر على مواقع الكره
تدرك الحظوظ وقال عبيد بن الابرص

صبر النفس عند كل ملم ان في الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن في الامور فقد يكشف غماؤها بغير احتيال
ربما تجزع النفوس من الامر لها فرجة كحل العقال

وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة الصبر صبران فاللئام
اصبر اجساما والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح
بصاحبه ان يكون الرجل قوي الجسد على الكد والعمل
لان هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس غلوبا

وللامور

وللامور محتملا ولجاشه عند احفاظ مرتبطا واعلم ان الصبر
على ستة اقسام وهو في كل قسم منها محمود فاول اقسامه واولاه
الصبر على امتثال ما امر الله تعالى به والانتهاء عما نهى الله تعالى
عنه لان به تخلص الطاعة وبخلوص الطاعة يصح الدين ويؤدى
الفرض ويستحق الثواب كما قال في محكم الكتاب انما يوفى الصابرون
اجرهم بغير حساب ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الصبر من
الايمان بمنزلة الراس من الجسد وليس لمن قل صبره على طاعة
الله حظ من بر ولا نصيب من صلاح ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها
ثوابا ويدفع عنها عقابا كان مع سوء الاختيار بعيدا من الرشاد
حقيقا بالضلال وقد قال الحسن البصري يا من يطلب من الدنيا ما
لا يلحقه اترجو ان تلحق من الآخرة ما لا تطلبه وقال ابو العتاهية

اراك امرا ترجو من الله عفوه وانت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وانت مقصر ايا من يداوي الناس وهو سقيم

وهذا الصبر انما يكون لفرط الجزع وشدته فان من خاف
الله تعالى صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند
اوامره . والقسم الثاني الصبر على ما تقتضيه اوقاته
من رزية قد اجهده الحزن عليها او حادثة قد استكده
الهم بها فان الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه
المثوبة بها فان صبر طائعا والا احتملها لازما وصبر كارها
آثما . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله
تعالى من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليتخذ ربا سواي

وقال امير المومنين علي ابن ابي طالب رضي الله عنه للاشعث
ابن قيس انك ان صبرت جرى عليك القلم وانت ماجور وان جزعت جرى
عليك القلم وانت مازور فذكر ذلك ابو تمام في شعره فقال
وقال علي في التعازي لاشعث وخاف عليه بعض تلك الماثم
اتصبر للبلوى عزا وحسبة فتوجر ام تسلو سلو البهايم
وقال شبيب بن شيبة للمهدي ان احق ما صبر عليه ما لم تجد سبيلا
الى دفعه . وانشد
واذا تصبك مصيبة فاصبر لها عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر . وقال اخر
تصبرت مغلوبا واني لموجع كما صبر الظمان في البلد القفر
وليس اصطباري عنك صبر استطاعة ولكنه صبر امر من الصبر
والقسم الثالث الصبر على ما فات ادراكه من رغبة مرجوة واعوز
نيله من مسرة مامولة فان الصبر عنها يعقب السلو عنها والاسف
بعد الياس خرق وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
من اعطي فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر فاولئك
لهم الامن وهم مهتدون . وقال بعض الحكما اجعل ما طلبته
من الدنيا فلم تناله مثل ما لم يخطر ببالك فلم تقله . وقال بعض الشعراء
اذا ملك القضاء عليك امرا فليس يحله غير القضاء
فما لك والمقام بدار ذل ودار العز واسعة الفضاء
وقال بعض الحكما ان كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع على ما لم
يصل اليك فاخذه بعض الشعرا فقال
لا تطل الحزن على فايت فقلما يجدي عليك الحزن

سيان محزون على فايت ومضمر حزنا على ما لم يكن
والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها او يحذر
حلوله من نكبة يخشاها فلا تتعجل هم ما لم يات فان اكثر الهموم
كاذبة والغالب من الخوف مدفوع وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع الابواب يلج .
وقال الحسن البصري لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم
همه وانشد الجاحظ لحارثة ابن بدر
اذا الهم امسى وهو داء فامضه ولست بممضيه وانت تعادله
ولا تنزلن امر الشديدة بامرئ اذا هم امرا عوقته عواذله
وقل للفواد ان نزا بك نزوة من الروع افرخ اكثر الهم باطله
والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من
نعمة يأملها فانه ان ادهشه التوقع لها واذهله التطلع اليها انسدت عليه
سبل المطالب واستفزه تسويف المطامع فكان ابعد لرجايه
واعظم لبلايه واذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبورا
انجلت عنه غاية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فابصر رشده وعرف
قصده . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الصبر
ضيا يعني والله اعلم انه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقايق الامور
وقال اكثم بن صيفي من صبر ظفر وقال ابن المقفع كان
في قصر ازدشير مكتوب الصبر مفتاح الدرك . وقال بعض
الحكما بحسن التاني تسهل المطالب . وقال بعض البلغا من صبر نال
المنى ومن شكر حصن النعمى . وقال محمد بن بشير

ان الامور اذا اشتدت مطالبها فالصبر يفتق منها كلما ارتتجا
لا تيأسن وان طالت مطالبه اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا
اخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجته ومدمن القرع للابواب ان يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه او حل من امر مخوف وبالصبر في
هذا تنفتح وجوه الآرا وتستدفع مكايد الاعدا فان من قل صبره عزب
رايه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه وقد قال
الله تعالى واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور وروي عن ابن
عباس رضي الله عنه انه قال ان استطعت ان تعمل لله تعالى بالرضى
في اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ما تكره خيرا
كثيرا واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع
العسر وقال علي ابن ابي طالب رضي الله عنه الصبر مناطح
الحدثان والجزع من اعوان الزمان وقال بعض الحكما
مفاتيح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور وقال بعض البلغا
عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج وروي عن ابن عباس ان
سليمان بن داود عليهما السلام لما استكد شياطينه في البنا شكوا
ذلك الى ابليس فقال الستم تذهبون فرغا وترجعون مشاغيل قالوا بلى
قال ففي ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان فشغلهم ذاهبين وراجعين
فشكوا ذلك الى ابليس فقال الستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال
ففي ذلك راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان فاستعملهم
بالليل والنهار فشكوا ذلك الى ابليس فقال الان جاكم الفرج
فما لبث ان اصيب سليمان ميتا على عصاه واذا كان هذا في نبي من انبيا الله

يجمل باس وتعطف على حين فكيف بما جنته الاقدار من ابداعاته
وساقته القضا من حوادث نازله هل تكون مع التناهي الا منقوضه
وعند بلوغ الغاية المنحسمه وانشد بعض الادبا لعلي بن عقاب رضي الله عنه
خليلي لا والله ما من ملمة تدوم على حي وان هي جلت
فان نزلت يوما فلا تخضعن لها ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت
وكم غمرة هاجت بامواج غمرة تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الايام نفسي عزيزة فلما رات صبري على الذل ذلت
فكم من كريم قد بلي بنوايب فصابرها حتى مضت واضمحلت

ولتسهيل المصايب وتخفيف الشدايد اسباب اذا قارنت حزما
وصادفت عزما هان وقعها وقل تاثيرها وضررها فمنها اشعار
النفس بما تعلمه من حلول الفنا وتقضي المسار وان لها اجالا
منصرمة ومددا منقضية اذ ليس للدنيا حال يدوم ولا لمخلوق فيها
بقا وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال انما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب مال الى ظل شجرة في يوم
صايف ثم راح وتركها وسئل علي بن ابي طالب رضي الله عنه
عن الدنيا فقال تغر وتضر وتمر وقال عمرو بن عبيد الدنيا
امد ولله حين ابد وقال انوشروان ان احببتم الا تحزنوا
فلا تقتنوا ما تهتمون به فاخذ بعض الشعرا فقال
الم تر ان الدهر من سوء فعله يكدر ما اعطى ويسلب ما اسدى
فمن سره ان لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيا يخاف له فقدا
وقال اخر

كما يقرط خير نفسه ووقيته شر الهموم الركدا
قاله الهموم كمثل طبع الورى في لبث ما في طبعه ان يفسدا
فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا الكسر فانكسر فلا تمت كمدا

وانشد لي بعض اهل العلم لسعيد بن سلم
انما الدنيا هبات وعوار مسترده شدة بعد رخاء ورخاء بعد شده

ولما قتل بزرجمهر وجد في ازر قميصه رقعة فيها مكتوب
ان لم يكن جد ففيم الكد واذا لم يكن للامر دوام ففيم السرور
واذا لم يرد الله تعالى دوام ملك ففيم الحيلة وقال ابن الرومي
ان حيوة المرء رهنا هونه وصحته رهنا كذلك بالسقم
اذا طاب لي عيش تنغصت طيبه بصدق يقيني ان سيذهب كالحلم
ومن كان في عيش يراعي زواله فذلك في بؤس وان كان في نعم

ومنها ان يتصور انجلاء الشدائد وانكشاف الهموم وانما تقدر
باوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها ولا تقصر بجزع ولا تطول بصبر
وان كل يوم يمر بها فهو يذهب منها بشطر ويأخذ منها بنصيب
حتى تنجلي وصاحبها غافل حكي ان الرشيد حبس رجلا ثم سأل
عنه بعد زمان فقال للموكل قل له كل يوم يمضي من نعيمي يمضي
من بؤسي مثله والامر قريب والحكم لله فاخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال
لو ان ما انتم فيه يدوم لكم ظننت ما انا فيه دائما ابدا
لكنني عالم اني وانكم سنستجد سوى ذي الحالين غدا

وانشد بعض الشعراء
عواقب مكروه الامور خيار وايام شر لا تدوم قصار

وليس بباق بؤسها ونعيمها اذا كر ليل بعده ونهار
وانشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة
الم تر ان ربك ليس يحصي اياديه الحديثة والقديمة
تسل عن الهموم فليس شيء يقيم ولا همومك بالمقيمة
لعل الله ينظر بعد هذا اليك بنظرة منه رحيمة

ومنها ان يعلم ان فيما وقي من الرزايا وكفي من الحوادث ما هو
اعظم من رزيته واشد من حادثته ليعلم انه ممنوح بحسن الدفاع
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى في اثناء كل محنة
منحة وقيل للشعبي في نائبة نابته كيف اصبحت قال بين نعمتين
خير منشور وشر مستور وقال بعض الشعراء
لا تكره المكروه عند حلوله ان العواقب لم تزل متباينة
كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في طي المكاره كامنة

ومنها ان يتاسى بذوي الغير ويتسلى باولي العبر ويعلم انهم
الاكثرون عددا والاسرعون مددا فيستجد من سلوة الاسى وحسن
العزا ما يخفف شجوه ويقل هلعه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه
الصقوا بذوي العبر تتسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كانت مراثي الشعراء
قال البحتري
فلا عجب للاسد ان ظفرت بها كلاب الاعادي من فصيح واعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردى وموت علي من حسام ابن ملجم
وقال ابو فراس
المرء رهن مصائب ما تنقضي حتى يوارى شخصه في رمسه

ثم حل يلقى الرزايا في اهله ويحل يلقى الرزايا في رمسه
ومنها ان يعلم ان النعم زايرة وانها لا محالة زايلة وان السرور بها اذا اقبلت
مشوب بالحذر من فراقها اذا ادبرت وانها لا تفرح باقبالها فرحا
حتى يعقب بفراقها ترحا فعلى قدر السرور يكون الحزن وقد قيل
في منثور الحكم المفروح به هو المحزون عليه. وقيل من بلغ غاية ما
يحب فليتوقع غاية ما يكره. وقال بعض الحكما من علم ان كل
نايبة الى انقضا حسن عزاه عند نزول البلا. وقيل للحسن
البصري كيف ترى الدنيا فقال شغلني توقع بلايها عن الفرح برخايها
فاخذه ابو العتاهية فقال
تريده الايام ان اقبلت شدة خوف لتصاريفها
كانها في حال اسعافها تسمعه وقع تخويفها
ومنها ان يعلم ان سروره مقرون بمساة غيره وكذلك
حزنه مقرون بسرور غيره اذ كانت الدنيا تنتقل من صاحب
الى صاحب وتصل صاحبا بفراق صاحب فتكون سرورا لمن وصلته
وحزنا لمن فارقته ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قرعت عصا
على عصا الا فرح لها قوم وحزن اخرون. وقال البحتري
متى ارت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه. وانشد المتنبي
بذا قضت الايام ما بين اهلها مصايب قوم عند قوم فوايد
وانشد بعض اهل الادب
الا انما الدنيا غضارة ايكة اذا اخضر منها جانب جف جانب
فلا تحزن فيها لشي تفقده سيذهب يوما مثل ما انت ذاهب

وما هذه الايام الا فجايع وما العيش واللذات الا مصايب
ومنها ان يعلم ان طوارق الانسان من دلايل فضله ومحنه من شواهد
نبله ولذلك احدى علتين اما ان يعلم ان طوارق الانسان لان الكمال
معوز والنقص لازم فاذا توفر الفضل عليه صار النقص فيما سواه.
وقد قيل من زاد في عقله نقص من رزقه. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال ما استكملت جارحة من انسان الا كانت دا في عقله. وقال ابو العتاهية
ما جاوز المرء من اطرافه طرفا الا تخونه النقصان من طرف
وانشد بعض الادبا لابراهيم بن هلال
اذا جمعت بين امرين صناعة فاحببت ان تدري الذي هو احذق
فلا تتفقد منها غير ما جرت به لها المرزاق حين تفرق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق
واما الاخرى فان الفضل محسود والاذى مقصود فهو لا يسلم
من معاند واستطالة مناو. وقد قال الصنوبري
محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى كالنار مخبرة بفضل العنبر
وقلما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص وبلوى عالم الا على
يد جاهل لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدوث الانتقام
لاختلاف التقدم. وقد قال الشاعر
فلا غرو ان يمنى اديب بجاهل فمن ذنب التنين تكسف الشمس
ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوايب عصره ويستفيده من
الحنكة بلاوا دهره فيصلح عثرته ويستقيم عوده ويكمل باكب
سلامته ورضاه وتسوط بحالي عفوه وبلايه. حكي لعلب

قال دخلت على عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خلع الرضى بعد
النكبة فلما مثلت بين يديه قال يا ابا العباس

نوايب الدهر ادبتني وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بوس ولا نعيم الا ولي فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالي من كل خطب له خطوب

قلت لمن هذه الابيات قال لي ومنها ان يخبر امور زمانه ويتنبه
على صلاح شانه فلا يغتر برخا ولا يطمع باستوا ولا يومل ان يبقى
الدنيا على حالة او يخلو من تقلب واستحالة فان من عرف الدنيا وعرف
احوالها هان عليه بوسها ونعيمها انشد بعض الادبا

اني رايت عواقب الدنيا فتركت ما اهوى لما اخشى
فكرت في الدنيا وما فيها فاذا جميع امورها تفنى
والموت آلتراهلها فاذا اهل امري في شانه يسعى
اسنى منازلها وارفعها في العز اقربها من المهوى
تفقوا امسا ويها محاسنها لا شي من المعنى والبشرى
ولقد مررت على القبور فما ميزت بين العبد والمولى
اتراك تدري كم رايت من الاحيا ثم رايتهم موتى

فاذا اظفر المصاب بهذه الاسباب خففت عنه احزانه وتسهلت
عليه اشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزا
قال بعض الحكما من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان
متوقعا لم يلف متوجعا وقال بعض الشعرا

ما يكون

ما يكون الامر سهلا كله انما الدهر سهول وحزون
هون الامر تعش في راحة قلما هونت الا سيهون

فان اغفل نفسه عن دواعي السلوة ومنعها من اسباب الصبر تضاعف
عليه من شدة الاسى وهم الجزع ما لا يطيق صبرا عليه ولا يجد سلوا عنه وقال ابن الرومي

ان البلا يطاق غير مضاعف فاذا تضاعف صار غير مطاق

وان ساعده جزعه بالاسباب الباعثة عليه وامد هلعه بالذرايع
الداعية اليه فقد سعى في حتفه واعان على تلفه فمن اسباب ذلك
ذلك تذكر المصاب حتى لا يتناساه وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا
يجد مع التذكار سلوة ولا مع التصور تعزية وقد قال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه لا تستغزروا الدموع بالتذكر وقال الشاعر

ولا تبعث الاحزان مثل التذكر

ومنها الاسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا
يجد المفقود بدلا فيزداد بالاسف ولها وبالحسرة هلعا ولذلك
قال الله تعالى لكيلا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم
وقال بعض الشعرا



اذا ابتليت فثق بالله وارض به ان الذي يكشف البلوى هو الله
الياس يقطع احيانا بصاحبه لا تياسن فان الصانع الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته ما لامرئ حيلة فيما قضى الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل في قوله تعالى
فصبر صبرا جميلا انه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث وروى
انس بن مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم ما صبر من بث وحكي كعب الاحبار

انه مكتوب في التورية من اصابته مصيبه فشكا الى الناس فانما يشكوا
ربه ٥ وحكي ان اعرابية دخلت من البادية فسمعت صوارخ في دار
فقالت ما هذا فقيل لها مات لهم ميت فقالت ما اراهم الا من ربهم
يستغيثون وبقضايه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون ٥ وقيل في
منثور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه وانشد بعض اهل العلم
لا تكثر الشكوى الى الصديق وارجع الى الخالق لا المخلوق
لا يخرج الغريق بالغريق ٥ وقال بعض الشعرا
لا تشك دهرك ما صحبت به ان الغنى هو صحة الجسم
هبك الخليفة كنت منتفعا بغضارة الدنيا مع السقم
ومنها اليأس من جبر مصابه ودرك طلابه فيقترن بحزن الحادثة
قنوط الاياس فلا يبقى معهما صبر ولا يتسع لهما صدر ٥ ولذلك
قيل المصيبة بالصبر اعظم المصيبتين ٥ وقال ابن الرومي ٥
اصبري ايها النفس فان الصبر احجى ٥
ربما خاب رجاء وانى ما ليس يرجى ٥
وانشد لي بعض اهل الادب
اتحسب ان البوس للحر دايم ولو دام شي عده الناس في الطلب
لتدع فتك النايبات نفوسها وقد ادبت ان كان ينفعك الادب
ولو طلب الانسان من صرف دهره دوام الذي يخشى اعياه ما طلب
ومنها ان يعري بملاحظة من حفظت سلامته وحرست نعمته
حتى التحف بالامن والدعة واستمتع بالثروة والسعة ويرى انه
قد خص من بينهم بالرزية بعد ان كان مساويا وافرد بالحادثة
بعد

بعد ان كان مكافيا فلا يستطيع صبرا على بلوى ولا يلتزم شكرا
على نعمى ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه في الرزية
وساواه في الحادثة لتكافا الامران فهان عليه الصبر وحان
عليه الفرج ٥ انشدت لامراة من العرب
ايها الانسان صبرا ان بعد العسر يسرا ٥
كم رايا اليوم حرا لم تر بالامس حرا ٥
ملك الصبر فاضحى مالكا خيرا وشرا ٥
اشرب الصبر وان كان من الصبر امرا ٥ وانشد بعض اهل الادب
يراع الفتى للخطب تبدو اصوله فياسى وفي عقباه يأتي سروره
الم تر ان الليل لما تراكمت دجاه بدا وجه الصباح ونوره
فلا تصحبن الناس ان كنت عالما لشاما ان الدهر شتى امورة
واعلم انه قل من صبر على حادثة وتماسك في نكبة الا كان
انكشافها وشيكا وكان الفرج منها قريبا ٥ اخبرني
بعض اهل العلم والادب ان ابا ايوب الكاتب حبس في السجن
خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره فكتب الى بعض اخوانه
يشكو طول حبسه وقلة صبره فرد عليه جواب رقعته ا
صبرا ابا ايوب صبر مبرح فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها
ان الذي عقد الذي انعقدت له عقد المكاره فيك يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة ولعلها ان تنجلي ولعلها
فاجابه ابو ايوب ٥
صبرتني ووعظتني وانا لها وستنجلي بل لا اقول لعلها

وبحلها من كان صاحب عقد عما كربتا بها اذ كان يملك حلها
قال فلم يلبث بعد ذلك في السجن الا اياما حتى اطلق سراحها وانشد
ابن دريد عن ابي حاتم

اذا اشتملت على الياس القلوب — وضاق لما به الصدر الرحيب
واوطنت المكاره واطمأنت — وارست في اماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها — ولا اغنى بحيلته الاريب
اتاك على قنوط منك غوث — يمن به القريب المستجيب
وكل الحادثات وان تناهت — فموصول بها فرج قريب

الفصل الثالث في المشورة

ان من الحزم لكل ذي لب ان لا يبرم امرا ولا يمضي عزما الا بمشورة ذي الراي الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح فان الله تعالى امر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل به من ارشاده ووعده من تاييده فقال وشاورهم في الامر قال قتادة امره بمشاورتهم تالفا لهم وتطييبا لانفسهم وقال الضحاك امره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل وقال الحسن البصري امره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وان كان عن مشورتهم غنيا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المشاورة حصن من الندامة وامان من الملامة وقال علي ابن ابي طالب رضي الله عنه نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرجال ثلاثة رجل ترد عليه الامور فيسددها برايه ورجل يشاور فيما اشكل عليه وينزل حيث

يامره

يامره اهل الراي ورجل حائر بائر لا ياتمر رشدا ولا يطيع مرشدا وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ان المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما راي ولا يفقد معهما حزم وقال سيف بن ذي يزن من اعجب برايه لم يشاور ومن استبد برايه كان من الصواب بعيدا وقال عبد الحميد المشاور في رايه ناظر من ورائه وقيل في منثور الحكم المشورة راحة لك وتعب على غيرك وقال بعض الحكماء الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برايه وقال بعض الحكماء ما خاب من استخار ولا ندم من استشار وقال بعض البلغاء من حق العاقل ان يضيف الى رايه راي العلماء ويجمع الى عقله عقول الحكماء فالراي الفذ ربما زل والعقل الفرد ربما ضل وقال بشار بن برد

اذا بلغ الراي المشورة فاستعن — براي نصيح او مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة — مكان الخوافي قوة للقوادم

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من اهلها من قد استكملت فيه خمس خصال احداهن عقل كامل مع تجربة سالفة فان بكثرة التجارب تصح الروية وقد روى ابو الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا وقال عبد الله ابن الحسن لابنه محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدوا فانه يوشك ان يورطك بمشورته فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل وقيل لرجل من عبس

تبارك ترجوا اكم قال نحن الف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه
فكانا الف حازم ذ وكان يقال اياك ومشاورة رجلين شاب
معجب بنفسه قليل التجارب في غيره او كبير قد اخذ الدهر
من عقله كما اخذ من جسمه ذ وقيل في منثور الحكم كل شي يحتاج
الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب ذ ولذلك قيل الايام تهتك
لك عن الاستار الكامنة ذ وقال بعض الحكما التجارب ليست
لها غاية والعاقل منها في زيادة ذ وقال بعض البلغا من استعان
بذوي العقول فاز بدرك المامول ذ وقال ابو الاسود الدؤلي

وما كل ذي نصح بموتيك نصحه ولا كل موت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب فحق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية ان يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح
وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مامون السريرة
موفق العزيمة ذ روى عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم من اراد امرا فشاور فيه امرا مسلما وفقه
الله لارشد اموره ذ والخصلة الثالثة ان يكون ناصحا ودودا
فان النصح والمودة يصدقان الفكر ويمحضان الراي وقد قال
بعض الحكما لا تشاور الا الحازم غير الحسود واللبيب غير
الحقود واياك ومشاورة النسا فان رايهن الى الافن وعزمهن الى
الوهن وقال بعض الادبا مشورة الحازم المشفق ظفر ومشورة
غير الحازم خطر ذ وقال بعض الشعرا

اصف ضميرك لمن تعاشره واسكن الى ناصح تشاوره

وارض

وارض من المرء في مودته بما يودي اليك ظاهره
من يكشف الناس لم يجد احدا تصح منهم له سرائره
اوشك ان لا يدوم وصل اخ في كل زلاته ينافره

والخصلة الرابعة ان يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل
فان من عارضت فكره شوايب الهموم لم يسلم له راي ولم
يستقم له خاطر ذ وقد قيل في منثور الحكم بتردد الفكر
ينجاب لك العمى ذ وكان كسرى اذا دهمه امر بعث الى مرازبته
فاستشارهم فان قصروا في الراي ضرب قهارمته وقال ابطاتم بارزا فهم
فاخطوا في ارايهم ذ وقال صالح بن عبد القدوس

ولا مشير كذي نصح ومقدرة في مشكل الامر فاختر ذاك منتصحا

والخصلة الخامسة ان لا يكون له في امر المستشار غرض يتابعه
ولا هوى يساعده فان الاغراض جاذبة والهوى صاد
والراي اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد ذ
وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن ابي لهب

وقد يحكم الايام من كان جاهلا ويردي الهوى ذا الراي وهو لبيب
ويحمد في الامر الفتى وهو مخطي ويعذل في الاحسان وهو مصيب

فاذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل كان اهلا للمشورة
ومعدنا للراي فلا تعدل عن استشارته اعتمادا على ما تتوهم
من فضل رايك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فراي غير
ذي الحاجة اسلم وهو من الصواب اقرب لخلوص الفكر وخلو
الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة ذ وقد روي عن

النبي صلى الله عليه وسلم انه قال راس العقل بعد الايمان بالله التودد
الى الناس. وما استغنى مستبد برايه وما هلك احد عن مشورة
فاذا اراد الله تعالى بعبد هلكة كان اول ما يهلكه رايه.
وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه الاستشارة عين الهداية
وقد خاطر من استغنى برايه. وقال لقمان لابنه شاور من جرب
الامور فانه يعطيك من رايه ما قام عليه بالغلاء وانت تاخذه
مجانا. وقال بعض الحكماء نصف رايك مع اخيك فشاوره ليكمل
لك الراي. وقال بعض الادباء من استغنى برايه ضل ومن اكتفى
بعقله زل. وقال بعض البلغاء الخطا مع الاسترشاد احمد من
الصواب مع الاستبداد. وقال بعض الشعرا

خليلي ليس الراي في صدر واحد اشيرا على الذي تريان

ولا ينبغي ان يتصور في نفسه انه ان شاور في امره ظهر للناس ضعف
رايه وفساد رويته حتى افتقر الى راي غيره فان هذه معاذير
النوكى وليس يراد الراي للمباهاة به وانما يراد للانتفاع بنتائجه
والتحرز من الخطا عند زلله وكيف يكون عارا ما ادى الى صواب
وصد عن خطا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
الحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على اموركم بالمشاورة.
وقال بعض الحكماء من كمال عقلك استظهارك على عقلك
وقال بعض البلغاء اذا اشكلت عليك الامور وتغير لك الجمهور
فارجع الى راي العقلاء وافزع الى استشارة العلماء ولا تانف من
الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد فلان تسال وتسلم خير

خير لك من ان تستبد فتندم. وينبغي ان يكون من يستشاره
ذوي الالباب لا سيما في الامر الجليل فقل ما ضل عن الجماعة
راي او ذهب عنهم صواب لارسال الخواطر الثاقبة واجالة
الافكار الصادقة لا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جايز
وقد قيل في منثور الحكم من اكثر المشورة لم يعدم عند الصواب
مادحا وعند الخطا عاذرا وان كان الخطا من الجماعة بعيدا
فاذا استشار الجماعة فقد اختلف اهل الراي في اجتماعهم عليه
او افراد كل واحد منهم به فمذهب الفرس ان الاولى اجتماعهم
على الراي واجالة الفكر ليذكر كل واحد منهم ما قدحه
خاطره وسنح فكره حتى اذا كان فيه قدح عورض او توجه عليه
رد نوقض كالجدل الذي يكون فيه المناظرة ويقع فيه المنازعة
والمشاجرة فانه لا يبقى فيه مع اجتماع القرايح عليه خلل الا ظهر
ولا زلل الا بان. وذهب غيرهم من اصناف الامم الى ان الاولى استسرار
كل واحد بالمشورة ليجتهد كل واحد فكره في الراي طمعا
في الحظوة بالصواب فان القرايح اذا افترقت استكدها الفكر
واستنزعها الاجتهاد واذا اجتمعت فوضت وكان الاول منها
بدا بها متبوعا ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثاني
اظهر والذي اراه في الاولى غير هذين المذهبين على الاطلاق
ولكن ينظر في المشورة فان كانت في حال واحدة هل هي
صواب ام خطا كان اجتماعهم عليها اولى لانها تردد بين
امرين فالمراد منه الاعانة اما على فساده او ظهور الحجة في صلاحه

وهذا مع الاجتماع ابلغ وعند المناظرة اوضح وان كانت الشورى
في خطب قد استبهم صوابه واستعجم جوابه من امور خافية واحوال
غامضة لم يحصرها عدد ولا يجمعها تقسيم ولا عرف لها جواب
تكشف عن خطائه وصوابه فالاولى في مثله انفراد كل واحد
بنفسه وخلوه بخاطره ليجتهد في الجواب ثم يقع الكشف عنه
اخطا هو ام صواب فيكون الجواب بالاجتهاد في الجواب منفردا
والكشف عن الصواب مجتمعا لان الانفراد في الاجتهاد اصح
والاجتماع على المناظرة ابلغ فهذا هذا وينبغي ان يسلم اهل
الشورى من حسد وتنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه
ثم يعرض المستشير ذلك على نفسه مع مشاركتهم في الروية والاجتهاد
واذا اتضح له قول جميعهم كشف عن اصولها واسبابها وبحث عن
نتائجها وعواقبها حتى لا يكون في الامر مقلدا ولا في الراي مفوضا
فانه يستفيد بذلك مع ارتيابه بالاجتهاد ثلاث خصال احدهن
معرفة عقله وصحة رويته. والثانية معرفة عقل من صحبه وصواب
رايه. والثالثة وضوح ما استعجم من الراي وانفتاح ما استغلق
من الصواب واذا استقر له الراي امضاه ولم يواخذهم بعواقب
الاكداب فانما على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان النجح
لاسيما والمقادير غالبة ومتى عرف منه تعقب المشير
وكل الى رايه واسلم الى نفسه فصار فردا لا يعان براي ولا يمد
بمشورة وقد قالت الفرس في حكمها اضعف الحيلة خير من قوي
الشدة واقل التاني خير من كثير العجلة والدولة رسول

164

القضا المبرم واذا استبد الملك برايه عميت عليه المراشد واذا اظفر
براي من جاهل لا يرى الراي اهلا ولا للمشورة مستوجبا اغتنمه
عفوا فان الراي كالضالة توخذ اين وجدت ولا يهون
لمهانة صاحبها فتطرح فان الدرة لا يضعها مهانة غايصها ولا الضالة
تترك لذلة واجدها وليس يراد الراي لمكان المشير به
فيراعي قدره وانما يراد لانتفاع المستشير به وانشد ابو الحسام ابن الرومي
النصح ارخص ما باع الرجال فلا ترد على ناصح نصحا ولا تلم
ان النصائح لا تخفى مناهجها على الرجال ذوي الالباب والفهم
ثم لا وجه لمن تقرر له راي ان يني في امضائه فان الزمان عائد والفرص
منتهزة والثقة بمحذور فقيل لملك زال عنه ملكه ما الذي سلبك
ملكك قال تاخيري عمل اليوم الى غد وقال الشاعر
اذا كنت ذا راي فكن ذا عزيمة ولا تك بالتردد للراي مفسدا
فان رايت العيب في الراي كله وانفذ ذوي الراي العزيمة ارشدا
وينبغي لمن انزل منزلة المستشار واحل محل الناصح الوادي ان
صار مامول النصح مرجو الصواب ان يودي حق هذه النعمة باخلاص
المشورة وكافي على الاسلام بذل النصح فقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان من حق المسلم على المسلم اذا
استنصحه ان ينصحه وربما ابطرته المشاورة فاعجب برايه فاجهده
في المشورة فليس للمعجب راي ولا روية سليمة وربما شح بالراي
لعداوة او حسد فورى او مكر فاحذر العدو ولا تثق
بحسود ولا تعذر لمن استشار عدوا او حسودا ان يكتم رايا وقد

استرشد ولا ان يخون وقد اؤتمن. روى محمد بن المنكدر عن عايشة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المستشار معان والمستشار مؤتمن. وقال سليمان بن يزيد

واجب اخاك اذا استشارك ناصحا وعلى اخيك نصيحة لا تردد

ولا ينبغي ان يشير قبل ان يستشار الا فيما يسر ولا ان يتبرع بالراي الا فيما لزم فانه اسفل من ان يكون رايه متهما او مطرحا وفي اي هذين كان وصمه وانما يكون الراي مقبولا اذا كان عن رغبة وطلب او كان لباعث وسبب. قال روى ابو بلال العجلي عن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال قال لقمان لابنه اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت فاعن واذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر. وقال ابن نهس الكلابي

من الناس من ان يستشرك فتجتهد له الراي يستغششك ما لا تتابعه
فلا تمنحن الراي من ليس اهله فلا انت محمود ولا الراي نافعه

الفصل الرابع في كتمان السر

اعلم ان كتمان الاسرار من اقوى اسباب النجاح وادوم لاحوال الصلاح. روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استعينوا على الحاجات بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود. وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه سرك اسيرك فاذا تكلمت به صرت اسيره. وقال بعض الحكما لابنه يا بني كن جوادا بالمال في موضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق فان احمد جود المرء الانفاق في وجوه البر والبخل بمكتوم السر. وقال

بعض الادبا من كتم سره كان الخيار اليه ومن افشاه كان الخيار عليه. وقال بعض البلغا ما اسرك ما كتمت سرك. وقال بعض الفضلا ما لم تغيبه الاضالع فهو مكشوف ضايع. وقال انس بن اسيد

المرء ان وشاة الرجال لا يدعن اديما صحيحا
فلا تفش سرك الا اليك فان لكل نصيح نصيحا

وكم من اظهار سر اراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطواته امنا وفي عواقبه سالما ولنجاح حوايجه راجيا. وقال انوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات. واظهار الرجل سر غيره اقبح من اظهار سر نفسه لانه يبوء باحدى وصمتين اما الخيانة ان كان مؤتمنا او النميمة ان كان مستودعا. فاما الضرر فربما استويا فيه وتفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم. وفي الاسترسال بابدا السر دلايل على ثلثة احوال مذمومة احدها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر. وقال الشاعر

اذا المرء افشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو احمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر اضيق

والثاني الغفلة عن تحرز العقلا والسهو عن يقظة الاذكيا. وقد قال بعض الحكما انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون. والثالث ما ارتكبه من الضرر واستعمله من الخطر. وقد قال بعض الحكما سرك

من ذمك فاذا حملت به فقد ارقته واعلم ان من الاسرار ما لا يستغني عن مطالعة
صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره لبيبا ان لم يجد الى
كتمانه سبيلا وتحرى في اختيار من يأتمنه من العفة عن اذاعة الاسرار
لان الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح على
اليسير من ماله حفظا له وصيانة ولا يرى ما اضاع من سره كثيرا في جنب
ما حفظه من يسير ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن اجل ذلك كان
امناء الاسرار اشد تعذرا واقل وجودا من امناء الاموال وكان
حفظ الاموال ايسر من كتم الاسرار لان الاحراز للاموال منيعة
واحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق
وقال عمر بن عبد العزيز القلوب اوعية الاسرار والشفاه
اقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره ومن صفات
امين السر ان يكون ذا عقل صاد ودين حاجز ونصح مبذول
وود موفور وكتوما بالطبع فان هذه امور تمنع من الاذاعة وتوجب
حفظ الامانة فمن كانت فيه فهو عنقاء مغرب وقيل في منثور الحكم
قلوب العقلاء حصون الاسرار وليحذر صاحب السر ان يودع سره
من يتطلع عليه ويؤثر الوقوف عليه فان طالب الوديعة خائن وقد قيل
في منثور الحكم لا تنكح خاطب سرك وقال صالح بن عبد القدوس
لا تذع سرا الى طالبه منك ان الطالب السر مذيع
وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق
الى الاشاعة لامرين احدهما ان اجتماع هذه الشروط في العدد
الكثير معوز ولا بد اذا كثروا ان يكون فيهم من اخل ببعضها

والثاني ان كل واحد منهم يجد سبيلا الى نفي الاذاعة عن نفسه
واحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه اليه عتب
وقد قال بعض الحكماء كلما كثر خزان الاسرار ازدادت ضياعا
وقال بعض الشعرا
وسرك ما كان عند امرئ وسر الثلاثة غير الخفي وقال اخر
فلا تنطق بسرك كل سر اذا ما جاوز الاثنين فاشي ثم لو اسلم
من اذاعتهم لم يسلم من ادلالهم واستطالتهم فان لمن ظفر بسر من فرط
الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل
كان اشد من ذل الرق وخضوع العبد ولذلك قال بعض الحكماء
افشى سره كثر عليه المتآمرون فاذا اختار وارجوا ان يوثق للاخبار
واضطر الى استيداع سره وليته كفي الاضطرار اليه استيداع سره وجب
على المستودع لاداء الامانة فيه بالتحفظ والتناسي حتى لا يخطر له ببال
ولا يدور له في خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل ادلال اللئام
وحكي ان رجلا اسر الى صديق له حديثا ثم قال افهمت قال بل جهلت
قال احفظت قال بل نسيت وقيل لرجل كيف كتمانك السر قال
اجحد المخبر واحلف للمستخبر وقال بعض الشعرا
ولو قدرت على نسيان ما اشتملت مني الضلوع على الاسرار والخبر
لكنت اول من ينسى سرائره اذ كنت من نشرها يوما على خطر
وحكي ان عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال
عبد الله
ومستودعي سرا تضمنت سره فاودعته من مستقر الحشا قبرا

وقال ابو عبد الله

وما السر في قلبي كثاوٍ بحفرة لاني ارى المدفون ينتظر النشرا

ولكنني اخفيه حتى كانه من الدهر يوما ما احطت به خبرا

الفصل الخامس في المزاح والضحك

اعلم ان للمزاح ازاحة عن الحقوق ومخرجا الى القطيعة والعقوق يصم المازح ويؤذي الممازح فوصمة المازح انه يذهب عنه الهيبة والبها ويجري عليه الغوغا والسفها واما اذية الممازح فلانه معقوق بقول كريه وفعل ممض وان امسك عنه احزن قلبه وان قابل عليه جانب ادبه فحق على العاقل ان يتقيه وينزه نفسه عن وصمة مساويه فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه اتقوا المزاح فانها حمقة تورث ضغينة وقال انما المزاح سباب الا ان صاحبه يضحك وقيل انما سمي المزاح مزاحا لانه يزيح عن الحق وقال ابرهيم النخعي المزاح من سخف او بطر وقيل في منثور الحكم المزاح يأكل الهيبة كما تاكل النار الحطب وقال بعض الحكما من كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلافه طابت غيبته وقال بعض البلغا من قل عقله كثر هزله وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال يصك احدكم صاحبه باشد من الجندل وينشقه احرق من الخردل ويفرغ عليه احر من المرجل ثم يقول انما كنت امازحك وقال بعض الحكما خير المزاح لا ينال وشره لا يقال فنظمه السابوري في قصيدته الجامعة للادب وزاد فقال

شر مزاح المرء لا يقال وخيره يا صاح لا ينال

وقال ابو فراس

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام مت بدا الصمت خير لك من داء الكلام

انما السالم من الجم فاه بلجام ربما استفتح بالمزح مغاليق الحمام

والمنايا آكلات شاربات للانام

واعلم انه قل ما يعري من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى بمزاحه احدى حالتين لا ثالث لهما احداهما ايناس المصاحبين والتودد الى المخالطين وهذا يكون بما انس من جميل القول وبسط من مستحسن الفعل وقال سعد بن العاص لابنه اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب البها ويجري السفها وان التقصير فيه يغض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحبين والحالة الثانية ان ينفي بالمزاح ما طرا عليه من سأم او حدث به من هم فقد قيل لا بد للمصدور ان ينفث وانشدت لابي الفتح البستي

افد طبعك المكدود بالجد راحة تجم وعلله بشيء من المزح

ولكن اذا اعطيته المزح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال اني لامزح ولا اقول الا حقا فمن مزاحه عليه السلام ما روي ان عجوزا من الانصار اتته فقالت يا رسول الله ادع لي بالمغفرة فقال لها اما علمت ان الجنة لا يدخلها العجز فصرخت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اما قرات قول الله تعالى انا انشاناهن انشاء فجعلناهن ابكارا عربا اترابا واتت اخرى في حاجة لزوجها فقال لها من زوجك فقالت فلان فقال لها الذي في عينه بياض فقالت

قال بلى وانصرفت عجلى الى زوجها وجعلت تتأمل عينيه فقال
لها ما شأنك قالت اخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في عينيك
بياضا فقال لها اما ترين بياض عيني اكثر من سوادهما
واتى رجل علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقال له اني احتلمت على امي فقال
اقيموه في الشمس واضربوا ظله الحد. وسئل الشعبي عن اكل لحم
الشيطان فقال نحن نرضى منه بالكفاف. وقيل له ما اسم امراة ابليس مكافف
فقال ذاك نكاح ما شهدناه. وقال رجل لغلام بكم تعمل معي
قال بطعامي قال له احسن قليلا قال فاصوم الاثنين والخميس
وحكي عن ابي صالح رضي الله عنه بن حسان وكان محدثا انه قال
وضاح اسم رجل يوما لاصحابه مازحا افقه الناس وضاح اليمن في قوله
اذا قلت هاتي نوليني تبسمت ... وقالت معاذ الله من فعل ما حرم
فما نولت حتى تضرعت عندها ... وانبأتها ما رخص الله في اللمم
فاما الخروج الى حد الخلاعة فمجنة ومذمة كالذي حكي عن
ابي علقمة الضرير وكان محدثا انه خرج يوما الى اصحابه وهو يقول
واذا المعدة جاشت فارمها بالمنجنيق ... بثلاث من نبيذ ليس بالحلو الرقيق
الا ترى كيف طرق بخلاعته التهمة على نفسه بهذا المزح
فيما العلم بري منه وبعيد عنه. وقد كان ابو هريرة مسترسلا
في مزاحه فحكى ابن قتيبة في المعارف ان مروان ربما كان يستخلفه
على المدينة فيركب حمارا قد شد عليه برذعة فيسير فيلقى الرجل
فيقول الطريق قد جاء الامير. وربما اتى الصبيان وهم يلعبون
لعبة الاعراب فلا يشعرون حتى يلقي نفسه بينهم ويضرب برجليه

فيفزع الشباب فيفرون وهذا خروج عن القدر المستسمح
به ويوشك ان يكون لهذا الفعل منه تاويل سائغ. وقد كان
صهيب بن سنان مزاحا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اتاكل تمرا وبك
رمد فقال يا رسول الله انا امضغ على الناحية الاخرى واستجاز
صهيب ان يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزح في جوابه لان استخباره
صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمن المزح فاجابه عن استخباره بما وافقه
من المزح مساعدة لغرضه وتقربا الى قلبه وليس لاحد ان يجعل
جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحا لان المزح هزل ومن جعل جواب
رسول الله صلى الله عليه وسلم المبين عن الله تعالى احكامه المؤدي الى خلقه
اوامره هزلا ومزحا فقد عصى الله ورسوله وصهيب كان اطوع لله
ورسوله من ان يكون بهذه المنزلة منه وقد قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم انا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق فارس وبلال
سابق الحبش. ومن مستطلح المزح ومستملح الدعابة ما حكي الزبير
بن بكار عن الحمدي ان العشري وقف على شيخ من الاعراب فقال
يا اعرابي ممن انت فقال من بني عقيل فقال من اي عقيل قال من بني
خفاجة قال العشري ... رايت شيخا من بني خفاجة
فقال الاعرابي ما شانه فقال ... له اذا جن الظلام حاجه
فقال الاعرابي ما هي فقال ... كحاجة الديك الى الدجاجه
فاستغرب الاعرابي ضاحكا وقال قاتلك الله ما اعرفك بسرائر القوم
فانظر كيف بلغ بهذا المزح غايته ولسانه نزه وعرضه مصون وهذا
غاية ما يسامح به الفضلاء من الخلاعة وان كان مستكره الحوي

والنزاهة عن مثله اولى وليحذر ان يسترسل في ممازحة عدو فيجعل
له طريقا الى اعلان المساوي وهو مجد ويجعل له في التشفي مزحا
وهو محق وقد قال بعض الحكماء اذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك .

فاما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر في الامور المهمة مذهل عن
الفكر في النوائب الملمة وليس لمن اكثر منه هيبة ولا وقار ولا لمن وصم به
خطر ولا مقدار روى ابو ادريس الخولاني عن ابي ذر الغفاري رحمه قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياك وكثرة الضحك فانه
يميت القلب ويذهب بنور الوجه وقد حكي عن ابن عباس في قوله
تعالى مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها
ان الصغيرة الضحك وقال عمر بن الخطاب من كثر
ضحكه قلت هيبته وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه
اذا ضحك العالم ضحكة مج من العلم مجة . وقيل في منثور الحكم
ضحك المؤمن غفلة من قلبه . والقول في الضحك كالقول في المزاح
ان تجافاه الانسان نفر عنه واوحش منه . وان الفه كانت
حاله ما وصفنا فليكن عند الايناس بدل الضحك تبسما وضحكا
وقد قال عمر بن الخطاب التبسم دعابة وهذا ابلغ من الايناس
والضحك والذي قد يكون استهزاء او تعجبا وليس يسلم منه المرء الا الا
لمن استعمل التستر عن دفعه هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
املك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما كان ذلك منه
على الوجه الذي ذكرناه . والله اعلم

الفصل السادس في الطيرة والفال

انه ليس شيء اضر بالراي ولا افسد للتدبير من اعتقاد الطيرة
ومن ظن ان خوار بقرة او نعيب غراب يرد قضاء او يدفع مقدورا فقد
جهل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا عدوى ولا
هامة ولا طيرة ولا صفر . فالعدوى ما يظنه الناس من تعدي العلل
والامراض فاخبر انه لا تعدي فقيل يا رسول الله انا نرى النقبة من
الجرب في مشفر البعير فتعدي الى جميعه فقال صلى الله عليه وسلم فما اعدى
الاول . واما الهامة فهو ما كانت العرب في الجاهلية تعتقده
من ان القتيل اذا طل دمه فلم يدرك بثاره صاحت هامته في القبر
اسقوني . قال الزبرقان بن بدر

يا عمرو ان لم تدع شتمي ومنقصتي اضربك حيث تقول الهامة اسقوني

وقال ابرهيم بن هرمة

فكيف وقد صاروا عظاما واقبرا وابيح صداها والعشي وهامها
تفانوا ولم يسقوا وكل قبيلة سيعلى الى ورد المنايا كرامها

واما الصفر فهو حية تكون في الجوف تصيب الماشية والناس
وهو اعدى عندهم من الجرب وفيه يقول الشاعر

لا يمسك الساق من اين ولا وصب ولا يعض على شرسوفه الصفر

وروى ابو هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا ظننتم فلا تحققوا
واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا
وقال الشاعر

طيرة الناس لا ترد قضاء فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
اي يوم تخصه بسعود والمنايا ينزلن في كل يوم

ليس يوم إلا وفيه سعود ونحوس تجري لقوم وقوم
وقد كانت الفراسة في الناس ظاهرة وكانت العرب إذا أرادت سفرا
نفرت أول طائر تلقاه فإن طار يمنة سارت وتيمنت وإن طار شامة
رجعت وتشاءمت فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال أقروا
الطير في مكاناتها وحكي عن عكرمة قال كنا جلوسا عند ابن عباس
فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر
وقال لبيد

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

واعلم أنه قلما يخلو من الطيرة أحد لا سيما من عارضته المقادير
في إرادته وصده القضاء عن طلبته فهو يرجو واليأس عليه أغلب ويأمل
والخوف إليه أقرب فإذا عاقه القضاء وخانه الرجاء جعل الطيرة
عذر خيبته وغفل عن قضاء الله ومشيئته فإذا تطير من بعد أحجم عن
الإقدام ويئس من الظفر وظن أن القياس فيه مطرد فإن العبرة فيه
مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا ينجح له سعي ولا يتم له قصد
فأما من ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة لإقدامه
ثقة بإقباله وتعويلا على سعادته فلا يصده خوف ولا يكفه حزن
ولا يؤوب إلا ظافرا غانما لأن الغنم بالإقدام والخيبة بالإحجام فصارت
الطيرة من سمات الإدبار واطراحها من أمارات الإقبال فينبغي
لمن مني بها وبلي أن يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعي الخيبة
وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في نقض عزائمه ومعارضة
خالقه ويعلم أن قضاء الله غالب وأن رزق العبد طالب ولكن
الحركة

الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا
وليمض في عزائمه واثقا بالله تعالى إن أعطى وراضيا به إن منع فقد
روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإنسان ثلاثة
الطيرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة أن لا يرجع ومخرجه من
الظن أن لا يحقق ومخرجه من الحسد أن لا يبغي وروي عنه صلى الله
عليه وسلم أنه قال كفارة الطيرة التوكل على الله وقيل في منثور
الحكم الخيرة في ترك الطيرة وليقل إن عارضه في الطيرة ريب أو خامره
فيها وهم ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من تطير فليقل
اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول
ولا قوة إلا بالله وقد روي أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال يا رسول الله إنا نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وكثرت فيها أموالنا
ثم تحولنا عنها إلى أخرى فقلت فيها أموالنا وقل فيها عددنا
فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذروها فهي ذميمة وليس هذا
القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك
بأن فارق وترك ما استوحش منه إلى ما أنس به وأما الفأل ففيه
تقوية للعزم وباعث على الجد ومعونة على الظفر وقد تفاءل رسول
الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه وروى أبو هريرة أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فأعجبته فقال أخذنا فالك من فيك
فينبغي لمن تفاءل أن يتأول الفأل بأحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء
الظن سبيلا على نفسه فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم إن البلاء موكل
بالمنطق وحكي أن يوسف عليه السلام شكا إلى الله تعالى طول الحبس

فأوحى الله تعالى إليه يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت رب
السجن أحب إلي . ولو قلت العافية أحب إلي لعوفيت . وحكي أن
المؤمل بن أميل الشاعر لما قال

شف المؤمل يوم الحيرة النظر ... ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمي فأتاه آت في منامه فقال له هذا ما طلبت . وحكي أن الوليد بن
يزيد بن عبد الملك تفاءل يومًا في المصحف فخرج عليه قوله تعالى واستفتحوا وخاب
كل جبار عنيد . فمزق المصحف وأنشأ يقول

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث إلا أيامًا حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده
نعوذ بالله من البغي ومصارعة الشيطان ومكايده وهو حسبنا وعليه
توكلنا

الفصل السابع في المروءة

اعلم أن من شواهد الفضل
ودلائل الكرم المروءة التي هي حلية النفوس وزينة الهمم والمروءة هي
مراعاة الأحوال التي تكون على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن
قصد ولا يتوجه إليها ذم باستحقاق . روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم
فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروته وظهرت عدالته ووجبت أخوته
وقال بعض البلغاء من شرائط المروءة أن يتعفف عن الحرام ويتصلف
عن الآثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق
ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قويًا على ضعيف ولا يؤثر دنيا
على

دنيا على شريف ولا يسر ما يعقب الوزر والإثم ولا يفعل ما يقبح
الذكر والاسم وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة
فقال العقل يأمرك بالأنفع والمروءة تأمرك بالأجمل ولن تجد الأخلاق
على ما وصفناه من حد المروءة منطبعة ولا عن المراعاة مستغنية وإنما
المراعاة هي المروءة لا ما انطبعت عليه النفس من فضائل الأخلاق
لأن غرور الهوى ونوازع الشهوة ربما أمالت النفس إن تركت فرضى عن
أفضل أخلاقها والأجمل من طرائقها ولو سلمت منها وبعيد أن
تسلم لما استكملت شرف الأخلاق تطبعًا ولا استغنت عن تهذيبها
تكلفًا وتصنعًا قال الشاعر

من لك بالمحض وليس محض ... يخبث بعض ويطيب بعض

ثم لو استكمل الفضل طبعًا وفي العقل لم يكن مستغنيًا للكامل في المستحسن
من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروءة
وشروطها ما لا يتوصل إليه إلا بالمعاناة ولا يوقف عليه إلا بالتفقد
والمراعاة فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها هي المروءة
وإذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها إلا من تسهلت
عليه المشاق رغبة في الحمد وهانت عليه الملاذ حذرًا من الذم .
ولذلك قيل سيد القوم أشقاهم . وقال أبو تمام

والحمد شهد لا ترى مشتاره ... يجنيه إلا من نقيع الحنظل

غل لحامله ويحسبه الذي ... لم يوه عاتقه خفيف المحمل

وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقدام قتال

للأخلاق

وقال أيضا

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام ۵ مرادها

والداعي إلى استسهال ذلك شيئان علو الهمة وشرف النفس اما علو
الهمة فلأنه باعث على التقدم وداع إلى التخصص أنفة من خمول الضعة
واستنكارا لمهانة النقص ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى
يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها ۵ وروي عن عمر بن الخطاب
رضي الله عنه أنه قال لا تصغرن هممكم فإني لم أر أقعد عن المكرمات من
صغر الهمم ۵ وقال بعض الحكماء الهمة راية الجد ۵ وقال بعض البلغاء
علو الهمم بذر النعم ۵ وقال بعض العلماء إذا طلب رجلان أمرا ظفر
أعظمهما مروءة ۵ وقال بعض الأدباء من ترك التماس المعالي بسوء الرجاء لم ينل
جسيما ۵ وأما شرف النفس فإن به يكون قبول التأديب واستقرار
التقويم والتهذيب لأن النفس ربما جمحت عن الأفضل وهي به عارفة
ونفرت من التأديب وهي له مستحسنة لأنها عليه غير مطبوعة وله غير
ملائمة فتصير منه أنفر ولضده الملائم آثر ولذلك قيل ما أكثر من
يعرف الحق ولا يطيعه وإذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة وفي
الفضائل راغبة فإذا مازجها صادف طبعا ملائما فنمى واستقر ۵
فأما من مني بعلو الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضة لأمر
أعوزته آلته وأفسدته جهالته فصار كضرير يروم الكتابة وأخرس
يريد الخطابة فلا يزيده الاجتهاد إلا عجزا والطلب إلا عوزا ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هلك امرؤ عرف قدره ۵ وقيل لبعض الحكماء
من أسوأ الناس حالا قال من بعدت همته واتسعت أمنيته وقصرت
آلته وقلت مقدرته ۵ وقال أوفى التغلبي

ولا

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه وتقواله للشيء يا ليت ذا ليا
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي إذا هو لم يجعل له الله واقيا

وقال بعض الحكماء اجتنبوا المنى فإنها تذهب بهجة ما خولتم وتستصغرون
نعمة الله عليكم ۵ وقيل في منثور الحكم المنى من بضائع النوكى فإن صادف
همته حظا ناله إملاكا فيما نال كالمغتصب وفيما وصل إليه كالمتغلب
إذ ليس في الحظوظ تقدير بحق ولا تمييز لمستحق ۵ وإنما هو كالسحاب
الذي يسلك منابت الأشجار إلى مغايض البحار وينزل حيثما نقص من
حيث وطيب ۵ فإن صادف أرضا طيبة نفع وإن صادف أرضا خبيثة
ضر كذلك الحظ إن صادف نفسا نزيهة نفع وكان نعمة عامة وإن صادف
نفسا دنية ضر وكانت نقمة طامة وحكي أن موسى بن عمران عليه السلام
دعا على قوم بالعذاب فأوحى الله تعالى إليه قد ملكت سفلتها على عليتها
فقال يا رب كنت أحب لهم عذابا عاجلا فأوحى الله تعالى إليه أوليس
هذا كل العذاب العاجل الأليم ۵ وأما شرف النفس إذا تجرد
عن علو الهمة فإن الفضل به عاطل والقدر به خامل وهو كالقوة
في الجلد الكسل أو الجبان الفشل يضيع قوته بكسله وجلده بفشله
وقد قيل في منثور الحكم من دام كسله خاب أمله ۵ وقال بعض الحكماء
نكح العجز التواني فخرج منهما الندامة ونكح الشؤم الكسل فخرج منهما
الحرمان ۵ وقال بعض الشعراء

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا ۵
وإياك والسكنى بدار مذلة تعد مسيئا فيه إن كنت محسنا ۵

وشرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لأن من علت
همته مع دناءة نفسه كان متعدياً إلى طلب ما لا يستحقه ومتخطياً
إلى التماس ما لا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك
لما يستحقه ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الأمرين ظاهر وإن كان
لكل واحد منهما من الذم نصيب وقد قيل لبعض الحكماء ما أصعب شيء على
الإنسان قال أن يعرف نفسه ويكتم الأسرار وإذا اجتمع الأمران
واقترن شرف النفس بعلو الهمة كان الفضل لهما وافراً ومشاق الحمد بينهما
مستسهلة وشروط المروءة فيهما متناسبة. وقد قال الحصين بن المنذر الرقاشي

إن المروءة ليس يدركها امرؤ ... ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا ... ونهته عن سبل العلى فأطاعها
فإذا أصاب من المكارم خلة ... يبني الكريم بها المكارم باعها

واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تحصى وأخفى من أن تظهر لأن منها
ما يقوم في الوهم حساً ومنها ما تقتضيه شاهد الحال حدساً ومنها ما
يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك أعوز استيفاء شروطها إلا إجمالاً ينبه
الفاضل عليها بفطنته ويستدل العاقل عليها بفطرته وإن كان جميع
ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها وإنما نذكر في هذا
الفصل الأشهر من قواعدها وأصولها والأظهر من شروطها وحقوقها
محصوراً في تقسيم جامع وهو ينقسم قسمين أحدهما شروط المروءة
في نفسه والثاني شروطها في غيره فأما شروطها في نفسه فبعد
التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه فيكون بثلاثة أمور وهي العفة والنزاهة
والصيانة فأما العفة فنوعان أحدهما العفة عن المحارم والثاني العفة
عن

عن المآثم فأما العفة عن المحارم فنوعان أحدهما ضبط الفرج عن
الحرام والثاني كف اللسان عن الأعراض فأما ضبط الفرج عن
الحرام فلأنه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرة فاضحة وهتكة
واضحة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من وقي شر ذبذبه ولقلقه
وقبقبه فقد وقي فذبذبه الفرج ولقلقه اللسان وقبقبه
البطن وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أحب العفاف إلى
الله تعالى عفاف الفرج والبطن وحكي أن معاوية سأل عمرو عن المروءة
فقال تقوى الله تعالى وصلة الرحم وسأل المغيرة فقال هي العفة عما حرم
الله تعالى والحرفة فيما أحل الله تعالى وسأل يزيد فقال هي الصبر على
البلوى والشكر على النعمى والعفو عند القدرة فقال معاوية
أنت مني حقاً وقال أنوشروان لابنه الكامل المروءة من حصن
دينه ووصل رحمه وأكرم إخوانه وقال بعض الحكماء من أحب
المكارم اجتنب المحارم وقيل عار المعصية يكدر لذتها وأنشدني
بعض أهل الأدب للحسن بن علي عليهما السلام

الموت خير من ركوب العار ... والعار خير من دخول النار
والله ما هذا وهذا جاري

والداعي إلى ذلك شيئان أحدهما إرسال الطرف والثاني اتباع الشهوة
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي بن أبي طالب رضي
الله عنه لا تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك والثانية عليك وفي قوله لا
تتبع النظرة النظرة تأويلان أحدهما لا تتبع نظر عينيك نظر قلبك
والثاني لا تتبع النظرة الأولى التي وقعت سهواً بالنظرة الثانية التي

تزيدها عمدًا وقال عيسى بن مريم عليه السلام اياكم والنظرة بعد
النظرة فانها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة وقال
علي بن ابي طالب رضي الله عنه العيون مصايد الشيطان وقال
بعض الحكما من ارسل طرفه استدعى حتفه وقال بعض الشعرا

وكنت متى ارسلت طرفك رايدًا لقلبك يومًا اتعبتك المناظر
رايت الذي لا كله انت قادر عليه ولا عن بعضه انت صابر

واما الشهوة فهي خادعة العقول وغادرة الالباب ومحسنة
القبايح ومسولة الفضايح وليس عطب الا وهي له سبب وعليه الب
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ
من الشياطين من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهي
وحين يغضب وقهرها عن الحرام يكون بثلثة امور احدها غض
الطرف عن اثارتها وكفه عن مساعدتها فانه الرايد المحرك والقايد المهلك
روى سعد بن سنان عن انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
تقبلوا لي بست اتقبل لكم بالجنة قالوا وما هي يا رسول الله قال اذا حدث
احدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا اوتمن فلا يخن غضوا
ابصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا ايديكم والثاني ترغيبها في الحلال
عوضا واقناعها بالمباح بدلا فان الله تعالى ما حرم شيا الا واغنى عنه
بمباح من جنسه لما علم من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك
عونا على طاعته وحاجزا عن مخالفته وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه
ما امر الله تعالى بشي الا واعان عليه ولا نهى عن شي الا واغنى عنه والثالث
اشعار النفس تقوى الله في اوامره واتقاه في زواجره والزامها ما الزم من

طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته واعلامها انه لا يخفى عليه ضمير
ولا يعزب عنه قطمير وانه يجازي المحسن ويكافي المسي وبذلك نزلت
كتبه وبلغت رسله روي عن ابن مسعود ان اخر ما نزل من القران واتقوا
يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون واخر
ما نزل من التورية اذا لم تستحي فافعل ما شيت واخر ما نزل من
الانجيل شر الناس من لا يبالي ان يراه الناس مسيا واخر ما نزل من الزبور
من يزرع خيرا يحصد غبطة فاذا اسعدها ما وصف انقادت الى الكف
واذعنت للانتها فسلم دينه وظهرت مروته فهذا شرط واما كف
اللسان عن الاعراض فلانه ملاذ السفها وانتقام الغوغا وهو مستسهل
الكلف ان لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صاد يلتذ بمعاره
ويخبط بمضاره وظن انه يتجافى الناس عنه حتى يتقاو رتبه ترتقا فهلك
واهلك ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الا ان دماكم واموالكم
واعراضكم حرام عليكم حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لما فيه من
ايغار الصدور وابدا الشرور واظهار البذا واكتساب الاعدا
ولا يبقى مع هذه الامور وزن لمرموق ولا مروة لمخلوق ثم هو بها
موتور ولاجلها مزجور ومهجور وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال شر الناس من اكرمه الناس اتقا لسانه وقال بعض الحكما
انما اهلك الناس بفضول الكلام وفضول المال وما قدح في الاعراض
نوعان احدهما ما قدح في عرض صاحبه ولم يتجاوزه الى غيره وذلك
شيان الكذب وفحش القول والثاني ما تجاوزه الى غيره وذلك
اربعة اشيا الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف وشتم

وربما كان السبب انكاها للقلوب وابلغها اثرا في النفوس
ولذلك ما زجر الله تعالى عنه بالحد تغليظا وبالتفسيق تشديدا
وتصعيبا وقد يكون ذلك لاحد شيئين اما انتقام يبعث عليه
سفه واما بذا يعتاده لوم وقد روى ابو سلمة عن ابي هريرة عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال المومن غر كريم والفاجر خب لئيم وقال ابن المقفع الاستطالة
لسان الجهالة وكف النفس عن هذه الحال بما يصدها من الزواجر
اسلم وهو بذوي المروة اجمل فهذا شرط واما العفة عن المآثم
فنوعان احدهما الكف عن المجاهرة بالظلم والثاني زجر النفس عن
الاستسرار بخيانة فاما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك وطغيان متلف وهو
يؤول ان استمر به الى فتنة او جلا ان استمر فاما الفتنة في الاغلب
فتحيط بصاحبها وتنعطف على البادي بها فلا تنكشف الا وهو بها
مصروع كما قال الله تعالى ولا يحيق المكر السيء الا باهله وروي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الفتنة نايمة فمن ايقظها كان طعاما
لها وقال جعفر بن محمد عليه السلام الفتنة حصاد الظالمين وقال
بعض الحكما صاحب الفتنة اقرب شي اجلا واسوا شي عملا وقال
بعض الشعرا

وكنت كعنز السو قامت بظلفها الى مدية تحت الثرى تستثيرها

واما الجلا فقد يكون مع قوة الظالم وتطاول مدته فيصير ظلمه مع
المكنة جلا وفنا كالنار اذا وقعت في يابس الشجر فلا تبقي
منه بتمكنها شيا حتى اذا افنت ما وجدت خمدت كذلك
حال الظالم مهلك ثم هالك والباعث على ذلك شيان الجراة والقسوة

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الفضل والمعروف
عند الرحما من امتي تعيشوا في اكنافهم والقصد عن ذلك ان يزجر
اعتبار الله تعالى في الظالمين فان له فيهم عبرا او تصور عواقب ظلمهم
فان فيها مزدجرا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اصبح
ولم ينو ظلم احد غفر الله له ما اجترم وروى جعفر بن محمد عن ابيه عن
جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا دعوة المظلوم فانه
انما يسال الله تعالى حقه والله تعالى لا يمنع ذا حق حقه وقيل في
منثور الحكم ويل للظالم من يوم المظالم وقال بعض الحكما من جار
حكمه اهلكه ظلمه وقال بعض الشعرا

وما من يد الا يد الله فوقها ولا ظالم الا سيبلى بظالم

واما الاستسرار بالخيانة فضعف وضعة لانه بذل الخيانة
مهين ولقلة الثقة مستكين وقد قيل في منثور الحكم
من يخن يهن وقال خالد الربعي قرات في بعض الكتب السالفة
ان مما تعجل عقوبته ولا تؤخر الامانة تخان والاحسان يكفر والرحم
تقطع والبغي على الناس ولو لم يكن من ذم الخيانة الا ما يجد
الخاين في نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو تصور عقبى امانته
وجدوى ثقته لعلم ان ذلك من اربح بضايع جاهه واقوى شفعا تقدمه
مع ما يجده في نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام وقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اد الامانة الى من ايتمنك ولا تخن من
خانك وقال سعيد بن جبير قال لما نزلت ومن اهل الكتاب
من ان تامنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تامنه بدينار لا يؤده

البخل الا نية الى قوله ذلك بانهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل يعنون
ان اموال العرب حلال لهم لانهم من غير اهل الكتاب وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب اعدا الله ما من شي كان في
الجاهلية الا وهو تحت قدمي الا الامانة فانه مودّاة الى البر والفاجر
ولا يجعل ما استطاعه من الامانة زورا ولا ما يبديه من العفة
غرورا فينهتك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتك التدليس
اقبح ومعرة الريا افضح فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
لا تزال امتي بخير ما لم ترى الامانة مغنما والصدقة مغرما وقال
بعض الحكما من التمس اربعا باربع التمس ما لا يكون من التمس الجزا بالريا
التمس ما لا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون ومن
التمس وفا الاخوان بغير وفا به التمس ما لا يكون ومن التمس العلم
براحة الجسد التمس ما لا يكون والداعي الى الخيانة شيان المهانة
وقلة الامانة واذا حسمها عن نفسه بما وصفت ظهرت مروته فهذا
شرط قد استوفينا فيه اقسام العفة واما النزاهة فنوعان
احدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثاني النزاهة عن مواقف
الريبة واما المطامع الدنية فلان الطمع ذل والدناة لوم وهما ادفع
شي للمروة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعايه اللهم
اني اعوذ بك من طمع يهدي الى طبع وقال بعض الشعرا
لا تضرعن لمخلوق على طمع فان ذاك مضر منك بالدين
واسترزق الله مما في خزاينه فانما هي بين الكاف والنون
والباعث على ذلك شيان الشره وقلة الانفة فلا تقنع بالكفاية وان كان

كثيرا لاجل شرهه ولا يستنكف ما منع وان كان حقيرا لقلة
انفته وهذه حال من لا يرى لنفسه قدرا ويرى المال اعظم خطرا
فيرى بذل اهون الامرين لاجلهما غنما وليس لمن كان المال عنده
اجل ونفسه عنده اقل اصغا لتانيب ولا قبول لتاديب روي ان
رجلا قال يا رسول الله اوصني قال عليك باليأس مما في ايدي الناس واياك
والطمع فانه فقر حاضر واذا صليت صلوة فصل صلوة مودع واياك وما
يعتذر منه وقال بعض الحكما عز النزاهة اشرف من سرور الفايدة وقال بعض الشعرا
ومن كانت الدنيا مناه وهمه سبته المنى واستعبدته المطامع
وحسم هذه المطامع شيان الياس والقناعة وقد روى عبد الله
بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان روح القدس نفث
في روعي ان نفسا لا تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله واجملوا
في الطلب ولا يحملنكم ابطا الرزق على ان تطلبوه بمعاصي الله فان الله
لا يدرك ما عنده الا بطاعته فهذا شرط واما مواقف الريبة فهي
التردد بين منزلتي حمد وذم والوقوف بين حالتي سلامة وسقم
فيتوجه اليه لايمة المتهومين ويناله ذلة المريبين وكفى بصاحبها
موقفا ان صح افتضح وان لم يصح امتهن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم
دع ما يريبك الى ما لا يريبك وسيل محمد بن علي عليه السلام عن المروة
فقال ان لا تعمل في السر عملا تستحي منه في العلانية وقال
حسان بن ابي سنان ما وجدت شيا اهون من الورع قيل له وكيف
قال اذا ارتبت بشي تركته والداعي الى هذه الحال شيان
الاسترسال وحسن الظن والمانع منها شيان الحيا والحذر وربما

انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة كالذي
حكي عن عيسى بن مريم عليه السلام انه راه بعض الحواريين وقد خرج
من منزل ذات فجور فقال له يا روح الله ما تصنع هاهنا فقال الطبيب
انما يداوي المرضى ه لكن لا ينبغي ان يجعل ذلك طريقا الى الاسترسال
وليكن الحذر عليه اغلب والى الخوف من تصديق التهم اقرب فما كل
ريبة ينفيها حسن الثقة هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
ابعد خلق الله من الريب واصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية
ذات ليلة على باب مسجد يحادثها وكان معتكفا فمر به رجلان من
الانصار فلما راياه اسرعا فقال لهما على رسلكما انها صفية بنت حيي فقالا
اني الناس يشك بك يا رسول الله فقال مه ان الشيطان يجري من احدكم
مجرى لحمه ودمه فخشيت ان يقذف في قلوبكما سوءا فكيف من تخالجت
فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعرى في مواقف الريب
من قادح محقق ولائم محقق وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال اذا لم يسق اليها الا جميل فقد سعد ه واذا استعمل الحزم
وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف اعتذار
ولا عذر المختار لم يختلج في نزاهته شك ولم يقدح في عرضه افك
وقد قال الشاعر
اصونك ان ادل عليك ظنا لان الظن مفتاح اليقين ه
وقال سهل بن هرون مؤونة التوقف ايسر من تكلف
التعسف وقد قال بعض الحكماء من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو
مخدوع وانشد بعض اهل الادب لابي بكر الصولي ه ه ه

أحسنت ظني باهل دهري فحسن ظني لهم دهاني
لا امن الناس بعد هذا ما الخوف الا من الامان ه
فهذا شرط قد استوفينا فيه نوعي النزاهة واما الصيانة وهي
الثالث من شروط المروءة فنوعان احدهما صيانة النفس بالتماس
كفايتها وتقدير مادتها والثاني صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال
في الاستعانة فاما التماس الكفاية وتقدير المادة فلان المحتاج الى
الناس كل مهتضم وذليل مستثقل وهو لما فطر عليه محتاج الى ما
يستمده ليقيم اود نفسه ويدفع ضرر وقته ولذلك قالت العرب
في امثالها كلب جوال خير من اسد رابض وما يستمده نوعان
لازم وندب فاما اللازم فما اقام بالكفاية وافضى الى سد الخلة
وعليه في طلبه ثلثة شروط احدها استطابته من الوجوه المباحة
وتوقي الوجوه المحظورة فان المواد المحرمة مستخبثة الاصول ممحوقة
الفروع ان صرفها في بر لم يوجر وان صرفها في مدح لم يشكر ثم هو
لاوزارها محتقب وعليها معاقب وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم
لا يعجبنك رجل اكتسب مالا من غير حله فان انفقه لم يقبل منه
وان امسكه فهو زاده الى النار ه وقال بعض الحكماء شر الاموال
ما لزمك اثم مكتسبه وحرمت اجر انفاقه ونظر بعض الخوارج الى
رجل من اصحاب السلطان يتصدق على مسكين فقال انظر اليهم
حسناتهم من سيئاتهم وقال علي بن الجهم
شر من عاش ماله فاذا حاسبه الله سره الاعدام ه
والثاني طلبه من احسن جهاته التي لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس له

لانها عرض فان المال يراد لصيانة الاعراض لا لابتذالها ولعز
النفوس لا لاذلالها وقد قال عبد الرحمن بن عوف يا حبذا المال اصون
به عرضي وارضي به ربي وقال ابو بشر الضرير

كفى حزنا اني اروح واغتدي وما لي من مال اصون به عرضي
واكثر ما القى الصديق بمرحبا وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

وسئل ابن عائشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الحوائج من حسان
الوجوه فقال من احسن الوجوه التي تحل والثالث ان يستاني في تقدير
مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل فان يسير
المال مع حسن التقدير واصابة التدبير اجدى نفعا واحسن موقعا
من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبذر في الارض
اذا روعي يسيره زكا وان اهمل كثيره اضمحل وقد قال
محمد بن علي الكمال في ثلث العفة في الدين والصبر على النوائب وحسن
التقدير في المعيشة وقيل لبعض الحكما فلان غني فقال لا اعرف
ذلك ما لم اعرف تدبيره في ماله فاذا استكمل هذه الشروط
فيما يستمده من قدر كفايته فقد ادى حق المروة في نفسه
سيل الاحنف بن قيس عن المروة فقال العفة والحرفة
وقال بعض الحكما لابنه يا بني لا تتكل على احد كلا فانك
تزداد بذلك ذلا ولا تراهب في طلب رضى عدوك ولا تاسفن لمال
كان فذهب ولا تعجز عن الطلب لوصب ولا لنصب فهذا
حال اللازم وقد كان ذووا الهمم العالية والنفوس الابية يرون ما
وصل الى الانسان كسبا افضل مما وصل اليه ارثا لانه في الارث

في حدوثه عن غيره وبالكسب مجد على غيره وفرق ما بينهما في الفضل
ظاهر وقال كشاجم

لا استلذ العيش اذا لم ادب له طلبا وسعيا في الهواجر والغلس
واراه حراما ان يواتيني الغنى حتى يحاول بالعنا ويلتمس
فاصرف نوالك عن اخيك موفرا فالليث ليس يسيغ الا ما افترس

واما التبذير فهو ما فضل عن الحاجة وزاد على قدر الكفاية وان الامر
فيه معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن منازل الروسا وتقاصر عن
مطاولة النظرا وانقبض عن منافسة الاكفا فحسبه ما كفاه
فليس في الزيادة الا شره وليس في الفضول الا نهم وكلاهما مذموم
ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الرزق ما يكفي وخير
الذكر الخفي وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه الدنيا ظل
عيش العاقل وقال عبد الله بن مسعود المستغني بالدنيا عن الدنيا
كالمطفي النار بالتبن وقال بعض الحكما استر ما وجهك
بالقناعة وتسل عن الدنيا لتجافيها عن الكرام فان كان ممن قد سمت
بعلو الهمم وتحركت فيه اريحية الكرم واثر ان يكون راسا ومقدما
وان يرى في النفوس مفخما ومعظما فالكفاية لا تقنعه حتى يكون ماله فاضلا
ونايله فايضا قيل لبعض العرب ما المروة فقال طعام ماكول
ونايل مبذول وبشر مقبول وقال الاحنف بن قيس

فلو مد سروي بالكثير وجدتني وكنت له باذلا
فان المروة لا تستطاع اذا لم يكن مالها فاضلا

واما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة

فلأن المنة استرقاق الأحرار تحدث ذلة في الممنون عليه وسطوة
في المانّ به والاسترسال في الاستعانة تثقيل ومن ثقل على
الناس هان ولا قدر عندهم لمهان وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه
خدمك بنوك قال أغناني الله عنهم وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه
لابنه الحسن في وصيته له يا بني إن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله
ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًّا فإن اليسير
من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره وإن كان كلٌّ منه
كثيره وقال زياد لبعض الدهاقين ما المروءة فيكم قال اجتناب
الريب فإنه لا ينبل مريب وإصلاح الرجل ماله فإنه من مروءته وقيامه
بحوائجه وحوائج أهله فإنه لا ينبل من احتاج إلى أهله ولا من
احتاج أهله إلى غيره وأنشد ثعلب

من عفّ خفّ على الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفرت ما في كيسه ... فإذا عبثت به فأنت ثقيل

ولئن كان الناس بحكمة لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن
المساعدة والتناصف فإنما ذلك تعاون ائتلاف يتكافؤن فيه ولا
يتفاضلون وربما كان المستعين فيه مفضلًا والمعين متفضلًا
كاستعانة السلطان بجنده والمزارع بأكرته فليس من هذا
بد ولا يأخذ عنه غنى وإنما الذي يتصون عنه الكرام تعاون
التفضل فيتصعبوا عن أن يستعينوا إلا أن يكون عليهم يد ويسارعوا
إلى أن يعينوا لأن يكون لهم يد ومن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة
بجاه أو بمال فقد أوهن مروءته واستبدل بصيانته ومن دعاه الاضطرار

الاضطرار كنائب ألمّ أو حادث هجم إلى الاستعانة فيه بمن يفرج به من خناق
كربه ويتخلص به من وثاق نوائبه فلا لوم على مضطر فإن أعفاه الاستعانة
بالمال فلا عذر له في التعرض للمال وبعدل إلى ولاة الأمور فإن الحوائج
عندهم أنجح وهم عليها أصبر وأسهل وهم لذلك مندوبون فهم لا يجدون
له منًّا وليصبر على إبطائهم فإن تراكم الأمور عليهم يشغلهم لا يبرح الملح
المستبعث ولذلك قيل قدّم حاجتك بعض لجاجتك وقد تقدم
من قول الحكماء دع السلطان على قوم نسيم وعلى قوم سموم وقال
عبد الله بن المعتز من صحب السلطان فليصبر على قسوته كصبر
الغواص على ملوحة بحره وقال أبو بسار كم من لم يعرف

تعد قرابة وتعد صهرًا ... وتبعد ما تراه من دعاها
وما نال من عدم ولم يهش ... إلى الإمامة من رجاها
وأما ما فعلت وإن سيئ ... تعد صلاح نفسك من غناها

فإن تعذر عليه صلاح حاله إلا بما يستعين به على نوائبه كان
مع الضرورة فسحة منه لكن إن وجد قرضًا من ذوي الهم بأخذه
منه وجودًا فإن القرض مستفسح فيه في المروءات هذا رسول الله
صلى الله عليه وسلم مع ما أعلى الله تعالى من قدره وفضله على خلقه قد
اقترض ثم قضى فأحسن وقال صلى الله عليه وسلم من أعياه رزق
الله حلالًا فليستدن على الله تعالى وعلى رسوله وقال صلى الله عليه وسلم
المستدين تاجر الله في أرضه وقال صلى الله عليه وسلم من أعياه رزق
الله تعالى حلالًا فليستدن على الله وعلى رسوله وقال البحتري
إذا لم تكدر فعل عطية ... تبلغ بها أعلى الرضا بعد الرضا

او لا تكن هبه معرض بسرف اسبابه ولواهب من اقرضا

ولئن كان الدين رقا فهو اسهل من رق الافضال وقد روي عن
علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال من اراد البقا ولا بقا فليباكر
الغدا او ليخفف الردا قيل وما في خفة الردا من البقا قال قلة الدين
وان اعوزه ذلك الا استسماحا فهو الرق المذل ولذلك قيل لا مروة
لمقل وقال بعض الحكما من قبل صلتك فقد باعك مروته واذل لقدرك
عزه وجلالته والذي يتماسك به الباقي من مروته الراغبين والبقيه
الباقيه من صيانة السائلين وان لم يبق لذي رغبة مروة ولا لسايل
صون اربعة امور هي جهد المضطر احدها ان يتجافى ضرع
السايلين وابهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالابهة وليكن من
التجمل على ما تقتضيه حال مثله من ذوي الحاجات فقد قيل لبعض
الحكما متى يفحش زوال النعم قال اذا زال معها التجمل وانشد
بعض اهل الادب لعلي بن الجهم

هي النفس ما حملتها تتحمل والدهر ايام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة واحسن اخلاق الرجال التفضل
ولا عار ان زالت عن الحر نعمة ولكن عارا ان يزول التجمل

والثاني ان يقتنع بالسوال على ما دعته اليه الضرورة وقادته اليه الحاجة
ولا يجعل ذلك ذريعة للاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يعذر في ضرورته
وقد قال بعض الحكما من الف المسالة الف المنع والثالث ان يعذر في المنع
ويشكر على الاجابة فانه ان منع فعن من لا يملك وان اجيب فالى ما لا يستحق
وقد قال النمر بن تولب

لا تغضبن على امري في ماله وعلى كرايم صلب مالك فاغضب

والرابع ان يعتمد على سوال من كان للمسالة اهلا وكان النجح عنده
مامولا فان ذوي المكنة كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم الخير كثير وقليل فاعله والمرجو للاجابة
من تكاملت فيه خصالها وهي ثلاث احدها كرم الطبع فان الكريم
مساعد واللئيم معاند وقد قيل الجود لمن كانت له الى اللئام
حاجة والثانية سلامة الصدر فان العدو الذي على نكبتك
وحرج على نيلك وقد قيل من اوغرت صدره اشتد عتبه
فان رق الكريم طبعه وتحمل بحسن ظفره فاعظم بها محنة ان يصير
عدوك لك راحما وقد قال الشاعر

وحسبك من حادث بامري يرى حاسديه له راحمينا

والسادسة ظهور المكنة فان من سال من لا يمكن فقد احال
وكان كمن استنهض المسجون واستسعف المديون وكان بالرد
خليقا وبالحرمان حقيقا وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه من
لا يعرف لا حسن يقال له لا فهو احوج ووصى عبد الله بن الاهتم
ابنه فقال يا بني لا تطلب الحوائج من غير اهلها ولا تطلبها في غير حينها
ولا تطلب ما لست له مستحقا فانك ان فعلت ذلك كنت حقيقا بالحرمان
قال الشاعر

لا تسالن امرا حاجة يحاول من ربها مثلها
فيذهب مالك حلته ويبدا بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروة في نفسه فاما شروطها المروة في غيره

فثلثة الموازرة والمياسرة والافضال فاما الموازرة فنوعان احدهما
الاسعاف بالجاه والثاني الاسعاف في النوايب فاما الاسعاف في الجاه
فقد يكون من الاعلا قدرا والانفذ امرا وهو ارخص المكارم ثمنا
والطف الصنايع موقعا وربما كان اعظم من المال نفعا وهو الظل الذي
يلجا اليه المضطرون والحمى الذي ياوي اليه الخايفون فان كان وطاه
اتسع بكثرة الانصار والشيع وان قبضه انقطع بنفور الغاشية
والشيع فهو بالبذل ينمي ويزيد وبالكف ينقص ويبيد ولا عذر لمن
منح جاها ان يبخل به فيكون اسوا حالا من البخيل بماله الذي قد يعده
لنوايبه ويستبقيه لذريته ويستكثره لرتبته ولضد ذلك من بخل
بجاهه لانه قد اطاعه بالسم وبذره بالبخل وحرم نفسه غنيمة
ممكنة وفرصة قد ربحه فلم يعقبه الا ندما على فايت او اسفا على
ضايع ومقتا يستحكم في النفوس وذما قد ينتشر في الناس
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الخلق كلهم عيال الله
فاحب خلق الله احسنهم صنيعا الى عياله وقال بعض الحكما اصنع
الخير عند امكانه يبق لك حمده عند زواله واحسن والدولة
لك يحسن اليك والدولة عليك واجعل زمان رخايك عدة
للزمان بلايك وقال بعض الادبا من علامة الاقبال اصطناع
الرجال وقال بعض الادبا بذل الجاه احد الحباين وقال
ابن الاعرابي العرب تقول من امل شيا هابه ومن جهل شيا عابه
وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضده
ضده وليس لبذل الجاه التماس الجزا لانه لا مشكورا وانما هو بايع جاهه

جاهه ومعارض على نعم الله تعالى والاية فكان بالذم احق وانشد
بعض الادبا لعلي بن العباس الرومي
لا تبذل العرف حين تبذله كسبا لحمد او لعتاضه
بل ابذل العرف حين تفعله لجوهر العرف لا لاعراضه
وعلى من اسعد بجاهه ثلثة حقوق يستكثرها الشكر ويستمدها
المزيد احدها ان يستسهل المعونة مسرورا ولا يستثقلها كارها
فيكون لنعم الله مستزريا ولاحسانه متسخطا وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال من عظمت نعمة الله عليه عظمت موونة الناس
عليه فمن لم يحتمل تلك الموونة عرض تلك النعمة للزوال والثاني
مجانبة الاستطالة وترك الامتنان فانهما من لوم الطبع وضيق الصدر
وفيهما هدم الصنيع واحباط الشكر وقد قيل للحكيم اليوناني
من اضيق الناس طريقا واقلهم صديقا قال من عاشر الناس بعبوس
وجهه واستطال عليهم بنفسه والثالث ان لا يقرن بمسئلة
سعيه تقريعا الذنب ولا توبيخا على هفوة فلا يفي مضض التوبيخ
باداء النجح ويصير الشكر وجدا والحمد عتبا ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم اقيلوا ذوي الهيات عثراتهم وقال
المتنبي ان الملامة نفعها قليل اذا ما الشي ولى فادبر ه
واما الاسعاف في النوايب فلان الايام غادرة والنوازل
غايرة والحوادث عارضة والنوايب راتبة فلا يعذر فيها الا
لئيم ولا يستنقذ منها الا سليم قال عدي بن حاتم
كفى زاجرا للمرء ايام دهره تروح له بالواعظات وتغتدي

فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على الاسعاف فيها بما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله وقيل لبعض الحكماء هل شيء خير من الذهب والفضة قال معطيهما

والاسعاف في النوائب نوعان واجب وتبرع فاما الواجب فما اختص بثلثة اصناف وهم الاهل والاخوان والجيران اما الاهل فلماسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من احتاج اهله الى غيره

وقال حسان بن ثابت

وان امرأ نال الغنى ثم لم ينل قريبا ولا ذا حاجة لزهيد
وان امرأ عادى الرجال على الغنى ولم يسأل الله الغنى لحسود

واما الاخوان فلمستحكم الود ومتأكد العهد سئل الاحنف بن قيس عن المروة فقال صدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله تعالى في كل مكان وقال بعض حكماء الفرس صفة الصديق ان يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب وراى بعض الحكماء رجلين يصطحبان ولا يفترقان فسال عنهما فقيل هما صديقان فقال ما بال احدهما فقير والاخر غني واما الجار فلدنو داره واتصال مزاره وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ليس حسن الجوار كف الاذى ولكنه الصبر على الاذى وقال بعض الحكماء من اجار جاره اعانه الله واجاره وقال بعض البلغاء من احسن الى جاره دل على حسن نجاره وقال بعض الشعراء

وللجار حق فاحترس من اذاته وما خير جار لا يزال مؤاذيا

فيجب

182

فيجب في حقوق المروة وشروط الكرم في هؤلاء الثلثة تحمل اثقالهم واسعافهم في نوائبهم ولا فسحة لذي مروة مع ظهور المكنة ان يكلهم الى غيره او يلجيهم الى سؤاله وليكن سائل نفسه عنهم فانهم عيال كرمه واضياف مروته فكما انه لا يحسن ان يلجي عياله واضيافه الى الطلب والرغبة فهكذا من عاله كرمه واضافته مروته

وقال بعض الشعراء

حق على السيد المرجو نائله والمستجار به في العرب والعجم
ان لا يسيل الاماني صوب راحته حتى يخص به الادنى من اكرم
ان الفرات اذا جاشت غواربه روى السواحل ثم امتد في الامم

واما التبرع فمن عدا هؤلاء الثلثة من البعداء الذين لا يدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض المروة فنهض في حوائجهم وتكفل بنوائبهم فقد زاد على شروط المروة وتجاوزها الى شروط الرياسة وقيل لبعض الحكماء اي شيء من افعال الناس يشبه افعال الاله قال الاحسان الى الناس وان كف تشاغلا فلا لوم مالم يلح اليه مضطر اذ القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا حكم الموازرة فاما المياسرة فنوعان احدهما العفو عن الهفوات والثاني المسامحة في الحقوق فاما العفو عن الهفوات فلانه لا مبرأ من سهو او زلل ولا سليم من نقص او خلل ومن رام سليما من هفوة والتمس بريا من نبوة فقد تعدى على الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا وقال بعض الحكماء لا صديق لمن اراد صديقا لا عيب

فيه ٥ وقيل لانوشروان هل من احد لا عيب فيه قال من لا موت
له اذا كان الدهر لا يوجد ما طلب ولا ينيله ما احب وكان
الوحيد من الناس مرفوضا قصيا والمنقطع عنهم وحشيا لزمه لينتظم
زمانه مساعدة زمانه في الغضا ومسامحة اخوانه في الصفح والاغضا ٥
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى امرني بمداراة
الناس كما امرني باقامة الفرائض ٥ وقال بعض الادبا خصال
لا تجتمع الا في كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملال
وقال ابن الرومي

فعذرك مبسوط لذنب مقدم ... وودك مقبول باهل ومرحب
ولو بلغتني عنك اذني اقمتها ... لدى مقام الكاشح المتكذب
فلست بتقليب اللسان مصارما ... خليلا اذا ما القلب لم يتقلب

واذا كان الاغضا حتما والصفح كرما ترتب بحسب الهفوة ونزل
بقدر الذنب ٥ والهفوات نوعان صغاير وكباير فالصغاير معفو
والتوسع بها معذور لان الناس مع الطباع المختلفة والاخلاق
المتفاضلة لا يسلمون منها فكان الوجد بها مطرحا والعتب
مستقبحا وقد قال بعض الحكما من هجر اخاه من غير ذنب كان كمن
زرع زرعا ثم حصده قبل اوانه وقال ابو العتاهية

وشر الاخلا من لم يزل ... يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقا ... ويبريك في السر بري القلم

واما الكباير فنوعان احدهما ان يهفو بها خاطيا ويزل بها ساهيا
فالحرج فيها مرفوع والعتب عنها موضوع لان هفوة الخاطي ولومه
هدر

هدر وقال بعض الحكما لا تقطع اخاك الا بعد عجز الحيلة عن
استصلاحه وقال الاحنف بن قيس حق الصديق ان تحتمل له ثلاثا ظلم
الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة وحكي ان ابن ابي عون ان غلاما له اسا
عمل على قوم فاراد عمه ان يسي به فقال يا عم اني قد اسات وليس
معي عقل فلا تسي بي ومعك عقلك ٥ وقال ابو فراس

لم اواخذك بالجفا لاني ... واثق منك بالاخا الصحيح
فجميل العدو غير جميل ... وقبيح الصديق غير قبيح

فان شبه خطاه بالعمد وسهوه بالقصد لم يلم بالتوهم فيكون مليما
ولا يذم بالظن فيصير مذموما ولذلك قيل التثبت نصف العفو ٥
وقال بعض الحكما لا يفسدك الظن على صديق قد اصلحك اليقين له
وقال بعض شعرا هذيل

فبعض الامر اصلحه ببعض ... فان الغث يحمله السمين
ولا تعجل بظنك قبل خبر ... فعند الخبر تنقطع الظنون
ترى بين الرجال العين فضلا ... وفيما اضمر الفضل المبين
كلون الما مشتبها وليست ... تخبر عن مذاقته العيون

والثاني ان يتعمد ما اجترم من كبايره ويقصد ما اجترح من
سياته فلا يخلو اقدامه على السيات من احوال اربعة فالحالة الاولى
ان يكون موتورا قد قابل على ترته وكافى على مساته باللاىمه
على وتر عامله ولم يات الذي بها راحة لان المكافي اعذر وان
كان الصفح اجمل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والمشارة
فانها تميت الغرة وتحيي العرة وقال بعض الحكما من فعل ما شاه

لقي ما ساءه وقال بعض الادبا من نالته اساتك همته مساتك
وقال بعض البلغا من اولع بقبح المعاملة اوجع بقبح المقابلة وقال
صالح بن عبد القدوس
اذا وترت امرا فاحذر عداوته من يزرع الشوك لم يحصد به عنبا
ان العدو وان ابدى مسالمة اذا راى منك يوما فرصة وثبا
والاغضاء عن هذا الذنب احسن وان لم تكن المكافاة ذنبا لانه قد
راى عقبى اساته فان واصل الشر واصابته المكافاة وقد قيل ما اعتذر الك
الشر يعذر لك وبحسن النصفة يكثر الواصلون وقال بعض الحكما
من كثرت مساوي البلايه وجب عليك التلطف له في علاجه من
دايه وقال اوس بن حجر
اذا انت لم تعرض عن الجهل والخنا اصبت حليما او اصابك جاهل
والحالة الرابعة ان يكون عدوا قد استحكمت شحناوه واستوعرت
ضراوه واستحسنت ضراوه فهو يتربص بدواير السو انتهاز فرصه
ويتجرع لمصابة الحجر مرارة غصصه فاذا ظفر بنايبة ساعد فيها وان
شاهد نعمة عاندها فالبعد منه حذرا اسلم والكف عنه
متاركة اغنم فانه لا يسلم من عواقب شره ولا يفلت من غوايل
مكره وقد قالت الحكما لا تعرض لعدوك في دولته فاذا زالت
كفيت شره وقال لقمان لابنه يا بني كذب من قال الشر بالشر يطفى
فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل يطفي احدهما الاخرى
وانما يطفي الخير الشر كما يطفي الما النار وقال جعفر بن محمد
عليه السلام كفى من الله نصرا ان ترى عدوك يعصي الله فيك وقال

بعض الادبا بالسيرة العادلة تقهر المعادي وقال البحتري
واقسم لا اجزيك بالشر مثله كفى بالذي جازيتني لك جازيا
والحالة الثالثة ان يكون لئيم الطبع خبيث الاصل فقد اغراه لوم الطبع
على سو الاعتقاد وبعثه خبث الاصل على اتيان الفساد فهو لا
يستقبح الشر ولا يانف من المكروه فهذه الحالة اطم لان الاضرار بها اعم
ولا سلامة من مثله الا بالبعد والانقباض والخلاص منه لا
بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضاري في سوارح الغنم
وكالنار المتاججة في يابس الحطب لا تبقيها الا التالف ولا يدنو اليها
الا هالك هلك وروي مكحول عن ابي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال الناس كشجرة ذات جنا ويوشك ان يعودوا كشجرة ذات
شوك ان ناقدتهم ناقدوك وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم
لم يتركوك قيل يا رسول الله وكيف المخرج قال اقرضهم من عرضك
ليوم فاقتك وقال عبد الله بن العباس العاقل الكريم صديق
كل احد الا من ضره والجاهل اللئيم عدو كل احد الا من نفعه
وقال بعض الحكما شر ما في الكريم ان يمنعك خيره وخير ما في
اللئيم ان يكف عنك شره وقال بعض البلغا اعداوك داوك
وفي البعد منهم شفاوك وقال بعض الادبا شرف الكريم
تغافله عن اللئيم واوصى بعض الحكما ابنه فقال يا بني اذا سلم الناس منك
فلا عليك اذا لم تسلم منهم فانه قلما اجتمعت هاتان النعمتان
وقال عبد المسيح بن نفيلة
والخير والشر مقرونان في قرن فالخير متبع والشر محذور

والحالة الرابعة ان يكون صديقا قد استحدث نبوة وتغيرا او اخا
قد استجد جفوة ونفورا فابدى صفحة عقوقه واطرح لازم حقوقه
الا ان الحقوق الاعدا فهذا قد يعرض في المودات
المستقيمة كما تعرض الامراض في الاجسام السليمة فان عولجت اقلعت
وان اهملت استحكمت ثم اتلفت وكذلك قال بعض الحكما دا المودة
بكرة التعاهد وقال كشاجم

اقل ذا الود عثرته وقفه على سنن الطريق المستقيمة
ولا تسرع بمعتبة اليه فقد يهفو ونيته سليمة

ومن الناس من يرى ان متاركة للاخوان اذا نفروا اصلح
واطراحهم اذا فسدوا اولى كاعضا الجسد اذا فسدت
كان قطعها اولى فارشح بها ستر الى نفسه وكالثوب اذا
اخلق كان اطراحه بالجديد احمد من لبسه وقال بعض الحكما
رغبتك فيمن زهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن رغب فيك صغر همة
وقال بزرجمهر من تغير عليك في مودته دعه حيث كان قبل
معرفته وقال نصر بن احمد الخبزارزي

صل من دنا وتناس من بعدا لا تكرهن على الهوى احدا
قد اكثرت حوا اذ ولدت فاذا جفا ولد فخذ ولدا

وهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف اخاؤه وساءت طرائقه
وضاقت خلائقه ولم يكن فيه فضل الاحتمال ولا صبر على الادلال
فقابل على الجفوة وعاتب على الهفوة والجرح سالف الحقوق وقابل
العقوق بالعقوق فلا تجد الفضل الا في الحذر والى العفو اخلد وقد

وقد علم ان نفسه قد تطغى عليه فترديه وان جسمه قد يسقم عليه
فيولمه ويوذيه وهما اخص به واحنى عليه من صديق قد يمتزن انه
وانفصل بادواته فيريد من غيره لنفسه ما لا يجد لنفسه من
نفسه هذا عين المحال ومحض الجهل على ان من لم يحتمل
وانقلب الصديق فصار عدوا وعداوة من كان صديقا اعظم
من عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
اوصاني ربي بسبع الاخلاص في السر والعلانية وان اعفو
عمن ظلمني واعطي من حرمني واصل من قطعني وان يكون صمتي فكرا
ونطقي عبرا ونظري عبرا ونطقي ذكرا وقال لقمان
لابنه يا بني لا تترك صديقك الاول فلا يطمئن اليك الثاني يا بني
اتخذ الف صديق فالالف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا فالواحد
كثير وتمثل المهلب بن ابي صفرة بما يقول في العفو والعقوبة
قال هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بايهما شئت وانشد ثعلب

اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد بكفيك في ادباره متعلقا
اذا انت لم تترك اخاك وزلة اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

واذا كان الامر على ما وصفت فمن حقوقها الصفح الكشف عن
سبب الهفوة ليعرف الدا فيعالجه فان لم يعرف الدا لم يقف على الدوا
كما قال المتنبي

فان الجرح ينفر بعد حين اذا كان البناء على فساد

واذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال السبب من ان يكون لملال او
لزلل فان كان لملال فمودات الملوك ظل الغمام وحلم النيام وقد

فقيل في منثور الحكم لا تامنن ملولا وان تحلى بالصلة وعلاجه
ان يعتذر عن ملله بفصل الجفا لامل الاخاء وان كان لزلل او خطأ
اتسع له لو كان لهذا امد خل في التاويل وشبهه يوول الى الجميل
حمله على اجمل تاويله وصرفه الى اجمل جهته كالذي حكي
عن خالد بن صفوان انه مر له صديقان له فعرج عليه احدهما وطواه
الاخر فقيل له في ذلك فقال نعم عرج علينا هذا بفضله وطوانا ذاك
بثقته وانشد بعض اهل الادب لمحمد بن داود الاصبهاني

وتزعم للواشين اني فاسد عليك واني لست مما عهدتني
وما فسدت لي يشهد الله نية عليك ولكن خنتني فاتهمتني
غدرت بعهدي عامدا واخفتني فخفت ولو امنتني لامنتني

وان لم يكن لذلك في التاويل مدخل نظر حاله بعد ذلك فان ظهر
ندمه وبان خجله فالندم توبة والخجل انابة ولا ذنب لتايب ولا لوم على
منيب ولا تكلف عذرا عما سلف فيلجا الى ذل التحريف او خجل التعنيف
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والمعاذر فان اكثرها مفاجر
وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه كفى بما تعتذر منه تهمة وقال
سالم بن قتيبة لرجل اعتذر اليه لا يدعونك امر قد تخلصت منه الى الدخول
في امر لا تخلص منه وقال بعض الحكماء شفيع المذنب اقراره
وتوبته اعتذاره وقال بعض البلغاء من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ومن
لم يحسن الى التايب قبحت اساءته وقال بعض الادبا الكريم اوسع ما
يكون مغفرة اذا ضاقت بالمذنب المعذرة وقال بعض الشعرا

المعذر يلحقه التحريف والكذب وليس في غير ما يرضيك لي ارب

وقد اسات فبالنعمى التي سلفت الا منيت بعفو ما له سبب

وان عجل العذر قبل توبته وقدم التنصل قبل انابته فالعذر توبة
والتنصل انابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر زلته
فيكون لئيم الظفر سيء المكافاة وقد قيل من غلبته الحدة فلا [illegible]
لمودته وقال بعض الحكماء شافع المذنب خضوعه الى عذره
وقال بعض الشعرا

اقبل معاذير من ياتيك معتذرا ان بر عندك فيما قال او فجرا
فقد اطاعك من ارضاك ظاهره وقد اجلك من يعصيك مستترا

وان بادر بنفسه في ذلك ولم يتدارك بعذره وتنصله ولا مجاز
بتوبته وانابته راعيت حاله في المتاركة فستجده لا ينفك فيها
من امور ثلاثة اما ان يكون قد كف عن سيء عمله واقلع عن سالف
زلله فالكف احدى التوبتين والاقلاع احدى العذرين
وتكون انت المعتذر عنه بصفحك والمتنصل له بفضلك فقد قال عمر
بن الخطاب رضي الله عنه المحسن على المسيء امير والثاني ان يكون
قد وقف على ما اسلف من ذلك غير تارك ولا متجاوز فوقوف
المرء احدى المرتبتين وكفه عن الزيادة احدى الحسنتين
وقد استبقى بالوقوف على التجاوز احد شطريه فعول به على
صلاح شطره الاخر والمال والرجاء فان الارجاء يفسد شطر
صلاحه والثاني لا يصلح شطر فساده فان من سقم من جسمه ماله
معالجة سرى السقم الى صحته وان عالجه سرت الصحة الى سقمه
والثالث ان يتجاوز مع الاوقات ويزيد فيه على مرور الايام فهذا

هو الداء العضال فان لم يكن استدراكه وتأتى استصلاحه
فينبغي ان يستر عنه ان علا وبان عابه ان دنا وبغا به ان شا والا فاحرى
انه لا يغيا الحي ومن يلعب به للاعداء ان لم يغايبها فلا ائمة عليه والمعمم
على شقاقه شاخ مصروع وقد قيل من سل سيف البغي اغمده في
راسه فهذا شرط واما المسامحة في الحقوق فلان الاستقصا موحش
والاستقصا منفر ومن اراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح او
طمع لم يصل اليه الا بالمنافرة والمشاقة ولم يجد عليه الا بالمخاشنة
والمشاحنة وقد استقر في الطباع مقت من شاقها ونافرها وبغض
من شاحنها ونازعها كما استقر حب من سامحها وبايسرها
فكان الصق الامور بالمروة واستعطاف النفوس بالمسامحة والمياسرة
وبالفها بالمقاربة والمساهلة وقد قال بعض الادبا اذا احببت
الطلب زكا ربحك وان استقصيت الذنب والمسامحة نوعان في
حقوق وعقود فاما العقود فهو ان يكون فيها سهل المناجزة
قليل المحاجزة مامون الخيبة بعيدا من المكر والخديعة روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اجملوا في طلب الدنيا فان كلا ميسر
لما كتب له منها وقال صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على شي يحبه الله ورسوله
قالوا بلى يا رسول الله قال التغابن للضعيف وحكي ان ابي عون ان عمرو
بن عبيد اشترى للحسن البصري ازارا بستة دراهم ونصف فاعطى التاجر
سبعة دراهم فقال له ثمنه ستة دراهم ونصف فقال اني اشتريت
لرجل لا يقاسم اخاه درهما ومن الناس من يرى ان المساهلة في العقود
عجز وان الاستقصا فيها حزم حتى انه ليناقش في التافه الحقير وان

جاد بالجزيل الكثير كالذي حكي عن عبد الله بن جعفر وقد
ماكس في درهم وهو يجود بما يجود به فقيل له في ذلك فقال ذلك مالي
اجود به وهذا عقلي بخلت به وهذا انما يستمر من اهل المروة
ما يخادعهم الادنيا ويجانبهم به الاشيا وهكذا كانت حاله عبد
الله بن جعفر فاما ما كسه الاسترسال والاستسماح فحلا لانه مناف
للكرم ومباين للمروة واما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين
احدهما في الاحوال والثاني في الاموال فاما المسامحة في الاحوال
فهو اطراح المنازعة في الرتب وترك المنافسة في التقديم فان
مسامحة النفوس فيها اعظم والغنا وعليها اكثر فان تسامح فيها
ولم ينافس كان مع اخذه بافضل الاخلاق واستعماله لاحسن
الاداب اوقع في النفوس من افضاله برغائب الاموال ثم هو ازيد
في رتبته وابلغ في تقدمه وان شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه
لاخشن الاخلاق واستعماله لاهجن الاداب انكى في النفوس من
حد السيف وطعن السنان ثم هو اخفض للرتبة وامنع من التقدم
حكي ان فتى من بني هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن ابي داود
فقال له يا بني ان الادب ميراث الاشراف ولست ارى عندك
من سلفك ارثا واما المسامحة في الاموال فتتنوع ثلثة انواع مسامحة
اسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة انظار لعسرة وهي مع
اختلاف اسبابها تفضل مامور وتالف مشكور واذا كان الكريم
يجود بما تحويه يده وينفذ فيه تصرفه كان اولى ان يجود بما خرج عن يده
فطابت نفسا بفراقه وقد تصل المسامحة في الحقوق الى من له

بيتل البر ويابى الاسئله فيكون احسن موقعا وازكى محلا وربما
كانت المسامحة فيها الحرمن رد السايل ومنع المجتدي لان السايل
كما اجترى على سوالك مستجري ان ردته على سوال غيرك وليس
كل من تاا واسير حفك ورهين ذلك يجد بذا من مسامحتك ومسامحتك
ثم للنجح ذلك حسن الثنا وجزيل الاجر وقال محمود الوراق

المر بعد الموت احدوثه يفنى وتبقى منه اثاره
فاحسن الحالات حال امري تطيب بعد الموت اخباره

هذه حال المايرة واما الافضال فنوعان افضال اصطناع وافضال
استكفاف ودفاع فاما افضال الاصطناع فنوعان احدهما ما اسداه
جودا في شكر وانالي ما تالف به سوء بعود وكلاهما من شروط
المروة لما فيهما من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشياع والاتباع ومن
قلت صنايعه في الناس واعرض عن تالف النافرين كان فردا مهجورا
اوتابعا محقورا ولا مروة لمتروك مطرح ولا تحقير المحقور مستضعف
وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ما طاوعني الناس على شي اردته
من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيا وقال بعض الحكما ملك تحب
للنعم حق يمنعه ان لا يتوصل بها الى معصيته وانشد بعض الاعراب

من جمع المال ولم يجد به وترك المال لعام جدبه هان على الناس هوان كلبه

وقال اسحق بن ابرهيم الموصلي

يبقى الثنا وتذهب الاموال ولكل دهر دولة ورجال
لا تقنعن من رجل بحلاوة قوله حتى يصدق ما يقول فعال

فان ضاق به المحال عن الاصطناع بماله فقد علم من الكاسم ما عادها

وفقد من شروط المروة سنا دها فليواس بنفسه مواساة المساعد
وليسعد بها اسعاد متالف كما قال المتنبي

فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

وان كان لا براها وان احمدها الاسعا للمفضلين قليله بين المكثرين
فان الناس لا يساوون بين المعطي والمانع ولا ينفعهم القول دون الفعل
ولا يغنيهم الكلام عن المال ويرونه كالصدى ان رد صوتا لم يجد
نفعا وكما قال الشاعر

يجود بالوعد ولكنه يدهن من قارورة فارغه

فلا حرج عنده من المال كان فارغا وكل ما عدا الدين فضالة كان
هينا وقد قدمنا من القول في شروط المروة في الافضال ما اقنع
فاما افضال الاستكفاف فلان ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمه ومعاند
فضيلته يعرضه الجهل باظهار عناده وسفه اللوم على اذاه فسفهه
فان غفل عن استكفاف السفها واعرض عن استدفاع اهل البذا صار
عرضه هدفا للمثالب وحاله عرضة للنوايب واذا استكفى السفه
واستدفع البذا صان عرضه وحمى نعمته وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال ما وقي المرء به عرضه فهو صدقة وقالت عايشة
رضي الله عنها ذبوا باموالكم عن احسابكم وامتدح رجل الزهري
فاعطاه قميصه فقال له رجل اتعطي على كلام الشيطان فقال
من ابتغا الخير اتقا الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من اذا دبر
الوالدين فليعط الشعرا وهذا صحيح لان الشعر يسير به ما يمدحه
مدح او هجا فلاجل ذلك قيل لا تواخ شاعرا فانه يمدحك

بشر ويحول نحيانا ولا تستهان السفها الافضال شرطان احدهما
ان يخفيه حتى لا ينتشر فيه مطامع السفها فيتوصلوا الى احتذائه بسببه
كالسائل للتبذله والثاني ان يتطلب له في المجاملة وجها يحمله في الافضال
عليه شيئا لان لا يرى انه على السفه قد اعطى ولاهل البذاء رشى
فتغر ذلك زيادة السفه واستدامة البذا واعلم انك ما حييت
ملحوظ المحاسن محفوظ المساوي ثم من بعد ذلك حديث منتشر له
يرافقك صديق ولا يحابي عنك سبق فكن احسن حديث ينشر
يكن سعد في الناس مشكورا او اجري عند الله مدخورا فقد
روى زياد بن الجراح عن عمرو بن ميمون الاودي قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك
قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل
موتك فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروة وان كان
كل ما في هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها ه

الفصل الثامن من اداب متفرقة

اعلم ان الاداب مع اختلافها بتنقل الاحوال وتغير العادات
لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل انسان
ما بلغه الوسع من اداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات
دهره ولو امكن ذلك لكان الاول قد اغنى الثاني عنها والمتقدم
قد كفى المتاخر تكلفها وانما حظ الاخير ان يعاني حفظ الشارد
وجمع المتفرق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت
ما كان

ما كان موافقا وينفي ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره في استنباط
زيادة واستخراج فائدة فان اسعف بشي فاز بدركه وحظي بفضيلته
ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مالوفا من كلام الوقت وعرف اهله فان
لاهل كل وقت في الكلام عادة تولف وعبارة تعرف ليكون اوقع في
النفوس واسبق الى الافهام ثم يرتب ذلك على اوائله ومقدماته ويبنيه
على اصوله وقواعده حسب ما تقتضيه الحال فان لكل نوع من
العلوم طريقة هي اوضح مسلكا واسهل ماخذا فهذه خمسة شروط
هي حظ الاخير فيما يعانيه وكذا القول في كل تصنيف مستحدث
فلولا ذلك لكان تعاطي ما تقدم به الاول عناء ضايعا وتكلفا
مستهجنا وارجو ان يمدنا الله بالتوفيق لتادية هذه الشروط ويخصنا
بالمعونة بتوفيته هذه الحقوق حتى يسلم من ذم التكلف ومن عيب
التقصير وان كان اليسير معفوا والخاطي معذورا فقد قيل
من صنف فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان اسا
فقد استقذف وقد مضت ابواب تضمنت فصولا رايت اتباعها
بما لم احب الاخلال به فمن ذلك حال الانسان في ماكله ومشربه
فان الداعي الى ذلك شيئان حاجة ماسة وشهوة باعثة فاما
الحاجة فتدعو الى ما سد الجوعة وسكن الظما وهذا مندوب
اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس ولذلك
ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين لانه يضعف الجسد
ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع
عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب

من زهده لأن ما حرمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف أكثر ثواباً وأعظم
أجراً والشبهة في ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات وإتيان القرب ومن
اختبر بنفسه رفقاً موفوراً وحرمها أجراً مذخوراً فإن زهد في الحظ أقوى
من عفته ولم يبق عليه من هذا التكليف إلا الشهوة بربابه وسمعته.
وأما الشهوة فتتنوع نوعين أحدهما شهوة في الإكثار والزيادة
والثاني شهوة من تناول الألوان الملذة فأما النوع الأول وهو شهوة
الزيادة على قدر الحاجة والإكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه في
العقل والشرع لما كان قدر الكفاية مندوباً إليه بالعقل والشرع
لأن ما زاد على الكفاية فهو مضر وسبب مرض وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال إياكم والبطنة فإنها مفسدة للدين مورثة
للسقم مكسلة عن العبادة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا كنت
بطيناً فعد نفسك زمناً. وقال بعض البلغاء أقلل طعامك تحمد
منامك. وقال بعض العلماء لا تسكن الحكمة معدة ملئت طعاماً. وقال
بعض من ذم الرغب لؤم والنهم شؤم. وقال بعض الحكماء أكبر الدواء تقدير
الغذا. وقال بعض الشعرا

وكم من أكلة منعت أخاها بلذة ساعة أكلات دهر
وكم من طالب يسعى لأمر وفيه هلاكه لو كان يدري

وروى أبو يزيد المدني عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم إن الله تعالى لم يخلق وعاء ملئ شراً من بطن فإن كان لا بد فاعلا
فاجعلوا ثلثاً للطعام وثلثاً للشراب وثلثاً للريح. وأما النوع الثاني
وهو شهوة الأشيا الملذة ومنازعة النفس إلى طلب الأنواع المشتهية

فمذاهب

فمذاهب الناس في تمكين النفس منها مختلفة. فمنهم من
يرى أن صرف النفس عنها أولى وقهرها عن اتباع شهواتها أحرى ليذل له
قيادها ويهون عليه عنادها لأن في تمكينها وما تهواه بطرها بما
يردي لأن شهواتها غير متناهية فإذا أعطاها المراد من شهوة تعدتها
إلى شهوات قد استجدتها فيصير الإنسان أسير شهوات لا
تنقضي وعبد هوى لا ينتهي ومن كان بهذه الحالة لم يرج له صلاح
ولم يوجد فيه فضل. وأنشدت لأبي الفتح البستي

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته لتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

والحذر من هذه الحالة ما حكي أن أبا حازم كان يمر على الفاكهة
فيشتهيها فيقول موعدك الجنة. وقال آخرون تمكين النفس
لذاتها أولى وإعطاؤها ما اشتهت من المباحات أحرى لما فيه من
ارتياح النفس على شهواتها ونشاطها بإدراك لذاتها فيحسن عنها
ذله المقهور وبلادة المحصور فلا تقصر في دركه ولا تبطئ في نهضة
ولا تكل عن استعانة. وقال آخرون بل توسط الأمرين أولى
لأن في إعطائها كل شهواتها سلاطة والنفس السليطة معاندة
وفي منعها من جميع شهواتها بلادة والنفس البليدة عاجزة وفي منعها
عن البعض كف لها عن السلاطة وفي تمكينها من البعض حسم
لها عن البلادة. وهذا الحال أشبه المذاهب بالسداد لأن التوسط
في الأمور أحمد. وقد مضى الكلام في المأكل والمشرب فينبغي
أن نتبع بذكر الملبس. اعلم أن الحاجة وإن كانت إلى المأكل

والمشروب اذ هي في الملبوس ماسة وبها اليه حاجة لما في اللباس من حفظه
للجسد ودفع الاذى وستر العورة وحصول الزينة قال الله تعالى يا بني
ادم قد انزلنا عليكم لباسا يواري سواتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير
فمعنى قوله قد انزلنا عليكم لباسا اي خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يواري
سواتكم اي يستر عوراتكم وسميت العورة سوءة لانه يسوء صاحبها انكشافها
من جسده وقوله وريشا فيه اربع تاويلات احدها انه المال وهو قول
مجاهد والثاني انه اللباس والعيش والنعيم وهو قول ابن عباس رضه
والثالث انه المعاش وهو قول معبد الجهني والرابع انه الجمال وهو قول
عبد الرحمن بن زيد وقوله ولباس التقوى فيه ستة تاويلات
احدها ان لباس التقوى هو الايمان وهو قول قتادة والسدي
والثاني انه العمل الصالح وهو قول ابن عباس رضه والثالث انه
السمت الحسن وهو قول عثمان بن عفان والرابع هو خشية الله تعالى
وهو قول عروة بن الزبير والخامس هو الحيا وهذا قول معبد الجهني
والسادس هو ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد وقوله
ذلك خير فيه تاويلان احدهما ان ذلك راجع الى جميع ما تقدم من
قوله قد انزلنا عليكم لباسا يواري سواتكم وريشا ولباس التقوى ثم قال
ذلك الذي ذكرنه خير كله والثاني ان ذلك راجع الى لباس التقوى
ومعنى الكلام ان لباس التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول
قتادة والسدي فلما وصف الله تعالى حال اللباس واخرجه مخرج
الامتنان علم انه معونة منه لشدة الحاجة اليه واذا كان كذلك
فهي اللباس ثلثة اشيا احدها دفع الاذى والثاني ستر العورة
والثالث

والثالث الجمال والزينة فاما دفع الاذى به فواجب بالعقل
لان العقل اوجب دفع المضار واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى
والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكنانا وجعل
لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم باسكم فاخبر بحالها ولم يامر
بها اكتفا بما تقتضيه العقل واستغنا بما بعث عليه الطبع ويعني
بالظلال الشجر وبالاكنان جمع كن وهو الموضع الذي يسكن فيه ويعني
بقوله سرابيل تقيكم الحر ثياب القطن والكتان والصوف وسرابيل
تقيكم باسكم الدروع التي تقي البأس وهي الحرب فان قيل كيف
قال تقيكم الحر ولم يذكر البرد وقال جعل لكم من الجبال اكنانا
ولم يذكر السهل فعن ذلك جوابان احدهما ان القوم كانوا اصحاب
جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا اصحاب حر دون برد فذكر لهم
نعمة الله عليهم مما هو مختص بهم وهذا قول عطا والجواب
الثاني انه اكتفى بذكر احدهما عن ذكر الاخر اذ كان معلوما ان السرابيل
التي تقي الحر تقي ايضا البرد ومن اتخذ من الجبال اكنانا اتخذ من
السهل وهذا قول الجمهور واما ستر العورة فقد اختلف
الناس فيه هل وجب بالعقل او بالشرع فقالت طائفة وجب سترها
بالعقل لما في ظهورها من القبح وما كان قبيحا فالعقل مانع منه
الا ترى ان ادم وحوا لما اكلا من الشجرة التي نهيا عنها بدت لهما
سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة تنبيها بعقولهما في ستر
ما راياه مستقبحا من سواتهما لانهما لم يكونا كلفا ستر ما لم يبد لهما
ولا كلفاه بعد ان بدت لهما وقبل سترهما وقالت طائفة اخرى
وقد

بل ستر العورة واجب بالشرع لانه بعض الجسد الذي لا يوجب العقل
ستره فلما اختصت العورة بحكم شرعي وجب ان يكون ما يلزم من
سترها شرعيا وقد كانت قريش واكثر العرب معها لا يعلمونه من
ذوي العقل يتجنبون الثياب يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على انفسهم
اللحم والودك فيرون ذلك ابلغ في التدين وانما امرت ما استحسنت
في العقل حتى انزل الله تعالى يا بني ادم خذوا زينتكم عند كل مسجد
وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين يعني بقوله خذوا
زينتكم الثياب التي تستر عوراتكم وكلوا واشربوا ما حرمتموه على
انفسكم من اللحم والودك وفي قوله تعالى ولا تسرفوا تاويلان احدهما
لا تسرفوا في التحريم وهذا قول السدي والثاني لا تاكلوا
حراما فانه اسراف وهذا قول ابن زيد فاوجبت هذه الاية ستر
العورة بعد ان لم يكن العقل موجبا له فدل ذلك على ان سترها واجب
بالشرع دون العقل فاما التجمل به والزينة فمستحسن
بالعرف والعادة وغير ان يوجبه عقل او شرع وفي هذا النوع
قد يتخطى الحالتان التقصير والتوسط المطلوب فيه معتبر بوجهين
احدهما في صفة الملبوس وكيفيته والثاني في جنسه وقيمته
فاما صفته فمعتبرة بالعرف من وجهين احدهما عرف البلاد
فان لاهل المشرق زيا مالوفا ولاهل المغرب زيا مالوفا وكذا
ما بينهما من البلاد المختلفة عادات في اللباس مختلفة والثاني
عرف الاجناس فان للاجناد زيا مالوفا وللتجار زيا مالوفا ولذا
لمن سواهما من الاجناس المختلفة عادات في اللباس مختلفة وانما اختلفت

عادات

عادات الناس في ملابسهم من هذين الوجهين ليكون اختلافهم فيها
سمة يتميزون بها وعلامة لا يخفون معها فان عدل احد في لباسه عن عرف
بلده وجنسه كان ذلك خرقا وحمقا ولذلك قيل العري الفادح خير
من الزي الفاضح واما جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين احدهما
ما المكنة من اليسار والاعسار فان للموسر في الزي قدرا وللمعسر دونه
والثاني بالمنزلة والحال فان لذي المنزلة الرفيعة في الزي قدرا وللمنخفض
عنه دونه ليتفاضلوا فيه على حسب تفاضل احوالهم فيصيروا به
متميزين فان عدل الموسر الى زي المعسر كان شحا وبخلا وان عدل
الرفيع الى زي الدني كان به مهانة وذلا وان عدل المعسر الى زي
الموسر كان تبذيرا وسرفا وان عدل الدني الى زي الرفيع كان
جهلا وتخلفا ولزوم العرف المعهود واعتباره اكد المقصود ادل
على العقل وامنع من الذم ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه
اياكم ولبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة وقال
بعض الحكماء البس من الثياب ما لا يزدريك فيه العظماء ولا يعيبه عليك
العلماء وقال بعض الشعراء

ان العيون رمتك اذ فاجاتها وعليك من سهر الثياب لباس
اما الطعام فكل لنفسك ما اشتهيت واجعل لباسك ما اشتهاه الناس

واعلم ان من المروءة ان يكون الانسان معتدل الحال في مراعاة
لباسه من غير اكثار ولا اطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة
وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهمة الى العناية بها دناءة ونقص
وربما توهم بعض من خلا من فضل وعري من تمييز ان ذلك هو المروءة

الكاملة والسيرة الفاضلة لما يرى من تميزه بذلك عن الاكثرين وخروجه
عن حالة العوام المسترذلين وحكي عنه انه اذا عدا الهون وتجاوز قدره
كان اقبح لذكره وابعث على ذمه وكان كما قال المسي فيه

لا يعجبن مضيما حسن بزته وهل يروق دفينا جودة الكفن

حكى المبرد ان رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس ارث ثيابه واذا
ضاق لبس احسنها فقيل له في ذلك فقال اذا اتسعت تزينت بالجود
واذا اضقت فبالهيئة وقد اتى ابن الرومي بابلغ من هذا المعنى في شعره فقال

وما الحلي الا زينة لنقيصة يتمم من حسن اذا الحسن قصرا
فاما اذا كان الجمال موفرا كحسنك لم يحتج الى ان يزورا

ولذلك قالت الحكماء ليست العزة في حسن البزة وقال بعض الشعراء

وترى سفيه القوم يدنس عرضه سفها ويمسح نعله وشراكها

واذا اشتد كلفه بمراعاة لباسه وقطعه ذلك عن مراعاة نفسه وصار
الملبوس عنده البس وهو على مراعاته احرص وقد قيل في منثور
الحكم البس من الثياب ما يخدمك ولا يستخدمك وقال خالد
بن صفوان لاياس بن معوية اراك لا تبالي ما لبست قال البس ثوبا اقي به نفسي
احب الي من لبس ثوب اقيه بنفسي كما انه لا يكون الكلف بها فكذا
لا يكون شديد الاطراح لها فقد حكى ابن عباس ان رجلا جاء الى
النبي صلى الله عليه وسلم قشف الهيئة فقال له ما لك فقال من
كل المال قد اتاني الله فقال فان الله تعالى يحب اذا انعم على امرئ نعمة
ان ينظر الى اثرها عليه وقد قيل المروة الظاهرة في الثياب الطاهرة
وهكذا القول في غلمانه وحشمه ان اشتد كلفه بهم صار عليهم قيما وهم له

خادما وان اطرحهم قل رشادهم وظهر فسادهم وصاروا سببا للمقته
وطريقا الى ذمه لكن يكفهم عن مساوي الاخلاق ويأخذهم باحسن
الاداب كما قال فيهم بعض الشعرا

سهل الفنا اذا مررت ببابه طلق اليدين مؤدب الخدام

ولكن في تفقد احوالهم على ما يحفظ تجمله ويصون تبذله فقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذهبوا عنكم البوس والسوء واظهروا
نعمة الله عليكم واحسنوا الى مماليككم فانه اكبت لعدوكم وليتوسط
فيهم حالتي اللين والخشونة فانه ان لان هان عليهم وان خشن مقتوه
وكان على خطر منهم حكي ان الموبذ سمع صخب الخدم في مجلس
انوشروان فقال له اما تنهى هؤلاء الغلمان فقال انوشروان انما هم
اعداونا وقال ابو تمام

حسن الصديق عيونهم بجماله لصديقه عن صدقه ونفاقه
فلينظرن المرء من غلمانه فهم خلائقه على اخلاقه

ثم اعلموا ان للنفس حالتين حالة استراحة ايرحها اياه طلب
وحالة تصرف ان رحتها منه اختلت فالاولى بالانسان تقدير
حالتيه حالة نومه ودعته ثم حالة تصرفه ويقظته فان لهما قدرا
محدودا او زمانا مخصوصا يضر بالنفس مجاوزة حدهما وتعدي
زمانهما وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال نومة الصبحة
معجزة محرمة ومسحة مكسلة مورثة مفسدة منساة للحاجة وقال
عبد الله بن عباس النوم ثلثة نوم خرق وهي الضحى ونومة خلق
وهي القايلة ونومة حمق وهي العشاء وقد روي محمد بن سيرين ان

ميمون بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
نوم الضحى خرق والقيلولة خلق ونوم العشاء حمق وقال في منثور الحكم
من لزوم الرقاد عدم المراد فاذا اعطى النفس حقها من النوم والدعة واستوفى
حقها منهما بالمصيب والتيقظه خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها
وسلم بالرياضة من تلافيها وفسادها حكي ان عبد الله بن عمر بن عبد
العزيز دخل على ابيه وجده نائما فقال له يا ابه تنام والناس بالباب
فقال يا بني نفسي مطيتي واكره ان اتعبها فتقوم بي وينبغي ان يقسم حال
تصرفه ومطيته على المهم من حاجاته فان حاجة الانسان لازمة والزمان
يقصر عن استيعاب المهم فكيف به ان يتجاوز الى ما ليس بمهم فقل ما يكون
الا كتاركه بيضا بالعراء وملبسه بيض اخرى جناحا ثم عليه ان يتصفح
في ليله ما صدر من افعال نهاره فان الليل احضر للخاطر واجمع للفطن
فان كان محمود الامضاء واتبعه بما شاكله وضاهاه وان كان مذموما
استدركه ان امكن وانتهى عن مثله في المستقبل فانه اذا فعل ذلك
وجد افعاله لا تنفك من اربعة احوال اما ان يكون قد اصاب فيها
الغرض المقصود بها او يكون قد اخطا فيها بوضعها في غير موضعها او يكون
قد قصر فيها فنقصت عن حدودها او يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت
محدودها وهذا التصفح انما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل
الفعل ليعلم به مواقع الاصابة فينتهي به الى ادراك الخطا وقد قيل
كثر عيشه ان قل عثاره وكما يتصفح احوال نفسه فكذا يجب ان
يتصفح احوال غيره فربما كان استدراك الصواب منها اسهل لسلامة
النفس من شبه الهوى وتخلو بخاطر من حسن الظن فان ظفر بصواب

وجده من غيره واعجبه جميل من فعله زين نفسه بالتجربة فان السعيد
من تصفح اعمال غيره فاقتدى باحسنها وانتهى عن سيئها وقد روى زيد
بن خالد الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال السعيد من وعظ بغيره
وقال الشاعر

ان السعيد له من غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وانشد بعض اهل العلم لطاهر بن الحسين

اذا عجبتك خصال امرئ فكنه تكن مثل ما يعجبك
فليس على المجد والمكرمات اذا جئتها حاجب يحجبك

فاما ما لم يمض من اعماله ويريد الاقدام عليه من مطالبه فيجب ان يقدم
الفكر فيه قبل دخوله فان كان الاصابة فيه اغلب من الياس منه وحمدت
العاقبة فيه سلكه من اسهل مطالبه والطف جهاته ويقدر
شرفه يكون الاقدام عليه وان كان الاياس اغلب عليه من الرجا
مع ما يلحق التعذر ودنا الامر المطلوب فليحذر ان يكون له متعرضا
فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا هممت بامر فتفكر
في عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان غيا فانته عنه
وقالت الحكماء الطلب ما لا يدرك عجز وقال بعض الشعرا

واياك والامر الذي ان توسعت موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن ان يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

وليعلم ان لكل حين من عمره طورا وفي كل وقت من اوقات دهره
عملا فان تخلى في كبره باخلاق الصغر وتعاطى فعال الفكاهة والبطر
استصغره من هو اصغر وحقره من هو اقل واحقر فكان كالمهر الحرون

بقول الشاعر

وكل بما رمسه هو مجري على راسه العصا افير

فكن ايها العاقل مقبلا على شانك راضيا عن زمانك سلما لاهل دهرك جاريا على عادة عصرك منقادا لمن قدمه الناس عليك ومتحننا على من قدمك الناس عليه ولا تباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولا تجاهرهم بالمخالفة لهم فيعادوك فلا عيش لممقوت ولا راحة لمعادى وانشد بعض اهل الادب

اذا اجمع الناس في واحد وخالفهم في الرضا واحد
فقد دل اجماعهم دونه على عقله انه فاسد

اجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ولا تداهنها باخفا عيبك واظهار عذرك فيصير عدوك احظى منك في زجر نفسه بانكارك ومجاهرتك من نفسك التي هي اخص بك لاغرائك لها باعذارك ومسامحتك فحسبك سوا برجل ينفع عدوه ويضر نفسه وقد قال بعض الحكما اصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعا لك وقال بعض البلغا من اصلح نفسه ارغم انف اعاديه ومن اعمل جده بلغ كنه امانيه ه وقال بعض الادبا من عرف معايبه لم يلمز عائبه ه وانشدني ابو نابت النحوي لبعض الشعرا

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه ولو بان عيب من اخيه لابصرا
ولم تر كالانسان ينصف نفسه ولا ساكتا عن عيب الصديق وقد را

فهذب ايها العاقل نفسك بانكار عيوبك واتبعها كما تفعل بعدوك فان من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ ه اعاننا

195

الله واياك على القول والعمل وعلى النصح بالقبول وهو حسبي ونعم الوكيل ه

تم كتاب ادب الدين والدنيا بحمد الله وعونه وحسن توفيقه والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله اجمعين واصحابه المنتخبين وسلم تسليما كثيرا ه

قابلها صاحبها بن عمد فاسال الله ان يقابله وبعده قابلتها لكسرها فصح فيها الجبر والمقابلة

ملك العبد الفقير الى الله تعالى احمد ابن ابراهيم ابن النقيب

ولبعضهم تعزية فيمن اسمه يوسف

قضاء الاله في خلائق واقع وكل الامر الله ذي القهر خاضع
وكاس المنايا بالمنية دائر وكل فمن تلك الكؤس يجرع
ولم يتخرجها من لفظ كل مقرب ولا مرسل في الخلق للخلق شافع

اسفت على فقدان جمال ابن يوسف دموع لاجفاني عليه دوامع
وصوت كيعقوب لضاعف حزنه وصبر ليعقوب وللدمع ضايع
وقلت اذا ما عن صبرا باضهم فمن ذا تحيينا وعنا يدافع
الاصبر المهيمن قلب من تربا باحبابها وللنادي اضلع
الا بالغ الله الزمان الدهر من حيا المسلمات بما السعد طالع
وعظم رب الخلق في اجوركم وعوضكم خير البريات رع
واسكنه الفردوس اعلا جنانه يحوف طيب في الجنان روائع
وصل اله العرش ربي دائما على المصطفى الهادي والصدق قاطع

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيد الخلق محمد واله وصحبه وسلم تسليما

اخبرنا الشيخ الصالح ابو اسحق علي بن عبد الله البغدادي الاجري قراءة عليه وانا اسمع عن ابي الكرم
المبارك بن الحسن بن احمد الشهرزوري عن الشريف ابي الحسين محمد بن علي بن محمد المهتدي بالله قال
اخبرنا ابو القسم عبد الله بن احمد بن علي المقرئ قال حدثنا محمد بن مخلد والحسن بن اسمعيل قال
حدثنا احمد بن منصور زاج قال حدثنا عمر بن ابراهيم المدني عن عبد الملك بن عمير عن اسيد بن صفوان
صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما قبض ابو بكر رضي الله عنه وسجي ارتجت المدينة
بالبكاء كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء علي عليه السلام باكيا مسترجعا
وهو يقول اليوم انقطعت خلافة النبوة حتى وقف على باب البيت الذي فيه ابو بكر رضي
الله عنه وهو مسجى فقال رحمك الله يا ابا بكر كنت الف رسول الله صلى الله عليه وسلم وانيسه
ومستراحه وثقته وموضع سره ومشورته وكنت اول القوم اسلاما واخلصهم ايمانا
واشدهم يقينا واخوفهم لله عز وجل واعظمهم غناء في دين الله واحوطهم على رسول الله واحدبهم على الاسلام
وامنهم على اصحابه واحسنهم صحبة واكثرهم مناقب وافضلهم سوابق وارفعهم درجة
واقربهم وسيلة واشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم هديا وسمتا ورحمة
وفضلا واشرفهم منزلة واكرمهم عليه واوثقهم وارفعهم عنده فجزاك الله عن رسوله وعن الاسلام
خيرا كنت عند رسول الله بمنزلة السمع والبصر صدقت رسول الله حين كذبه الناس
فسماك الله في تنزيله صديقا فقال والذي جاء بالصدق وصدق به
وآسيته حين بخلوا وكنت معه على المكاره حين قعدوا عنه وصحبته في الشدة اكرم الصحبة ثاني
اثنين وصاحبه في الغار والمنزل عليه السكينة ورفيقه في الهجرة وخليفته افضل الخلافة
في دين الله وامته احسن الخلافة حين ارتد الناس وقمت بالامر ما لم يقم به خليفة نبي فنهضت
حين وهن اصحابه وبرزت حين استكانوا وقويت حين ضعفوا ولزمت منهاج رسول
الله اذ وهنوا كنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا لم تنازع ولم تصدع
برغم المنافقين وكبت الكافرين وكره الحاسدين وصغر الفاسقين وغيظ الباغين حين
فشلوا ونطقت حين تعتعوا ومضيت بنور الله اذ وقفوا فاتبعوك فهدوا وكنت اخفضهم صوتا واعلاهم فوتا واقلهم كلاما
واصوبهم منطقا

196

واطولهم صمتا وابلغهم قولا واكرمهم ابا واشجعهم والرهم واشرفهم نفسا واعرفهم بالامور واشرفهم عملا
كنت والله للدين يعسوبا اولا حين نفر عنه الناس واخرا حين اقبلوا كنت للمؤمنين ابا رحيما حين صاروا
عليك عيالا فحملت اثقال ما عنه ضعفوا ورعيت ما اهملوا وحفظت وعلمت ما جهلوا وشمرت حين خنعوا
وعلوت حين هلعوا وصبرت اذ جزعوا وادركت اوتار ما طلبوا وراجعوا رشدهم برايك فظفروا
ونالوا بك ما لم يحتسبوا كنت على الكافرين عذابا صبا ونهبا وللمسلمين رحمة وحصنا طرت والله بعنانها وفزت بحبائها وذهبت بفضائلها وادركت سوابقها لم تفلل حجتك ولم تضعف بصيرتك
ولم تجبن نفسك ولم يزغ قلبك ولم يخر كنت كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف وكنت
كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم امن الناس عليه في صحبتك وذات يدك وكنت كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ضعيفا في بدنك قويا في امر الله عز وجل متواضعا في نفسك عظيما عند الله جليلا
في اعين المؤمنين كبيرا في انفسهم لم يكن لاحد فيك مغمز ولا لقائل فيك مهمز ولا لاحد فيك مطمع ولا لمخلوق عندك هوادة
الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تاخذ له الحق والقريب والبعيد في ذلك سواء اقرب الناس اليك
اطوعهم لله عز وجل واتقاهم له شانك الحق والصدق والرفق قولك حكم وامرك حتم ورايك علم
وعزم فاقلعت وقد نهج السبيل وسهل العسير واطفئت النيران واعتدل بك الدين وقوي بك الايمان
وثبت الاسلام والمسلمون وظهر امر الله ولو كره الكافرون فجليت عنهم فابصروا سبقت والله سبقا بعيدا واتعبت
من بعدك اتعابا شديدا وفزت بالخير فوزا مبينا فجللت عن البكاء وعظمت رزيتك في السماء وهدت مصيبتك الانام
فانا لله وانا اليه راجعون رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له امره فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله
عليه وسلم بمثلك ابدا كنت للدين عزا وحرزا وكهفا وللمؤمنين فئة وحصنا وغوثا وعلى المنافقين غلظة وغيظا
فالحقك الله بنبيك صلى الله عليه وسلم ولا حرمنا اجرك ولا اضلنا بعدك وانا لله وانا اليه راجعون وسكت الناس
حتى انقضى كلامه ثم بكوا حتى علت اصواتهم وقالوا صدقت والله يا ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم

طالع في هذا الكتاب العبد الفقير الى الله تعالى محمد ... غفر الله له ولوالديه ولمن دعا له بالمغفرة ولجميع المسلمين امين امين امين

المسلمين

حكي ان بعض الشعراء امتدح بعض الامراء بابيات فلم يصله بشي فكتب هذه الابيات في لوح وادرجه في بساط الامير
ماذا اقول اذا رجعت وقيل لي ماذا اصبت من الكريم المفضل ان قلت اعطاني كذبت وان اقل بخل الجواد بماله لم يقبل
فاختر لنفسك ما اقول فانني لابد مخبرهم وان لم اسئل فامر بما يليق بقدرهم وكتب على ظهر اللوح هذين البيتين
عاجلتنا فاتاك عاجل برنا نزرا ولو امهلتنا لم يقلل فخذ القليل وكن كانك لم تسل ونكون نحن كاننا لم نسئل

قال في شرح بانت سعاد كان عمر رضي الله عنه لا يقدم على أحد ويقول أشعر الناس الذي يقول ومن ومن ويشير
إلى قوله في معلقته المشهورة

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلم
ومن يك ذا مال فيبخل بماله ... على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن لم يزل يستحمل الناس نفسه ... ولا يغنها يوما من الدهر يندم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ... ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

طالع واستفاد منه
العبد الفقير إلى الله تعالى
[illegible]
وجميع المسلمين

طالعه واستفاد منه
العبد الفقير إلى الله تعالى
[illegible]
الشافعي لطف الله به

طالعه واستفاد منه
العبد الفقير [illegible]

طالع العبد الفقير إلى الله تعالى [illegible] المعروف [illegible]
والتقصير [illegible] وأشهد أن لا إله إلا الله [illegible]
وأن محمدا عبده ورسوله [illegible] العالمين صلى الله عليه
وعلى آله وصحبه وسلم وصلى الله على سيدنا رسول الله [illegible] وآله
[illegible] المعروف [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
والحمد لله